

شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت – تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - Liban

B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومدير تحريرها المسؤول

الدكتور سهيل ادريس

Propriétaire - Directeur

SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي ادريس

Secrétaire de rédaction

AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا – راس الخندق الغميق – بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

العدد الثاني – شباط (فبراير) ١٩٦٦ – السنة ١٤

« ١ »

حين همَّ ابراهيم بمغادرة بيت عمتي ذلك المساء ، قال لي بعبارة حاسمة :

– سأضطر الى التغيب بضعة ايام عن طولكرم ، فاعذريني اذا انقطعت عنك هذه الفترة .

وفاجأني النبأ كما ادهشتني الصيغة الجافة التي صب فيها . وحدقت في عيني ابراهيم اسألهما تفسيرا ، ولكني رأيته يغضي ، ثم ينفتل وهو يمد لي يده مصافحا ، على جاري عادته كلما قابلني او تركني ، فاذا هي جامدة باردة كما لم احسها من قبل قط . ووددت ان استبقي لحظات هذه اليد التي ألفتها ، ولكن لهجة ابراهيم وانغلاق قسماته لم يشجعاني على ذلك ، فتركتها تتراخى ، وتمتمت شفتاي في استسلام :

– مع السلامة ، ابراهيم ..

ولاحظت آنذاك انه لم يتلفظ حتى باسمي ، فبدا اسمه غريبا لي اذ نطقت به ، كأني كنت الفظه للمرة الاولى .

***

الليل والأسلاك

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

***

واذ غاب عني ، عدت الى غرفتي وانا أحس الاضطراب يساورني من جديد ، وطفرت الى ذهني جميع علامات الاستفهام التي كنت احاول ان انيمها منذ ايام : ما بال ابراهيم ؟ وما الذي يغيره منذ حين ؟ ولماذا ارى شعاع الود والصداقة ينطفىء في عينيه ليحل محله نظر ساهم تقطعه انتفاضات مفاجئة وعبارات صارمة ؟

وبدأت اوقن اني كنت ازعجه بحديثي الذي لا ينقطع عن سعد ، وباسئلتي المتدافعة : ماذا تظن قد حل بسعد ؟ أتعتقد ان سعد سينبثق ذات لحظة امام أعيننا من وراء الحدود ؟ اتظن انه قد نجا في تلك الليلة من رصاص العدو ، وعاد الى « عين بارد » في انتظار اللحظة المناسبة للحاق بي ؟ ولكن يا ابراهيم ... اسمع يا ابراهيم ... قل لي يا ابراهيم ... لماذا تأخر سعد ؟ انني خائفة على سعد !

وللمرة الاولى احسست بان اسم خطيبي الغائب يصبح ثقيلا ، كريه المذاق في فمي .. وتساءلت كيف لم افطن قبل الآن الى انه ربما كان يخلف الضيق والنفور في

نفس ابراهيم ؟

بيد اني عدت اتساءل : ألم يكن ابراهيم اعز صديق لسعد ، واوفى رفيق ؟ وكيف استطيع ان انسى العبارة التي رددها لي سعد في تلك الليلة المشؤومة التي فرقت بيننا : « اذا تمكنت يا سميرة من عبور الحدود بدوني ، فلا تخافي شيئا : ابحثي عن ابراهيم في طولكرم تجديه في انتظارك ، وسيحافظ عليك كأخته ريثما اتمكن من اللحاق بك . ان ابراهيم صديقي واخي ورفيق دربي » .

ولم أكن بحاجة الى كلام سعد لاعرف هذه الحقيقة : فلقد عشنا ، نحن الثلاثة ، اربعة اعوام كاملة معا في عين بارد بعد نزوحنا عن حيفا . وكان ابراهيم صديقنا الاوفى، وشاهد حبنا الامين ، بل كان أول من اقرنا على عزمنا ان نتزوج في الارض الحرة ، اذا طال الامد على تحرير الارض المحتلة .

واني لي ان انسى تلك الساعة التي لقيت فيها ابراهيم ؟

كنت قد قضيت نهارين بعد ان اهتديت الى بيت عمتي التي آوتني عندها ، وانا ابحث عنه ، وأسأل المارة في شوارع طولكرم ، والباعة والتجار في السوق ، حتى دلني احدهم ذات مساء على عنوان غرفته . وحين طرقت عليه الباب ، انعقد لسانه لحظات اذ رآني ، ثم نطق باسمي واتبعه باسم ابراهيم مرتين وثلاثا ، قبل ان يكب على يدي فيقبلها ، مدركا ان ابراهيم لم يستطع ان يتسلل معي . وحين رفع الي عينيه ، رأيت فيهما الدموع ، فارتعشت تأثرا ، وكدت آخذ في يدي هذا الوجه الاسمر الجميل الذي اعرفه منذ وقت طويل ، فأقبله واضمه الى صدري.

ومنذ ذلك اليوم ، وانا القى ابراهيم كل مساء في بيت عمتي ، بعد عودته من عمله ، وهو لا ينفك يطالبني بأن اروي له حكاية تسللنا من الارض المحتلة ، ويستوقفني عند ادق التفاصيل . وكان يرجوني ان اعيد على سمعه بصورة خاصة وصف الموقف الذي يصور سعد وهو يبتهل الي ان اسرع في الفرار ، وان اضاعف القدرة على الزحف نحو الحدود حين تبين أن العدو قد شعر بنا فبدأ يطلق نيران رشاشاته في اتجاهنا ، على غير هدى . وكان لا بد لسعد آنذاك من أن يتراجع دوني ، وهو يطلق بين الفينة والفينة طلقة من مسدسه ، ثم ينبطح ارضا لينقي رد رشاشات العدو . ولولا اننا كنا قد تعاهدنا ان يبذل كل منا قصارى جهده للنجاة بنفسه اذا اضطر الآخر الى التوقف او التراجع او اصيب بأي شيء ، لآثرت ان ابقى معه والقى المصير الذي يلقاه . بيد اني ظللت متفائلة فترة طويلة وأنا اسمع صوت الطلقات يتبادلها مع العدو ، بينما بقيت ازحف عبر بيارات البرتقال ، واقطع مراحل الدرب الذي كنا قد قضينا اسابيع عديدة ونحن نتعرف الى معالمه تمهيدا للفرار .

كان ابراهيم يصغي الي بشغف ويطرح علي اسئلة لا تنتهي ، كأنما كان يتذكر قصة فراره هو نفسه ، قبل ذلك ببضعة أشهر . وكان يصمت ويغمض عينيه اذ كنت اروي له كيف ظلت رصاصات سعد المتقطعة تتصادى مع رشاشات العدو ، حتى اختلطت علي آخر الامر والتاثت ، عندما بلغت اسلاك الحدود فعبرتها ، ثم ارتميت تحت شجرة ، وانا ارتجف خوفا وبردا ، وبقيت متمددة اكثر من ساعتين بعد انقطاع صوت الرصاص ، اتساءل في هلع وذعر : هل تمكن سعد من النجاة بنفسه والعودة الى القرية ، ام اردته رشاشات العدو ، ام القي القبض عليه ؟ ثم لم يكن لي مناص من ان أسلك الطريق نحو طولكرم بائسة ، باكية ، مريضة .

وكان دأب ابراهيم ان يهدئني ويطمئنني ويدعوني الى الصبر ويذكرني بأن بلاغات العدو وانباء اذاعته لم تورد اسم سعد فيما اوردت من اسماء المتسللين الذين لاقوا حتفهم في اثناء فرارهم . واشهد ان نفسي كانت تطمئن آخر الامر لعبارات ابراهيم ، ويقر بالي ، ويعاودني الامل والتفاؤل بان يكون سعد ما يزال على قيد الحياة ، وان يتمكن ذات ليلة من عبور الحدود .

وكان ابراهيم لاينى يردد لي : « صبرا يا سميرة ! صبرا ! لا بد ان يأتي سعد في يوم قريب ، فنحتفل بزواجكما أعظم احتفال ! »

واذن ، ما باله منذ ايام يقف مني هذا الموقف ، ثم يأتي ليبلغني انه سينقطع عن زيارتي ، ولو كان هذا الانقطاع لبضعة ايام فحسب ؟

« ٢ »

تفاقم قلقي بعد انقضاء ثلاثة ايام على غياب ابراهيم، وامتلأت اضطرابا وضيقا ، وبدأت اشعر ان بيت عمتي سجن صغير كنت اود ان اخرج منه بأي ثمن لامضي فأبحث عن ابراهيم في كل مكان .

وفي اليوم الرابع ، قصدت حانوت السمانة الذي كان يعمل فيه فأخبرني صاحبه ان ابراهيم منقطع عن ارتياده منذ بضعة ايام . ووثب الى شفتي السؤال المخيف : « ماذا ؟ أيكون قد عاد ... فتسلل الى الارض المحتلة ؟ »

وفيما كنت متجهة الى غرفته عند المساء ، جعلت أتذكر اسئلته القلقة حول فراره . كان يقول لي بلا انقطاع : أما كان اجدر بي ان ابقى هناك ؟ اما كان مجرد وجودي يبث بعض الاطمئنان في نفوس الرفاق ؟ ماذا تراهم قد قالوا عني ؟

وكنت اجيبه محاولة ان ارد له اطمئنانه : « ولكنهم يا ابراهيم كانوا يعرفون تمام المعرفة انك كنت هدفا دائما لملاحقة سلطات الاحتلال ومراقبتهم وتضييقهم عليك ... وكثيرون هم الذين نصحوك بالفرار ... »

وتذكرت انه قال لي ذات مساء :

— لو خطر لكل رفيق هناك يا سميرة ان يسلك

طريق الفرار هربا من الملاحقة وخوفا من الاضطهاد ، من تراه كان يبقى ليؤكد حقنا في البقاء والعودة ؟

فأجبته قائلة :

ـ ولكن شأنك شأن آخر . لقد قررت الفرار ، وشجعناك عليه ، يوم سمعنا ان السلطات كانت تنوي اعتقالك بين ساعةو ساعة وزجك في السجن مع المئات من رفاقنا ...

وحدق ابراهيم في عيني ثم قال :

ـ هل تستطيعين ان تؤكدي لي ان السلطات نفسها ليست هي التي روجت هذه الشائعة ؟

قلت في دهشة : ـ ولكن ما غايتها من ذلك ؟

فأجاب : ـ لتحملني على التفكير بالفرار ، فيكون اصطيادي على الحدود ، عند محاولة التسلل ، أيسر واجدى من زجي في السجن بين الرفاق حيث لن اتردد في مواصلة مهمتي بالتحريض وبث روح المقاومة والصمود!

وصمت آنذاك وانا اكاد اؤمن بما ذهب اليه من افتراض ، ثم رأيته يتململ وهو يقول :

ـ ليتني قتلت تلك الليلة على الحدود !

فأرعبتني عبارته وبرقت في عيني صورة خطيبي ، وكأنه يقتل هو نفسه على الحدود ، فأحسست بانهيار في روحي وجسمي ، وقلت وانا اتناول يد ابراهيم ، كأني احاول بها تفادي الانهيار :

ـ لا ... لا تقل هذا يا ابراهيم ..

وللمرة الاولى لمحت ذلك المساء هذا السهوم الذي بدأت الاحظه في عينيه منذ حين ، وتابعت اقول وانا اود ان اخفف عنه ذلك الشعور بالذنب :

ـ ان ذلك ما كان يجديك او يجدينا يا ابراهيم ...

واحسست كفه تضغط على اصابعي فجأة ، فحاولت ان احررها بلطف ، ولكنه تشبث بها ، وسمعته يتمتم باسمي وقد امتقع وجهه ، ولكنه ما لبث ان انتفض في مجلسه واعتذر باضطراب ، ثم قال في تلعثم :

ـ ولكن ... ما الذي افعله هنا الآن ؟

فلم ادرك قصده ، ولم يتح لي ان استوضحه اذ نهض وهو يستأذن بالذهاب .

ذكرت هذا كله وانا احث الخطى الى غرفته ، متفاقمة القلق ، ثم خطرت لي فكرة اشاعت في جسمي رعشة غريبة : « ماذا ؟ أترى ابراهيم يتجنب لقائي الآن ؟ أيكون قد احس بان عاطفة الصداقة التي كان يكنها لي ، بصفتي خطيبة صديقه ، تتحول منذ حين الى عاطفة ... اخرى ؟ اتراه قد بدأ ، انطلاقا من هنا ، يعاني الشعور بالاثم ، ويتجنب لقائي ما وسعه ذلك ؟ »

واحسست بانقباض مؤلم في صدري ، وشعرت بأني عاجزة عن مجابهة هذا الموقف الجديد : اذا كان هذا هو الواقع ، فهل ينبغي ان امتنع عن لقاء ابراهيم ؟

ولكني سارعت اراجع نفسي ، واتهمها بالتعجل في تفسير الوقائع . فما يدريني ان ابراهيم ليس منصرفا الآن الى عمل يستغرق جهده ووقته ؟ ما يدريني انه لا يعقد اجتماعات متواصلة مع شباب المنطقة بقصد التدريب؟ اما كان يشكو طوال الايام الماضية انه مشلول لا يعمل الا ان يؤمن معيشته ؟ الم يقل ، في لقائنا الماضي « ما الذي افعله هنا الآن ؟ » اتراه لم يكن يقصد الى ان عليه ان يقوم بعمل ايجابي على مستوى القضية ، بدلا من هذه الحياة الهينة التي يعيشها ؟

واستعدت بعض هدوئي اذ خطرت لي هذه التساؤلات ، ولكن الاضطراب ما لبث ان ناوشني حين فكرت بان تلك العبارة يمكن ان تفسر تفسيرا آخر ..

ولم اجد ابراهيم في غرفته ذلك المساء ، ولكني حين عدت الى بيت عمتي لمحت في الحديقة شبحا رأيته يسارع فيختفي في ظل جذع شجرة . وبالرغم من ان الظلام كان قد بدأ يتكاثف ، فانه لم يساورني شك في انه كان ابراهيم .

ولم اجرؤ على مناداته . وظللت ساعات انتظر — واخشى — ان يدق الباب ، ولكني استسلمت للنوم ، اعياء ، من غير ان اسمع طرقا على باب بيت عمتي .

« ٣ »

كان اربعة عشر يوما اخرى قد تصرمت حين عاد ابراهيم الى زيارتي . وقد عشت هذه الايام كلها في تمزق هائل . ولم احاول ان أسأل عنه في المتجر ولا في غرفته، بل لم اكن اجرؤ حتى على الاطلال من نافذة غرفتي لارى ان كان شبحه لا يزال يرود ارجاء الحديقة .

وقد اقبل ابراهيم يبلغني ما كنت اخشاه : انه متسلل هذه الليلة بالذات عائدا الى الارض المحتلة .

وقال لي ابراهيم ان رفاقه هناك اشد حاجة اليه من رفاقه هنا ، وانه يحس بأنه يهدر وقته بلا جدوى ، ويكاد يخون القضية .

واضاف ابراهيم يقول ، بعد لحظة صمت :

— ثم انني اريد ان ابحث عن سعد يا سميرة .. وانا ارجو ان اجده في عين بارد ، وقد نجا في تلك الليلة، لنقوم مرة ثانية بمحاولة التسلل الى طولكرم . فاذا كتب لنا النجاح ، فسأكون سعيدا جدا بان ابارك زواجكما ...

وكشف لي ابراهيم انه كان ، طوال الايام التي تغيب فيها ، يقصد الحدود كل مساء يتعرف على الارض ، ويرسم الدرب الذي سيسلكه .

وخطر لي ان أسأله لماذا لم يزرنا خلال تلك الايام التي لا بد ان يكون قد عاد فيها الى غرفته ليبيت ليله ، ولكنه سبقني الى القول ، فيما كان خافض الرأس يتفادى النظر الي :

— واعترف لك يا سميرة انني قصدت بيت عمتك مرة واحدة فقط : هي تلك التي رأيتني فيها ، فتجاهلت وجودي ...

ثم رفع الي عينيه ، فكان دوري في الاغضاء ، وسمعته يقول :

— ولكن حسنا فعلت يا سميرة .

ولم يزد على ذلك حرفا .

وحين نهض يودعني ، قلت له وانا لا اكاد اتمالك نفسي :

— سأرافقك الى الحدود ، يا ابراهيم ..

وحاول جهده ان يثنيني ، وحذرني من العودة وحدي في الليل ، ولكنه استسلم لارادتي حين لاحظ اصراري .

وسرنا عبر بيارات البرتقال ، والليل قد بدأ يهبط ، من غير ان ننبس بكلمة .

واخذت اشعر بارتجاف في ركبتي كان يتفاقم كلما اقتربنا من الحدود .

واحسست ان علي ان اتماسك واجالد حتى لا انهار .

وامسك ابراهيم فجأة بذراعي يستوقفني وهو يقول :

— كفى الى هنا يا سميرة ...

ونظرت الى وجهه الصارم الاسمر احدق فيه في الليل ، ثم لم اتمالك ان مددت ذراعي اضمه الى صدري ، وجعلت اشده بكل قواي ، وراحت شفتاي تقبلان عينيه وخديه وشفتيه وانا احس دمعي يسيل على وجهينا كلينا.

وحين عدت انظر اليه ، كان مغمضا عينيه ، ثم مال بوجهه فقبل شعري قبلة سريعة ، ودفعني عنه بلطف ، وانتقل يعدو نحو اسلاك الحدود ، منحني القامة .

وظللت ابكي في الليل بلا صوت ، وعيناي تحدقان في الاسلاك .

ثم استدرت نحو المدينة امشي ببطء ، احس على كتفي عبء الهزيمة كلها . ثم لمحت رابية قريبة تقوم على يمين الطريق فسرت اليها لاستشرف الحدود ، علي ان ارى شبح ابراهيم مرة اخيرة . واذ بلغتها رقيتها على مهل والتفت حولي ، فرأيت عن جانبي وتحتي اشجار البرتقال منبسطة في كل اتجاه ، وظللت انظر دقائق ؛ فأحسست ان الاشجار بدأت تنتفض بالحركة ، وان اغصانها تحولت الى رشاشات وبنادق ، وان جذوعها اصبحت عمالقة ينفضون عنهم ذل التشريد وينتصبون متطاولين ، ينتظرون ، وان علي بعد ان اجيء نحو الليل والاسلاك لاودع قوافلهم الزاحفة .

سهيل ادريس

الحبّ والمرأة في شعر السيّاب

بقلم عبد الجبار عباس

حين بدأ جيل السياب يقرأ الشعر ويكتبه كان شعر الرومانسية العربية ممثلا في نتاج الشابي وعلي محمود طه وابراهيم ناجي وجماعة ابولو هو النموذج الاعلى الذي كان يطمع شباب ذلك الجيل ان يحاكيه وينضوي تحت لوائه . غير ان ثمة اختلافا في اسباب تبني كل من الجيلين للرومانسية ، فاذا كنا نفترض انها في الثلاثينات والاربعينات كانت تعبيرا عن أحزان الفرد العربي في مرحلة الانهيار الشامل وخيبة الامال التي أصابت الوطن العربي في أعقاب الحرب الاولى وامتدت اثارها حتى مطالع الخمسينات فكانت بذلك تعبيرا شاملا – ولكنه عفوي – عن مرحلة ما بين الحربين (1) ، فان رومانسية السياب وجيله وان انبثقت من امتدادات ذلك الواقع الا انها تميزت الى جانب ذلك بأنها مرحلة عابرة في حياة ذلك الجيل تجاوزها فيما بعد . ومع ذلك، فليست رومانسية السياب نسخة مكررة لرومانسية علي محمود طه ، فرغم ان السياب كان يتخذ من هذا الشاعر مثله الاعلى ، فان ثمة فروقا لا ينبغي تناسيها تقوم بين الشاعرين هي اولا فروق بين جيل وجيل ، وهي ثانيا فروق بين نظرة جيل علي محمود طه الى الواقع ونظرة السياب الى امتدادات ذلك الواقع ، وهي ثالثا فروق بين نفسية الرومانسي الهادىء الذي يستعذب الالم وبين نفسية الرومانسي الساخط الذي لا يقنع بالاخفاق . حقا ان شعر السياب الاول لا يخلو من الابعاد الجاهزة للرومانسية ، فهي قد تكشف عن ان الشاعر لا يطلب اكثر من أن تطل الحبيبة على طرفه الباكي :

اطلي على طرفي الدامع ... خيالا من الكوكب الساطع
وظلا من الاغصن اللاعبات ... على ضفة الجدول الوادع
وطوفي اناشيد في خاطري ... يناغين من حبي الضائع

وحقا اننا نعثر في شعره الاول على (النسمة السكرى) و (الليلة القمراء) و (الضفة الخضراء) ، ونكتشف ان الحب هو قدر الشاعر الذي نذر له حياته غير عابىء بالثواب :

انا اهواك لست ارجو على الحب ... ثوابا فان حبي ثوابي
انما جنة الهوى حيث حواء ... وان كانت الجحيم اضطرابا
سيان عندي مت من ظمأ ... ما دمت عبد هواك او غرق

ونوشك للوهلة الاولى ان نجزم بان السياب كان تلميذا مخلصا للرومانسيين حتى في حالة انتهاء الحب لديه بالفشل :

فصرخت سوف اسير ما دام الحنين الى السراب
في قلبي الظامي ! دعيني اسلك الدرب البعيد
حتى اراها في انتظاري : ليس احداق الذئاب
اقسى علي من الشموع
في ليلة العرس التي تترقبين ، ولا الظلام

والحكاية ما تزال حتى الان تقليدية لا يكاد يضيف اليها الشاعر جديدا . ولكن هذا الشبه بين الرومانسيين والسياب ليس الا الوجه الاقل قيمة وشيوعا ، فان ثمة قصائد اخرى تكشف عن ان السياب – خلافا للرومانسيين – لم يكن يستمرىء الفشل في الحب ، فهو اذا ما اخفق في علاقته بالمرأة قال :

انت الفراشة ما تهوى سوى لهب ... فليعشق الدم واللحم الاخساء
ولتشهد الكاعب الحسناء مصرعها ... لو انها في الغد المنكود حسناء

وليس ثمة تناقض بين هذا الموقف وبين اقتناعه بان تطل المرأة الحبيبة على طرفه الباكي ، ولكنهما موقفان يعبران عن وجهين متكاملين لحالة واحدة ، فهو تارة رومانسي مخلص لتقاليد الرومانسية العربية في القناعة والتضحية ونكران الذات ، حتى اذا لم يعد يحتمل الحرمان جنح الى الاقناع النفسي بتصوير الحبيبة لحما يربأ الشاعر بنفسه ان يعشقه كالاخساء ! ورب قائل ان هذا التأرجح بين الحرمان والاقناع النفسي وجد قبل السياب وكان تقليدا معروفا عند الرومانسيين،ولكننا – مع تسليمنا بوجاهة هذا الرأي – لا نكاد نعرف شاعرا رومانسيا فجر الفشل في الحب سخطه وحنقه كما حدث عند السياب ، فقد عهدنا الرومانسيين قانعين بالم الحرمان حتى اذا جنحوا الى التمرد كانت ثورتهم رفيقة ناعمة ينزعون فيها الى اقناع انفسهم بأن المرأةلولا قصائدهم ما عرفت وان لديهم من امجاد الشعر وعوالم الفن التي لا ترقى اليها المرأة ما هو اعظم وابقى واسمى منها . غير ان السياب يكاد ينفرد عنهم في ان ثورته الناجمة عن اخفاقه في الحب كانت عاتية عارمة فيها الكثير من السخط العنيف والغضب الاسود

لعناتي الحنقات ما برحت ... تعتاد خدرك والظلام معا
خفقت باجنحة الغراب على ... عينيك تنشر حولك الفزعا
الصبح صبحك ضحك شامتة ... دام ، وليلك مضجع بنبو
واذا هلكت غدا فلا تجدي ... قبرا ومزق صدرك الذئب
والبوم يملأ عشه نتفا ... من شعرك المتعفر الضجر
ويعود غرثك للذباب لقى ... ويداك مثقلتان بالحجر
وليسق من دمك الخبيث غدا ... دوح تعشش فوقه الغرب
تأوي الصلال الى جوانبه ... غرثى ويعوي تحته الكلب

ارأيت لدى شاعر رومانسي عربي انتقاما كهذا تخفق فوقه اجنحة الغراب وتعوي الذئاب وتحتشد الصلال الغرثى والكلاب والبوم والذباب تنهش جسد الحبيبة ولا تبقي لها على الارض موضع قبر .. ولماذا ؟ لان علاقة الشاعر بامرأة ما انتهت بالفشل في مجتمع كان فشل الحب فيه هو القاعدة ونجاحه هو الاستثناء . والسياب في مثل هذه الابيات لا يقدم وجهة نظر رومانسية جديدة عن الفشل في الحب ، ولكنها نفسيته – رحمه الله – تنعكس على شعره .

وليس هذا الانتقام بالنادر في شعره ، بل هو يتكرر في قصائد اخرى ، فبينما ينزع الرومانسيون اذا ما فشلوا في الحب الى التسامي عن طريق الفن يعمد السياب الى الغضب العنيف ويفجر حنقه على المرأة التي قد لا تكون المسؤولية الوحيدة عن الفشل في الحب لانها – وببساطة – تعاني كالرجل من وطأة ظروف في غاية التخلف ، ولانها – كالرجل – تعاني من استلاب المجتمع المتخلف لكيانها .. ينسى السياب هذه الحقائق ، او لعله لم يكن قد عرفها انذاك فيطيب له ان يقنع نفسه بأن يفلسف الحب فهو – عنده – ليس الا مأربا ينبغي ان يقضيه الانسان من المرأة ما وجد الى ذلك سبيلا لا ان يذيب عمره في البكاء واللوعة فليذهبن من الغواية كل مذهب كما يرى في (بين الروح والجسد) :

(1) يقول انور المعداوي : (ربما كان الحرمان من حرية الرأي.. أحد العوامل الجوهرية التي جعلت مفهوم التعبير عن الحزن يسير في مجرى اخر غير المجرى الذي كان يجب ان يسير فيه . وربما كانت هناك خشية من الافصاح عن واقع هذا الوجود الحزين هي التي فجرت طاقة الالم الحبيسة في افاق اخرى بدائلة حين عجزت عن ان تنفجر في أفقها الاصيل ..) – علي محمود طه ، الشاعر والانسان ص 11 .

ان التي خفق الفؤاد بحبها عامين دنسها خليج فاجر
الحب نقضيه المآرب والمنى ما امكنتك من الحبيب معادر
لا ان تحرق لوعة وصبابة وتذيب قلبك وهو غض زاهر

على أن القضية لم تكن مقصورة على الاختلاف النفسي بين السياب وغيره رغم ما لهذا الاختلاف من اهمية . وانما تتصل بنظرة السياب الى الواقع المجتمعي انذاك وانعكاسات تأثير المجتمع عليه ، ففي الوقت الذي كانت المرأة الاوروبية في الاربعينات قد بلغت مستوى طيبا من التحرر وواكب الادب الغربي صورها وهي تخوض صراعا لا ينفصل عن التطورات الحضارية التي عرفتها اوروبا خلال المائة سنة المنصرمة (٢) ، كانت المرأة العربية ما تزال – نتيجة التخلف الحضاري – قعيدة بيت لا تكاد تعي شيئا مما يضطرب به العالم حولها ، ورغم ان بامكاننا في مرحلة الاربعينات أن نعثر على نماذج متنوعة للمرأة الاوروبية (٣) فان علاقتها بالرجل تكاد تخلو – وبصفة عامة – من التعقيد والشك والخوف من الانتكاس ، وهي الآفات التي تتحكم في علاقة الشرقي بالمرأة ، ذلك ان علاقته بها لم تنج من مجموعة العقد التي تتحكم في علاقته بالاخرين ، لا لان هذه العلاقة تتم في ظروف التخلف الحضاري والوراثية المقيتة فحسب ، بل ولان كلا من الطرفين يضمن في ذاته ترسبات هذا التخلف او العقد التي تنجم عن مصارعته والرغبة في الانسلاخ عنه وتنعكس بالتالي في علاقة كل منهما بالاخر . انها علاقة غير طبيعية لانها تقع في مناخ غير طبيعي ينظر فيه المجتمع الى الحب بعين الريبة والتخوف ، مناخ ورثه الشرقي من تقاليد في غاية الازدواج اذ كانت المرأة احدى اثنتين : خادمة مطيعة تقبع خلف أسوار الحريم ، وجارية متعة تباع وتشترى ونهدى . حقا ان الدعوة الى تحرير المرأة بدأت مبكرة (بغض النظر عن اسبابها الحقيقية التي كشف عنها انور الجندي لدى قاسم امين) ولكن اثارها الفعلية لم تتم – في العراق خاصة – الا بعد مرحلة طويلة من بداية الدعوة وعلى نحو بطيء جدا ، ففي مطلع هذا القرن كان مجرد سماع العراقيين بان امرأة مسلمة تمر في السوق يهز اعصابهم ويخيفهم (٤) ، حيث كان كل بيت – كما يقول نجيب محفوظ – ينطوي على نفسه كالسر . النساء عورة والحب حرام والزواج اجراء من اختصاص الرجال والعروس اخر من يعلم (٥) . وفي الاربعينات حدث – بانتشار التعليم وتسرب الحضارة الغربية – تغيير في وضع المرأة ، لكنه التغيير الدرجي لا النوعي . وقد زاد المشكلة تعقيدا ان علاقة الشرقي الحديث بالمرأة – في هذه المرحلة – لا تتم في مجتمع ساكن رسخت له قواعد اخلاقية (مهما كانت هذه القواعد) ، بل هي تتم في اتون معركته مع المجتمع ورغبته الملحة في تغييره او الانسلاخ عنه، ولذا كانت علاقته بها هي – من وجه ما – تعبير عن علاقته بالمجتمع ، وكان موقفه منها مرآة حساسة لموقفه من الاخرين ، فاللاتكافؤ لم يكن مقصورا على العلاقة بين الرجل المتمرد على الواقع والمرأة القانعة او التي تجهل كل شيء عنه ، بل وبين ما يصبوان اليه وبين ما هو كائن فعلا في حدود المواضعات الاجتماعية السائدة ، فكل ما كان يسمح به المجتمع ويباركه هو تلك العلاقة الباهتة التي تتم تحت اشراف العائلتين والتي تؤدي الى الزواج (٦) .. تقابلها العلاقة المتردية في حمأة الرذيلة التي يرفضها المجتمع رغم انه يمارسها باستمرار الى جانب الوان اخرى من الشذوذ الجنسي . وكلا الموقفين رد فعل للموقف الاخر نتيجة غياب الحالة الوسط التي لا تنحدر للرذيلة ولا تؤدي للزواج والتي لم تكن تتجاوز لحظات يختلسها الطرفان في زاوية قصية من ضفة نهر او في ركن زقاق مظلم !

ازاء هذا الوضع الشاذ لم يكن امام الشاب العراقي انذاك سوى طريقين : طريق الغزل العذري العف الذي يخلق فيه الشاعر نموذجا منحوتا من الوهم ينذر له عمره ، والثاني : طريق الفجور يقضي به حاجة بدنية ملحة . وكلا الطريقين كان شاذا لا يفي بمتطلبات الشاعر ، لان الاول حل وهمي لا يفي بحاجة الجسد ، ولان الثاني كان رمزا لابشع الوان التخلف والذل وبؤرة تتجمع فيها احط قذارات الواقع الكريه ، وقد يرضى به عامة الناس ويجدون فيه انتصارا وهميا يعوضون به عن انسحاقهم ، ولكن الشاعر – مهما قارفه – يرفضه كحل للاشكال الذي يعانيه من علاقته بالمرأة ، يقول السياب :

ما للغرام العف ما للفجور لا يرضيان الشاعر المستهام

وقد كان هذا الوضع الشاذ للحب سببا في حيرة السياب وتخبطه بين كافة الوسائل التي تمتص طاقاته الضخمة وتضمن خلاصه من الضياع بعد ان عجزت المرأة عن ان تكون هي الخلاص . وبالنسبة للسياب كانت المسألة اشد وضوحا وكانت المرأة حاجة قصوى ، يقول : (فقدت امي وما زلت طفلا صغيرا فنشأت محروما من عطف المرأة وحنانها وكانت حياتي وما تزال كلها بحثا عمن تسد هذا الفراغ ، وكان عمري انتظارا للمرأة المنشودة ، وكان حلمي في الحياة ان يكون لي بيت اجد فيه الراحة والطمأنينة) (٧) . وهذا النص – على ايجازه – يؤكد ان المرأة كانت عند جيل السياب ، وعنده خاصة ، حاجة قصوى وضرورة ملحة ولكنها معدومة ، ويشي بما كانت تغلف به قضية المرأة من الوقار والتحفظ ، لكانه كان يحس بان القصائد الغزلية الكثيرة في شعره الاول تحتاج – انذاك – الى ما يبررها .

ولسنا نستطيع الزعم بان السياب في هذه المرحلة – سواء في شعره الغزلي او الاجتماعي – كان قد تعرف على كافة ابعاد الواقع الاجتماعي وعلى حقيقة القوانين الضابطة لحركة البناء الاجتماعي . حقا ان ثمة قصائد تدل على معاناته لوطأة الفقر وشدة الاحساس بفداحة التباين الطبقي ، ولكن قصائد السياب الاجتماعية لم تنفصل – نفسيا – عن تجاربه مع المرأة ، فهو يعزو فشله معها الى فوارق الجاه والثراء:

انت ما انت عابر في طريقي لاح لي ثم غاب فيما ورائي
هان قلب غشاؤه اصفر التبر ودقاته رنين الفشاء
وانبساط الاكف بالاصفر الرنان غير انبساطها بالرجاء
بيني وبين الحب قفر بعيد من نعمة المال وجاه الاب
يا آهتي كفي ومت يا نشيد شتان بين الطين والكوكب

فلسنا نستبعد أن يكون السياب (الفتى انذاك) بعد ان فقد عطف امه ولم يجد في الوسط المحيط به علاقات عاطفية على درجة من الرسوخ والثبات ، قد وجد نفسه مندفعا بقوة لا تقاوم الى التمرد والرغبة في ان تتخذ علاقاته بالاخرين طابعا حادا من الصراع الذي يلتبس بسلسلة معقدة من الاستياء والعدوان والحنق . ومن هنا فان دفاع السياب عن الفقراء ومن ثم انخراطه في الحزب الشيوعي لم يكن اختيارا واعيا منفصلا عن ملابسات واقعه النفسي الخاص . وربما كان الدكتور احمد كمال زكي محقا في تساؤله عن مدى تعمق السياب لمقولات الفلسفة

---

(٢) راجع : صورة المرأة في الادب الغربي ، مجلة (المجلة) ، الدكتورة نبيلة ابراهيم ، ع ٧٥ .

(٣) راجع مثلا رواية الدكتور سهيل ادريس (الحي اللاتيني) تجد نماذج مختلفة للمرأة الأوروبية ، فهناك المضيفة التي تحيا للحظة متعة عابرة ، وهناك الام العاملة الطيبة ، وهناك (جانين) انموذج الفتاة الاوروبية المتحررة التي تختار بكامل ارادتها وحريتها ان تعطي من تحب روحها وجسدها ثم هي لا تتشبث به زوجا كما تفعل الشرقية مضطرة وانما تختار بكامل ارادتها وحريتها ان تنسحب من حياته رغم طلبه نادما الاقتران بها .

(٤) الشعر العراقي الحديث ، الدكتور يوسف عز الدين ص ٢٥٠

(٥) نجيب محفوظ : بيت سيء السمعة ص ٦٨ – ٦٩

(٦) وحتى هذه العلاقة الباهتة التي تستمد شرعيتها من شرعية الزواج لا تقع الا بين ابناء العوائل البرجوازية في المدن والتي اصابت قسطا من التعليم واخذت بسبب واه من اسباب الحياة المدنية الحديثة . راجع رواية (الظمأ والينبوع) – فاضل السباعي – ص ٩٢

(٧) من مقدمته للديوان (اساطير) ، وراجع مقدمة ناجي علوش للديوان (اقبال) .

الماركسية قبل اعتناقها ، ذلك أن (شعره كله باستثناء عدة ابيات قالها في معتنقي الشيوعية – وكانت سطحية لا تعبر عن مبدأ ولا شكل موقفا – خلو من اي تفكير ماركسي ممنهج) (٨) .. وربما افادنا – في هذا الصدد – كلمات كولن ويلسن : (ان معظم الناشئين من الشباب وحتى الذين تخطوا سن الشباب يشعرون بعدم ثقة تجاه العالم . ان شعورهم هذا هو اول نتيجة لفقدان براءة الطفولة) ويضيف (ان هناك وسيلة بسيطة وخطيرة للتخلص من شعور الشاب بحقد العالم عليه او ان يصب حقده على شيء ما ... ليخلص شعوره عدم الانصاف تجاه العالم) (٩) .

ففي ديوان (ازهار ذابلة) قصيدة تحمل عنوان (السائلة السوداء) هي تمهيد لمطولته (المومس العمياء) وفيها يقول :

يا من عريت وانت خالعة عن منكبيك مطارف الرق
يا من ظمئت وانت عائفة كأس العبيد وذل ما تسقي

وفيها يقول :

يا من رأيت بحالها حالي ورثيتها فرثيت آمالي

وهذا البيت واضح الدلالة على ان تبنيه لقضية (السائلة السوداء) لم يكن فقط بسبب وعيه بعدالة هذه القضية بعيدا عن اية اسباب شخصية ، بل هو يجد في حالها حاله ويرثي في امالها اماله هو.وليس ادل على هذا من ان السياب يحمل شخوص قصائده من الفقراء حنقا وثورة عمياء على كل شيء هي صدى لثورته هو بحيث يصبح الثأر مبرر حيواتهم والحقد قوام هذه الحياة (١٠) . وليس ثمة فرق خطير بين موقف هؤلاء الفقراء وموقف الشاعر اذ يصب لعناته على المرأة حاشدا البوم والكلاب والغربان تنهش جسدها وتنبش قبرها . وكل الذي حدث ان الموقف انتقل من دائرة ذاتية الى دائرة اجتماعية اوسع وان لم يفقد جذوره الذاتية . بل ما بالنا نبعد وبين ايدينا قصيدة (حسناء القصر) التي يجمع فيها بين ثورته على المرأة وعلى الغنى جمعا يؤكد انهما (المرأة والغنى) . وجهان متلازمان للطرف الاخر من الصراع الذي اخذ السياب به نفسه ، فالفلاح يعرى كي تلبس الدمقس ، وبنت الكوخ تهجر كوخها وتزني لتبقى هي طاهرة وتخضب القبور بدم الجنود لكي تخضب خدودها . واختيار الطرف الاخر من الصراع امرأة له دلالته هنا:

حسناء ان دام الشباب فان مالك لا يدوم
والقصر ينفض بعد حين عنه اذرعة النجوم
فيعود انقاضا مصدعة يجللها الوجوم
يمشي عليه الثائر الغضبان بسام الكلوم
الحاطم المستعبدين وكل جبار ظلوم

ومع ذلك فان هذه العلاقة بين موقف الشاعر من المرأة وموقفه من مشكلة التباين الطبقي لا يعني اتحاد الموقفين في (رؤيا) واحدة يعطي الشاعر خلالها وجهة نظر شاملة للانسان والمجتمع، فالشعر الغزلي يقوم في هذه المرحلة في باب مستقل عن الشعر الاجتماعي . ومن العبث ان نظر في شعره الغزلي بموقف من المجتمع فالقضيتان منفصلتان رغم ارتباطهما نفسيا ، لان الشعر العربي انذاك لم يكن قد عرف بعد الرؤيا الشاملة وظلت اغراض الشعر منفصلة في ابواب مستقلة كالشعر الاجتماعي والشعر الغزلي وشعر الطبيعة والوصف .. الخ. فحين نقرأ للسياب قوله عن ساعة الحب التي تجمعه بالمرأة :

ليت تلك الساعة العذراء تجتاح الزمانا
لا ظلام الليل يثنيها ولا ضوء النهار
ليت اني اوقف الدنيا عليها في المدار

فمن الخطأ ان نتصوره – في هذه المرحلة – يؤمن بالخلاص في الحب كما يفعل الشعراء الغربيون اذ تبلور موقفهم في صرخة اودن (اما ان نحب بعضنا او نموت) او كما فعل صلاح عبد الصبور في (احلام الفارس القديم) وذلك لسببين : الاول ، ان السياب لم يكن انذاك قد بلغ مرحلة من النضج الفني تتيح له ان يوحد بين قضايا شعره في رؤيا شاملة ، والثاني : انه حين بلغ هذه المرحلة كان يؤمن بالخلاص لا في الحب وانما في البذل والتضحية كما تدل على ذلك قصائد مثل: المسيح بعد الصلب ، جميلة بوحيرد ، رسالة من مقبرة .

فالسياب اذن كان مدفوعا الى تبني قضية الفقراء ، على طريقته الخاصة وبجامع الشبه النفسي والمجتمعي بينه وبينهم حين لم يجد في غير السياسة مهربا من نفسه ومنفسا عن طاقاته والامه المكظومة . والا فاغلب الظن ان اماله لو كانت قد تحققت انذاك لما كانت ثمة ما يبرر لديه الانخراط في صراع السياسة . ان الموقف الاصيل للسياب لم يكن الدعوة لتحرير المرأة كخطوة لتحرير المجتمع ، فقد لاحظنا انه دفع اليه دفعا ، انما الموقف الاصيل هو الهروب واختلاس اللحظة ، فان قصيدة مثل (اساطير) تدور حول حبيبين وقف اختلافهما في الدين حائلا بينهما وبين السعادة فآلى هو ان يلعن الاوثان .. ولكن ما موقف الشاعر من هذا الحائل ، وهل لعن الاوثان حقا ؟ يجيب الشاعر نفسه عن هذا السؤال فيقول :

رحيل ؟
تعالي تعالي نذيب الزمان
وساعاته في عناق طويل
ونصبغ بالارجوان
شراعا وراء المدى
وننسى الغدا
على صدرك الدافىء العاطر (١١)

حتى اذا ما اصطدم السياب انذاك بالسلطة – في ظل غياب شرط الحرية – ووجد ان لا قبل له على التضحية بدأ يتعرف على الجوانب التي نسيها في غمرة اندفاعه السياسي ، فاذا العيب ليس عيب الانظمة الدكتاتورية فحسب ، بل هو الى جانب ذلك عيب الفقراء الذين قنعوا بالذل واليسير من الحاجات المادية (الخبز والاسمال والنعل واعتصار النهود) . ولم يكن هذا النكوص بالغريب انذاك على اية حال ، فهو نكوص الشاب المندفع حين يرتد الى الواقع الذي غابت عنه ابسط الوان الحرية فيما طفت الشرور والخيانة والتفاهة واللامسؤولية، وهو نكوص الفرد ذي الامكانيات المحدودة فيما يحس ان بامكانه تأمين مركزه الاجتماعي اذا هو تخلى عن انتمائه . ومع ما في هذا الموقف من تبرير للتراجع والتماس الاعذار لمن لا يرى غير ذاته ، فقد كان نقطة انطلاق جديدة ينظر الشاعر من خلالها الى قضايا المجتمع ، ومنها قضية الحب. فبعد ان كانت الفوارق الطبقية هي السبب الوحيد لفشل الحب اضحى يقول :

اتركوني اغني امام العريس
واراقص ظلي كقرد سجين
وامثل دور المحب التعيس
كان وهما هوانا فان القلوب
والصبابات وقف على الاغنياء
لا عتاب فلو لم نكن اغبياء
ما رضينا بهذا ونحن الشعوب

وخلافا لما ظن كثيرون فان حس النضال عند السياب بعد هذه التجربة قد مات ، وما حدث بعد ذلك انه لم يكن انتهازيا كما قيل، ولم يكن مفكرا كما يرى الدكتور احمد كمال زكي او اسعد رزوق ، ولم يكن باحثا عن الحقيقة كما يرى محيي الدين محمد ، فلم يكن من هم السياب ان يبحث عن الحقيقة ، انما محور ازمة السياب هو عجزه عن التوفيق بين ما اراده لنفسه وبين ما اراد منه الاخرون لانفسهم . فبينما كان

– التتمة على الصفحة ٧٨ –

(٨) السياب مفكرا .. الفكر المعاصر ، يوليو ١٩٦٥

(٩) كولن ويلسن ، ما بعد اللامنتمي ص ٢٣٨

(١٠) راجع بشأن الامثلة قصائد : المومس العمياء ، حفار القبور ، المخبر .

(١١) راجع ايضا قصيدة ((اغنية الراعي)) من ديوان (اقبال)

ندوة « الآداب »

الاسلام
تجاه تحديات الحياة العصرية

اشترك فيها الدكتور حسن صعب ، الدكتور احمد مكي ، الاستاذ رئيف خوري ، الدكتور الشيخ صبحي الصالح ، الدكتور الاب فريد جبر . ادارت الندوة السيدة عايدة مطرجي ادريس .

• • •

عايدة ادريس :

المفروض قبل كل شيء ان يتحدث هذا الكتاب عن الاسلام . وقد وجهت بعض انتقادات تتعلق بالناحية الاسلامية في الكتاب ، ونسأل الدكتور صبحي الصالح بوصفه احد رجال الدين الذين لهم اطلاع واسع على القضايا الاسلامية : هل وجد في الكتاب اي مأخذ يمس الاسلام من حيث جوهره وحقيقته ؟

الدكتور الشيخ صبحي الصالح :

لكي اجيب على هذا الموضوع اجابة دقيقة ، يحسن ان الم بالفكر الرئيسية التي اشتمل عليها الكتاب . فالواقع اني كنت انتظر ان يشتمل الكتاب على ضرب من التحدي الواضح الصريح لبعض المشكلات والقضايا القائمة في هذا العصر . ولكن الذي وجدته ، يختلف تماما عن الفكرة التي كنت اتخيلها للكتاب . ولست اريد بهذا ان اقول منذ البداية ان هناك مخالفة جوهرية للنصوص الاسلامية او للاحكام التي عرفت بشكل محدود صريح واضح للاسلام . فهذا ما لم يرق اليه الكتاب بحال من الاحوال . ولكن معنى التحدي لا يمكن ان يصور بهذه الصورة السلبية التي رايت الكتاب يشتمل عليها في اكثر تفصيلاته الجزئية . فانه في نظري ، وهو تعبير ربما بدا قاسيا ، ولكني سأقوله لحرمة النقد ، بدا لي اشبه بقطع موزاييك ليس بينه اي رابطة منطقية ولا علمية موضوعية ، وانما اشتمل على طائفة من المباحث المتنافرة التي حاول المؤلف لم شتاتها واراد ان يؤكد لنا تلك المحاولة بكلمات ذكرها من تلقاء نفسه في المقدمة عندما استشعر ان احدا من القراء يقول له ما اقول الان . فاذا هو يقول ، يبدو لاول وهلة انها مواضيع . وانتهز الفرصة لاقول انه من الافضل القول انها موضوعات متنافرة لا يوحد بينها الا جمعها في كتاب واحد . انها وجوه متنوعة لموضوع واحد وفروع متعددة لاصل واحد وتنبع كلها من معين واحد وهو بطبيعة الحال معين الايمان بالاسلام . وانا اقول اننا اذا كنا نرد الى معين الاسلام اية فكرة مبسطة او موسعة لمجرد كونها تحمل اسما اسلاميا فهذا سيذهب بنا في مجالات الاستطراد بعيدا عن اي موضوع جزئي نبحثه بطريقة موضوعية محضة . لماذا اضيفت مثلا الى الكتاب ١٥ صفحة من ١٨٣ الى ١٩٨ في الحديث عن بدر وعاشوراء في نهاية الكتاب من ناحية كونها قيادة وتنظيما ؟ فهذه امور اعتقد ان بحثها كان اولى ان يكون في الحال الذي القيت فيه في الجامع المنصوري الكبير . فهي موجهة الى العامة ولا يجوز ان يشتمل عليها كتاب تحت اسم « تجاه تحديات الحياة العصرية » .

وهناك المحاضرة الفلسفية التي خلع عليها مؤلفنا اسم الفارابي او ثورة العقل الاسلامي في سبيل السعادة . وقد استغرقت هذه المحاضرة واحرص على تسميتها بالمحاضرة فما هي بفصل من الكتاب وان استغرقت ١٥ صفحة منه ، لان الفارابي ههنا لا دخل له في الموضوع دخولا مباشرا . وان القارىء ليحس ، حتى ولو كان جاهلا ، ان مثل هذا الفصل المضاف كان محاضرة منفردة عن موضوعنا يقصد بها الى تحليل الافاق التي كان يأخذ بها الفارابي في ثورته العقلية التي لا يشك بها احد من الباحثين لا من الشرقيين ولا من الغربيين . ولكن هذا النوع من الثقة ربما كان الفارابي في ثورته الفلسفية الفكرية سواء قلنا باصالتها ام بتقليدها ومحاكاتها بفلسفة المعلم الاول ليست بحد ذاتها بما يمكن ان يستشهد به استشهادا دقيقا على موضوع يقال فيه بانه تحد . فان التحدي يتطلب حلولا عملية والحدود العملية لكي تكون عملية لا بد ان تكون ايجابية ، وايجابيتها تستدعي ان تكون بناءة والموضوع البناء ابعد ما يكون عن البناء الفلسفي ، لانه يسرح في عالم الخيال . وكان اولى بالدكتور وهو يحدثنا بين الفينة والفينة عن شؤون علمية بل اقليمية (اذ تكرر لديه اسم لبنان واللبنانيين ومواقف بعضنا من بعض) كان جديرا به في نظري ان يتحدث عن هذا الموضوع من خلال النواحي العملية . لكن النطاق الاقليمي البحت مهما يكن هذا الاقليم حتى ولو مددنا ابعاده خارج لبنان ولو مددناها الى العالم العربي كله بل اقول الى العالم الاسلامي باسره ، بل اكاد اقول الى العالم المتدين باجمعه وانما كان ينبغي ان يتحدث عنه من خلال التجربة الاسلامية ليرينا كيف انصبت هذه المشكلات ايضا انصبابا على اذهان فقهائنا ، فهم العمليون في هذا الموضوع وليسوا بفلاسفتنا بحق ولعلي لو وجدت وقتا اسمح لنفسي بتعليقات ادخل في الجزئية عندما اتحدث حتى عن الفارابي فاقول لمؤلفنا ان فارابيك نفسه قد تحدث عن الامام الافضل العادل كانما استشعر الى حد ما ضرورة تحويل الحياة الاسلامية من تجارب لفظية الى تجارب مطبقة في الحياة العملية وذلك واضح في موضوع من نص نقله الدكتور عن الفارابي . على كل حال ليس لنا شأن مع الفارابي في نظري انا . وان كان لنا معه شأن فليكن بغير هذا الاسلوب الذي عرض به . فلنستنتج مثلا من مكتوبات الفارابي ما برزت فيه الناحية العملية بروزا طارئا في نظري عابرا لان الرجل لم يكن فيما كتبه في هذه المجالات عمليا عملية الاسلام ولا ايجابيا ايجابية الاسلام . فواقعية الاسلام ان كانت تؤخذ من خلال هذا المعين فليسمح لي الدكتور المؤلف ان اقول له انه اخطأ الورد المورود . ومثل هذا الخروج على الموضوع يتضح ولكن بشكل ربما بدا لي اشد بروزا ونتوءا في الفصل الثاني الذي استغرق ٢٢ صفحة ، وفيه يتحدث عن هذه الفكرة التي عنونها في قوله « الاسلام ثورة اجتهادية دائمة » . ولقد اتيح لي ان اسمع هذا الفصل محاضرة من المؤلف في الندوة اللبنانية ولكني عجبت كيف سمح لنفسه بتغيير الموضوع بتبديل العنوان بهذا اليسر وبهذه السهولة ، فهل اصبحت الموضوعات من التشابه والتماثل حتى ليعوض بعضها عن الاخر ؟ انا افهم من هذا ان يكون متعلقا بتحديد ينابيع التشريع كأنها جردت من فعل الايام فجاء المؤلف يحاول ان يسهم في نفض الغبار المتراكم على تلك المصادر والينابيع . هذا معنى ان يكون الاسلام ثورة اجتهادية دائمة ، ولكن ليس معناه دخولا في التفصيلات التي حملت في موقف اخر . وفي محاضرة اخرى حشرت ههنا حشرا واصر على تعبير حشرت ههنا حشرا لكي نعبر عن شيء لا علاقة له بالمقول الاول الذي دار حوله الحديث حتى اذا وصلنا الى الفصل الثامن بدا الخروج عن الموضوع اشد واعنف . وان كنت مبدئيا وانا احاول تسمية هذا العنوان الجديد اود ان ارحب من كل قلبي بما اشتمل عليه من روح انسانية وانا اشارك فيه واود أن يشارك فيه الجميع فانه يتحدث فيه عن الثورة المنشودة في العلاقات المسيحية الاسلامية وقد استغرق ٤٠ صفحة ، ففكرة الحوار والتلاقي بين المسيحية والاسلام نرحب بها جميعا ولكنها ايضا لا تشتمل مهما حاولنا مدها على فكرة التحدي الذي تتحدى فيه شريعة الاسلام الحياة العصرية . فهل المقصود مثلا اذا اردنا ان نتجاوز في التعبير الى ابعد الحدود ان من واجب المسلم ان يشعر بأن امامه مراحل يمكن أن يقطعها في تحسين علاقاته مع الاخرين وليبدأ بالاديان السماوية بعلاقات صريحة بناءة ؟ هذا كلام جميل ولكنه على



من اليمين : الدكتور حسن صعب ، الدكتور فريد جبر ، الدكتور احمد مكي ، الدكتور صبحي الصالح ، رئيف خوري ، عايدة مطرجي ادريس

كل حال لا يكفي لاشعارنا بحقيقة الموضوع الاصيل « التحدي » . ومن العجيب ان هذا الكتاب يدور حول الاسلام ولم يشتمل الا على ايات من ايات القرآن اقل من اصابع اليد الواحدة ! ولكن من المؤسف وليس فقط من العجيب ان الدكتور لم يستشهد بآيات مرة واحدة كما هي في نصها القرآني . واضرب امثلة (ص ٤٠) « انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها وحملها الانسان » وقد اسقط منها « واشفقن منها » . وفي صفحة (٤٦) « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » الواو غير موجودة . وفي صفحة ٥٠ « وجعلناكم امة وسطا » وهي « وكذلك جعلناكم امة وسطا » . ولما اراد ان يستشهد بحديث ما اظن اني عثرت على غيره مع ان الموضوع يقتضي ان يذكر شيئا من الايات والاحاديث ليظهر تلك الثورة البناءة الايجابية في الاسلام التي تتحدى الحياة من الازل كما يعبر الكتاب ولا تزال تتحداها واذا به لما استشهد بحديث يتعلق بوصية النبي بالجار صفحة ١٦٣ لم يجد النص نفسه فراح يعبر عنه بتعبير من عنده فقال (وقد قال النبي ان الملاك جبريل قد حدثه كثيرا عن الجيران حتى حسب ان الجار سيصبح الوريث الشرعي لجاره »). وليسمح لي ان التعبير ركيك وان الكلام صادر عن افصح من نطق بالضاد فقد كان لزاما عليه وهو يحفظ نص الحديث باعتقادي ان يقولها كما قال النبي « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه » . ولكن الشيء الذي لم اطق احتماله مع انه ورد عابرا وكان ينبغي ان يتكلم عنه بتفصيل هو قول المؤلف صفحة ٤٤ « ولسنا بحاجة لان نعلن الاسلام دين الدولة ، فالاسلام دين الله ودين الانسان وليس دين الدولة والدولة ليست من صنع الغيب ولكنها من صنع الانسان . وكلمة دولة غير واردة في القرآن من اوله الى اخره » ، فان من أطرف الطرائف ان يكون عدم ورود كلمة الدولة سببا في انكار الدولة وكأن هذه الدولة لم تقم ، وكأن الالف سنة التي عاشت فيها الدولة الاسلامية سواء اكانت حياتها فيها مضطربة او مطمئنة غير كافية لان تعلن ان الاسلام بنى دولة وانه يريد كما تدل نصوصه الكثيرة ان يبني دولة وانه قد يبني في المستقبل القريب دولة وان القضية ليست مرهونة بالظروف وانما هي مرهونة بما هنالك من ارادات . فمتى وجدت الارادات وبناء على هذا المعنى المتكرر في الكتاب

كثيرا معنى الايجابية ومعنى التحدي ومعنى تغيير القضاء والقدر كما يقول الدكتور ، تغيير الانسان اراده على حد قوله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم — بناء على هذا كله لا شك من ان فكرة اقامة دولة اسلامية ولو انها من مطامع الغيب امر ليس بالمستحيل . فاذا لم تقم في الاونة الاخيرة فليس هذا معناه انها لا يمكن يوما ان تقوم . ولكني ايضا من الناحية الشكلية بما اني اخذت الكلام وحتى لا اعيد الكلام مرة ثانية اود ان انبه الى ان المؤلف بدلا من ان يقول الحرية ومذهب الحرية يخشى من تتابع الاضافات فاذا هو يقول الليبيرالية الدياليكتيكية ، الليبيرالية صفحة ٦ وقد تكررت ٥٠ مرة ، الديالكتيكية الذرائعية صفحة ١٤ ، العقلانية صفحة ١٦ و ٢٧ وكذا اكثر من ٥٠ مرة بدلا من ان يقول الازدواج المتوتر او التوتر ازدواجية ، توترية ، بدلا من ان يقول سلطانية او متعلقة بشؤون الخلافة خلافية سلطانية ، مع ان سلطانية قد يوقع في اشتباك ويظن احدنا انها من امور الخلاف. ومثلها كذلك الجبرية يقصد بها الاستبدادية فان الجبرية توقع في خلاف لانها تردنا الى جبرية القائلين بالجبر في القديم . وفي صفحة ٢٠ من البنية الهرمية وبدلا من ان يقول التواصل والصناعية يقول بتواصليتها وصناعيتها صفحة ٢٠ وبدلا من ان يقول العقدية يقول الايديولوجية وبدلا من ان يقول التنوع العقدي يقول التنوعية العقائدية . وبدلا من ان يقول الاتجاه المعتدل يقول الاتجاه التوسطي والاتجاهات التوسطية التوسطية ويقصد الاعتدال لا النسبة الى المتوسط وبدلا من ان يقول عقيدة شخصية داخلية او وجدانية يقول ضميرية وهو تعبير غير مستأنس وكذلك تحدث عن الالتزام التواصلي . وعن مقولات فكرية تقليدية وتقديرات تراثية وعن العشوائية الذرية وعن الثورية الغائية وعن التكنولوجية والابتكارية الخ... فهذا ارجو ما امكن ان نتلافاه لان لنا مندوحة عن استعمالها بتعابير نحن نحييها او نعبر عنها بتركيب مزجي ولا ضير حتى لا نحمل قراءنا على سلوك هذا المسلك الوعر لانها تشعر بنوع من الاعجاب لا مسوغ له لبعض ما لدى الاعاجم كأننا لا نملك كلمات اخرى نستطيع ان نضعها مكانها .

والناحية التي اريد ان الح عليها ان من يريد ان يتكلم عن تحديات الاسلام للحياة العصرية او بحث تحديات الاسلام امام هذه التحديات

فعليه ان يبتعد عن المفهومات الفلسفية التي لا تتصل بالحياة البناءة الايجابية الواقعية اتصالا مباشرا . فان الذي يمكن ان يفيده القارىء المسلم باعتبار الكتاب موجها الى المسلمين من مثل هذا الكتاب يكون محدودا لانه لا يقع على شؤون تتصل بحياته ولا يحس بأن الصلة وثيقة بالنصوص الدينية . فاذا كنت اريد ان اسأل هل خرجت على الاسلام فاقول لا اعرف ان دخلت على الاسلام حتى اقول انها خرجت . فانه تكلم عن كل شيء الا عن المفهومات الاسلامية الصريحة . فان ظلها باهت وان لونها حائل ويكاد احدنا اذا وضع مكبرا من نوع كبير عظيم ان يرى من خلاله النواحي الايجابية التي ارادها الدكتور . ومع ذلك كله فلا شك اني اشعر ان من واجبي ان اقول بأن الكتاب بمعناه العام وباطاره العام اسهام غير قليل في تحريك الاذهان نحو هذا الموضوع فان مجرد العنوان مثير وانه منطلق لان تكتب الاقلام الناشطة من جديد وان تضع النقاط على الحروف كما يقولون وان تكثر من النصوص وان تبتعد ما استطاعت عن المواطن الفلسفية الخيالية لكي تتحدث عن واقعنا باسلوب صادق وصريح .

عايدة ادريس :

طبعا نترك المجال للدكتور حسن صعب ليرد على الانتقادات التي وجهت اليه . ولكن ربما كان من الممكن ان نلاحظ ان ما جاء في كلام الدكتور صبحي الصالح مستغرب بعض الشيء . اذ ان الكتاب ليس فقط مجموعة عناوين او محاضرات قد القيت ولا جامع بينها ولكن الكتاب في مجمله قد تناول عدة موضوعات وعدة تحديات كالتي تجابه الاسلام من حيث هو عقيدة ومن حيث هو فلسفة ومن حيث هو نظام ، ومن حيث هو محاولة لبناء دولة وجدت في الماضي ومن الممكن ان توجد في المستقبل . والملاحظة التي تؤخذ على الكتاب هي في الموضوعية اذا اردنا ان نتناول الكتاب من الناحية الموضوعية . فهو قد تناول مسبقا الاسلام وانطلق من هذا الاساس يبني المجتمع الحديث عليه ، ويتخذ جميع الادلة انطلاقا منه . ونلاحظ ان في الكتاب عدة تحديات . من هذه التحديات مثلا النظرة الماركسية . وهي نظرية لا يمكن ان نتجاهلها اليوم ومن اهمها فكرة العدالة التي يقوم عليها النظام الماركسي ، وفكرة السعادة الدنيوية والاكتفاء المادي بصرف النظر عن الاكتفاء الروحي الذي تعطيه الحياة الدينية وهنالك ايضا الفلسفة المادية غير الماركسية، وفكرة العمل الذي تصر عليه الفكرة الحديثة ، وهناك ايضا الناحية العقلية والناحية التجريبية وهذه كلها مواضيع لا يتناولها الدين من حيث هو نظرة روحية ومن حيث هو غيبية وهذه كلها تحديات تواجهه اليوم . وهناك ايضا فكرة الالحاد وتطوير السلوك الانساني انطلاقا من تجارب جديدة وهناك التواصل الانساني الذي شمله القرن العشرون بسرعة المواصلات . وهناك العلم التجريبي الذي يعتقد بان كل شيء يتطور وكل شيء يزول وكل شيء يمكن ان نخضعه للتجربة. بينما الدين الفكرة الاساسية فيه الله ، وهي ازلية لا يمكن ان تتغير ولا يمكن ان تتطور . واعتقد ان الدكتور صعب قد حاول ان يرد وان يرى منافذ يمكن للاسلام ان ينفذ منها . ويحاول ان يجد المسلم في المعطيات الاسلامية نوعا من الاجوبة على هذه الاسئلة . فمثلا اجاب على الفكرة المادية بان الدين الاسلامي يدعو الى التخلي عن الفقر وان المسلم الحقيقي لا يستطيع ان يكون مؤمنا بالله اذا كان جائعا . ثم الح على فكرة العمل بان لكل انسان ما سعى « وكل نفس بما كسبت رهينة » . وان فكرة العمل التي تلح عليها الفلسفة الحديثة والتي تعنى بها الماركسية موجودة ايضا في الاسلام . اما فكرة التطوير والتغير فقد وجد لها تبريرا ايضا في الاسلام . الكتاب المنزل فقط او فكرة الله هي التي لا تتغير . انما هناك باب الاجتهاد والفهم الحقيقي للنصوص هي التي تتغير وتتطور باختلاف العصور . وحتى الناحية العقلية التي تلح عليها الثقافة الحديثة حاول الدكتور صعب ان يجد لها ادلة . لقد استطاع الاسلام ان يهضم الفلسفات العقلانية وهي الفلسفة اليونانية وان يطورها وان يمزج بها الفكرة الروحية . صحيح انه لم يعط نظرية شاملة حول ما يجب ان يسير عليه الجيل الجديد ويرسم الطريق الواضح . على ان فقرات الكتاب كله تدل على انه يحاول ان يرسم وان يعطي بعض الانوار وهي ان البلاد العربية قد وجدت بها ديانات روحية لا يمكننا ان نتجاهلها وكذلك لا يمكن ان نتجاهل الفلسفات العصرية ومجهود الانسان طوال عشرين قرنا من التقدم والعمل والاستشهاد الذي قضته الانسانية وتألمت من اجله . فاستغرب ان لا يجد الدكتور صبحي الصالح جميع هذه التحديات القوية التي تجابه الاسلام وتجابهه بالفعل . فان الكثرة الساحقة من شبابنا اليوم يحاولون الانتماء اما الى الفكرة الماركسية او الى الفكرة العلمية البحتة والى كل شيء ما عدا الفكرة الدينية البحتة. وهذه تحديات نواجهها .

الدكتور حسن صعب :

الحقيقة اتقبل كل ما قاله الدكتور صبحي الصالح بواجب سعة الصدر والاخوة الذي هو ايضا واجب اسلامي ، وبينما كان الدكتور صبحي الصالح يقول ما يقوله كانت تتردد في نفسي اكثر ما تتردد صورة العصر « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . فرسالة المسلم وخصوصا المسلم المفكر في العصر الحديث هي في الدرجة الاولى يجب ان تكون بوحي من هذه السورة الرائعة . التواصي بالحق والتواصي بالصبر . وقول الحق هو الذي علمنا اياه الرسول وعلمنا اياه القرآن الكريم . وهذه الآية وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر تزيد روعة في نفسي لهذا التلازم الذي تضعه بين قول الحق والصبر وكأنها تتوقع ممن يقول الحق ان يؤذي بقوله وان يساء فهم قوله ولذلك اكملت الآية ووضعت هذا التلازم بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر فبوحي هذه الآية الكريمة اتقبل كل ما قاله الاخ الدكتور صبحي الصالح عن الكتاب تقبلا اخويا طيبا واضيف اليه ايضا انني قبل ان اذكر رأيي في الملاحظات التي قالها اريد ان اعود الى مبدأ اسلامي اخر وهو الاجتهاد. نحن نفخر بأن الاسلام كما قلت هو ديمقراطية اسلامية مطلقة وكل مسلم حر كما قال الله تعالى وكما علمتنا السنة بأن يجتهد بفهم الاسلام فاذا

كان فهمي للاسلام يختلف عن فهم الدكتور صبحي الصالح له فهذا هو حقي المطلق كمسلم وهو حق من عند الله لا يستطيع ان ينتزعه مني لا الدكتور صبحي الصالح ولا اي انسان اخر . ولعل هذا هو سبب من الاسباب التي تحملنا على التمسك بالاسلام وهو هذه الحرية المطلقة في الاجتهاد التي يتركها الاسلام لكل انسان والتي كانت سببا رئيسيا لقيام النهضة الاسلامية الثقافية الرائعة عبر التاريخ والتي يريدها اليوم ان نعود كما كانت واحسن مما كانت . والرسول نفسه في محاضراته مع الاخرين كان الله يعلمه ايضا ان يقول « لكم دينكم ولي ديني » فانا لا أقول هذا ولكن على الاقل اقول لكم اجتهادكم ولي اجتهادي . وهنا اخشى ان يكون الاخ الدكتور صبحي الصالح لم يقرأ الا العناوين . فانا اشكره لانه اخذ بهذه العناوين واشكره ايضا لانه عاد عن انتقاد قد ابداه لي في الندوة اللبنانية في ذلك الحين . اخذ علي في هذا الفصل الذي اشار فيه انني تعرضت للكليات دون ان اتعرض للجزئيات والان هو يناقض نفسه بنفسه ويقول انني تعرضت للجزئيات دون ان اتعرض للكليات . على كل حال هذا شيء يحصل لكل منا . اما انتقاداته الشكلية المتعلقة باللغة فكذلك اعتقد اننا هنا نختلف بالاجتهاد . انا اعتقد أن لغتنا العربية هي لغة عبقرية واجمل ما في عبقريتها مرونتها ، ومرونتها التي تسمح لها بأن يصهرها الانسان في نفسه صهرا جديدا فاذا كان هنالك مفاهيم جديدة اقتبسناها من ثقافات اخرى فله ان يخلق أو ان ينحت او يهذب التعبير او الكلمة الجديدة للتعبير عنه فهذا سر عبقرية لغتنا التي لم تتوقف ابدا ويكفي ان يقرأ الانسان اولا القرآن الكريم ثم ان يقرأ مقدمة ابن خلدون وافواهما القرآن الكريم هو رائعة الله الكبرى لنا جميعا وكلمته وقد اعطانا فيه مثلا على هذه الحرية التعبيرية الرائعة . وكذلك مقدمة ابن خلدون وهي من صنيعة الانسان نجد فيها هذه الحرية الرائعة التي اعتقد انها مظهر من مظاهر انطلاق الفكر بدلا ان يكون متحجرا . اما الاستشهادات في القرآن الكريم فانا آسف لان الدكتور صبحي يأخذ ببعض الكلام ويترك البعض الاخر . فهناك ايات كثيرة في القرآن الكريم حول المعنى الواحد ترد في صياغات مختلفة . وقد اخذ منها بعض الصياغات ونسي الصياغات الاخرى وله عذره في ذلك ولا شك ان الله يغفر له ويغفر لي كل ما يتعلق بهذا . اما بالنسبة للكتاب فالقضية ابسط من كل ما قاله الدكتور صبحي والقضية في بساطتها هي ما يلي : الاسلام قائم على ان الحقيقة هي من عند الله وهذا شيء اؤمن به ولا يمكن ان يتزعزع ايماني به بأي شكل من الاشكال ، والحياة العصرية قائمة على ان الحقيقة هي بنت العقل ووليدة التجربة . ونحن امام موقفين هما ان هذه الحياة العصرية باندفاعاتها الخارقة المعتمدة فيها على العقل والتجربة وحدها تستطيع أن تنتقد الاسلام (وكل دين اخر اكراما للدكتور صبحي !) او أن هذه الحقيقة الازلية التي جاءتنا وحيا من عند الله هي الحقيقة وهي قابلة للتفسير بواسطة الاجتهاد على ضوء تطورات المعارف العقلية والتجريبية . وانا آسف اذا كنا نحن المسلمين لم نتوصل بعد الى وعي هذا التحدي الواعي العميق اللازم ، وعي التحدي الاكبر الاعمق للاسلام وكل دين هو هذا تحدي الانسان الحديث المستغني عن اي وحي ، المستغني عن اي دين ، لان كل التربية الحديثة وكل مظاهر الحياة الحديثة وكل اختراع يصدر في كل لحظة وكل معجزات العلم ان هذا من صنع العلم وان كل ما يتعلق بالدين هو اسطورة او خرافات . فالكتاب من اوله الى اخره هو محاولة علمية موضوعية صرفة لمواجهة هذا التحدي الاعمق للاسلام والطريقة التي اتبعت حتى الان. اما ان نقف في الساحات العامة او في المساجد ونقول دعوا كل هذا ، الاسلام ايجابي ، الاسلام عملي ، الاسلام تطبيقي فبهذا ندل على جهل بالاسلام وبالتحدي الذي نحن نواجهه . الاسلام عملي وتطبيقي ولكن الاسلام اساسا عقلي منهجي وهذا الاساس العقلي المنهجي هو ان الحقيقة هي من عند الله والاساس المنهجي العقلي للحياة العصرية والحضارة العصرية هي ان الحقيقة هي من عند الانسان ،فاذن لا يمكن ان نتجاهل ما قام به فلاسفتنا الذين كانوا اول من جوبه بهذا التحدي . ان الفارابي وابن رشد والغزالي قضوا الليالي بلا نوم حتى يستطيعوا ان يتبينوا لانفسهم اولا ويبينوا للناس ثانيا العلاقةبين الوحي والعقل . فاذا كنت استشهدت بالفارابي هنا فليس هذا افحاما او حشرا للفارابي ، ولكن الفارابي كان من اوائل المفكرين الانسانيين الذين قضوا حياتهم وهم يفكرون بهذه المشكلة ، وهي مشكلة العلاقة بين الوحي والعقل او بين الحكمة والشريعة . وهذا المشكلة تتحدانا اليوم بشكل جديد ووعي الفارابي والغزالي وابن رشد لها هو الذي خلف للانسانية تراثا انسانيا هو موضع فخر كل منا اليوم . ولن يعود العقل الاسلامي الى المساهمة في المعرفة الا اذا عاد الى وعي هذه المشكلة من جديد . فالمسألة في غاية البساطة : التحدي الاكبر للانسان اليوم هو هذا التحدي المنهجي الحقيقة من عند الله او الحقيقة من عقل الانسان . والاجتهاد الذي يسري في هذا الكتاب من اوله الى اخره هو انه ليس هناك تناقض اساسي بين هذين الامرين وان المؤمن الحقيقي يستطيع ان يهتدي بالحقيقة المنزلة من عند الله ويستطيع بها ان يفهم هذه الحقيقة فهما جديدا متواصلا على ضوء الحقائق العلمية والعقلانية المتغيرة من يوم الى اخر . هذا هو الكتاب وهذا هو ما حاولت بما اتاني الله من جهد ومن صبر ومن مصابرة ان اتقدم به لاخواني المسلمين، واعتقد انني بهذا الطريق اقوي واعمق ايمان المسلم اكثر من اي شخص يكتفي بأن يقف في الساحات العامة ويقول الاسلام في خير وليس هناك اي تحد له ... واكتفي الان بهذا القدر .

عائدة ادريس :

انطلق الدكتور صعب في رده على الدكتور صالح كما قلت من مبدأ هو ان الاسلام حقيقة ومن هذا المفترض وضع الدكتور صعب نظرته الجديدة . ولكن هنالك نظرية اخرى جديدة هي الماركسية تريد ان تحقق للانسان السعادة البشرية . ويعتقد الكثيرون أن هذه السعادة على الارض كافية ، فهل للاستاذ رئيف خوري الذي نعمق الفلسفة الماركسية ان يحدثنا هل يمكن لهذه الفلسفة الماركسية المادية ان تسد الفراغ في الوطن العربي اذا حلت محل الاسلام ؟

رئيف خوري :

لست ادري اذا كان من حقي ان اظهر في هذا المجال ناطقا باسم

ـ التتمة على الصفحة ٥٧ ـ

قرأت العدد الماضي من الآداب

الأبحاث

بقلم الدكتور : محمد القصاص

***

ابحاث هذا العدد ، كغيره من الاعداد بطبيعة الحال ، متنوعة لا يكاد يربط بينها رابط . وكنا نود ان نتناولها جميعا بالتعليق ، لولا ضيق الوقت وبعض الاعتبارات الفنية والمنهجية الاخرى .

فمقال « بحث عام عن الانحراف الجنسي » ليس الا فصلا من بحث متكامل يكون كتابا بذاته ، ولا يتأتى لباحث ان يقدره تقديرا سليما الا بعد ان يصبح الكتاب كله بين يديه . اما عن مقال « الرومنسية القديمة في اشعار افتوشنكو الجديدة » فبكل اسف لم يتيسر لنا الوقت لدراسته وان كنا قد قرأناه بامعان .

واما حديث الكاتب الكبير « جان بول سارتر » فحدث كبير يتطلب من الباحث ان يفرد للتعليق عليه مقالا قائما بذاته ، لا ان يجعل منه حلقة في سلسلة من التعليقات ، وان يقبل عليه بكل نشاطه ، لا بعد ان يكون قد ادركه الفتور من بذل المجهود في الكلام على غيره . ولكن لا بأس من الاشارة هنا الى احدى نقاطه ، لانها كانت موضوعا لنقاش صامت في مجالس الادباء والمفكرين ، ونعني موقف الفيلسوف الانساني العظيم من اسرائيل . فسارتر ، بافكاره العالمية ومبادئه السامية وصفاته الانسانية الكريمة عاصر اضطهاد النازية لليهود وسواهم وتنكيلها بهم ، فاستنكرها كما استنكرها العرب ، وكما يستنكرون اي اضطهاد او جور او طغيان من اي نوع كان على اي من كان في اي زمان او مكان على سطح المعمورة . ولعل الكاتب الكبير لم يعن بتقصي مساهمة اليهود انفسهم في جر الاضطهاد على انفسهم بنشاطهم غير المحمود وفلسفتهم العنصرية ، المناهضة لابسط مبادىء الانسانية ، المنافية لمبادىء الدين اليهودي الحقيقي قبل ان يمسخها احبارهم او بعض احبارهم بنشاط جمعياتهم السرية ـ حتى بالنسبة لعامة اليهود انفسهم . كما قد ترامى الى سمعه وسمع غيره من المفكرين الغربيين عن طريق الدعاية الصهيونية الهدامة ان من امم الشرق الاوسط من ينظر الى اليهود نظرة خاصة بسبب الدين أو العنصر . والواقع ان العرب يفرقون بين اليهودية والصهيونية ، وهم في موقفهم الحالي من اسرائيل انما يحاربون العنصرية في ابشع مظاهرها واللاانسانية في اشد صورها تطرفا ، والعدوان والاغتصاب في اشنع حالاتهما توحشا . ووعد الكاتب الكبير بالوقوف من هذه المسألة موقف المحايد يعد كسبا للعرب وانتصارا لقضايا الحق والعدل والحرية يضاف الى ما قدم لها ولكل القيم الانسانية من عون وتضحية وتعضيد .

والآن ننتقل الى مقال « القيم الاجتماعية قبل الاسلام » . وهو بحث او حلقة من بحث للصديق الاستاذ الدكتور محمد النويهي ، حاول فيه ان يطبق بعض المناهج الحديثة في اتخاذ الشعر العربي القديم مصدرا من مصادر تاريخ العرب ، وبوجه خاص تاريخ حياتهم الاجتماعية . والاتجاه على جدواه ، بل وعلى ضرورته ، ليس جديدا . ولكنه محاولة جادة مشكورة ومفيدة من محاولات اخرى كثيرة لا تقل عن هذه جدية ولا عمقا . ولعل ابرزها تلك الدراسة الواسعة المستوعبة الى حد كبير التي قام بها استاذنا المرحوم الدكتور احمد امين في سلسلة كتبه فجر الاسلام وضحى الاسلام .

والدكتور النويهي ، على عمقه ونفاذه وسلامة تكوينه العلمي وقدرته الفائقة على فهم النصوص القديمة ، يخلط بين اتباع المناهج الحديثة في دراسة الادب القديم ، والحكم على هذا الادب وتفسيره بقيم لم تكن قد عرفت في ذلك الحين بحكم سنة التطور البشري والظروف التي خضعت لها حياة العرب القدماء . ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ تفسيره فخر القبيلة بنسبها على انه « ارستقراطية مسرفة تساوي في اسرافها الارستقراطية الانجليزية في العصر الفيكتوري حين كان الانجليز يؤمنون بأن بعض الدماء زكية (او زرقاء) بطبيعة وراثتها ، وان من ولد من العامة لا يصير ابدا الى ان يكون من الاشراف ... ومن هذا ندرك ايضا ان من ابعد الاشياء عن الصحة ان ننسب الى الجاهليين اي ايمان بالديمقراطية الصحيحة » . ومعنى كلام الدكتور النويهي ان نظام الطبقات ، كما كان معروفا في العصور الوسطى الاوروبية او كما هو معروف الان داخل الامة الواحدة لدى بعض الامم الرأسمالية ، كان موجودا لدى العرب القدماء ، وداخل القبيلة الواحدة . والواقع ان هذا التمييز لم يكن له وجود داخل القبيلة ، ولا بين افرادها بالنسبة لبعضهم البعض، فكلهم كانوا يعتبرون متساوين ان قليلا وان كثيرا ، فيما عدا ما يخص بعض الافراد من الموالي واشباه الموالي الذين لم يكونوا اصلا من افراد القبيلة ـ ولكنهم وفدوا عليها من خارجها للاستظلال بحمايتها والحظوة برعايتها او ما هو من هذا القبيل . فهذا الشعور لدى القبيلة وافرادها لم يكن يتسم بروح التمييز الطبقي او الفردي ، ما دام قاصرا على ما بين القبيلة وغيرها من القبائل ، وانما هو اشبه شيء بالعصبية أو العزة القومية على النحو الذي نعرف عليه الان بين الامم بعضها البعض ، اذ ان القبيلة كانت تعتبر ـ على صورة ما ـ امة قائمة بذاتها تجاه غيرها من القبائل .

على ان القبيلة لم تكن لتحتفظ بمركزها هذا لو لم تظل على قوتها وتواظب على القيام بضروب التضحية ومآثر الاعمال التي تفسح امامها الطريق للتفاخر بسمو قدرها . ومن الجدير بالذكر هنا ان القبيلة لم تكن كيانا جامدا مقفلا على من فيه ودون من ليس فيه . بل كثيرا ما كانت تنحل القبيلة جزئيا أو كليا وبصورة شعورية او غير شعورية تحت ظروف معينة ، فيدخل فيها اقوام يندمجون فيها ، ويخرج منها اقوام يذوبون في غيرها . ومع ذلك يظل لها الاسم الذي سميت به والاطار الذي يحوطها ، وقد يغير هذا من مركزها الاجتماعي وقد لا يغير . فوحدة الدم ـ اذن ـ خرافة من الخرافات . وهكذا نرى انه ينبغي في مثل هذه الدراسة الا يكتفي الباحث ببضع ابيات من الشعر يمكن ان تكون قد قيلت في ظروف بعينها ، بل لا بد من الاستيعاب مع الاستعانة بما يعرف من ظروف الحياة الجاهلية ومعطيات العلم الحديث .

نكتفي من النتائج التي عرضها الدكتور النويهي بهذا المثال. ولكن لا بد لنا قبل الانتهاء من تعليقنا على المقال الذي نحن بصدده من تسجيل ملاحظة عابرة اوحى اليه بها البحث ، وهي ان الجنوح الى الاتصال في دراسة الشعر العربي القديم على اعتباره « ديوانا » يسجل حياة العرب في مظاهرها الخارجية امر بالغ الخطورة ، لانه يجرنا الى السطحية في الفهم . نعم ، ربما كان الشعر الجاهلي ـ لاسباب ليس هذا موضع ذكرها ـ احفل من غيره بتسجيل الاحداث اليومية ومظاهر الحياة الخارجية ، وهذا امر لم يغب عن بال القدماء فوصفوه بانه « ديوان العرب » ، ولكن لو كان هذا كل همه لكان من الظلم له ولنا ولاصحابه ان نعتبره شعرا . فالشعر يعكس ، اولا وقبل كل شيء، اعمق اعماق اصحابه ، يعكس ذواتهم عارية او شبه عارية ، ويعبر عن وجدانهم الحقيقي في اصفى جوهره وبما يحكم هذا الوجدان من مبادىء كلية واسس ميتافيزيقية . ولذلك كان البحث في الشعر عن هذا الوجدان

عاملا فعالا في تفهم اسرار الحياة العربية واسسها ولتفسير ما يحتويه هذا الشعر نفسه من اشارات لمظاهرها الخارجية . وبعد فان كل هذا لا يغض من قيمة ابحاث الدكتور النويهي ولا يقلل ما يجب له في عنقنا من شكر على مجهوده الجبار ، فهو ككل باحث اصيل ان كان لم يوفق في بعض نتائجه فقد حالفه التوفيق في غيرها .

برنارد شو والمسألة اليهودية :

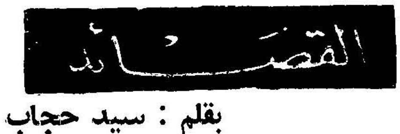
يفهم من عنوان المقال انه تحديد وبسط لراي شو في المسألة اليهودية ، وبحث في مكونات هذا الرأي — وقد صاغه شو في صورة تجربة ادبية — بحث عنها في كتب التاريخ وواقع الثقافة اليهودية التي عملت على تكوينها وتوجيهها ظروف معينة ليس اليهود او بعض اليهود براء منها . وكان السيد « مزاحم الطائي » جديرا بذلك كل الجدارة ، لانه — على ما يبدو — واسع الاطلاع كثير القراءة ميال الى الاحاطة . ومن شأن التجربة الادبية الا تشرح او تبرهن او تحلل على نحو ما يفعل كتاب البحوث والمقالات ، والا هوت بالناحية الفنية في العمل الادبي الى الحضيض . ان التجربة الادبية تبدو وكأنها عرض بحت ، وان كان ما توحي به من توجيه ، من استحسان او استهجان ، من سخط او رضاء ، من تحمس للتمسك بايحائها او للنفور منه ومحاربته ، يرجع الى الكاتب ويقع على مسئوليته . ولا يعني ذلك انها قد تكون اكثر على التأثير والتوجيه ، على خلق الحياة وتشكيل صورها من كثير من الدراسات المباشرة . ومن ثم كان على الناقد او الدارس ان يعمد الى ما يستنبطه مما يكون الاديب قد وصل اليه عن طريق ما يصح ان يسميه بالالهام او الملاحظة او الدراسة ثم عرضه في صورة تجربة يرويها، فيبحث له عن جذوره وعلله المنطقية والتاريخية ويقومه وينقده ويعده للاستفادة منه ، وبالاختصار يقدمه في صورة اوفى واكمل واوضح من تلك التي عرضها الكاتب الخالق الذي ينبغي له ان يحاول الاختفاء ما امكن له الاختفاء وراء التجربة التي يزعم انه مجرد راو لها . ولكن السيد كاتب المقال حصر جهده — بدلا من ذلك — في دراسة شو من نواح اخرى قد تكون مقطوعة الصلة بهدفه الاساسي من المقال : فراح يتكلم عن موقفه من الديكتاتورية والديموقراطية ، وعن الاغلبية وعجزها عن خدمة نفسها وخدمة المبادىء التي يمكن ان تساعدها وغير ذلك مما قد يمتعنا ويفيدنا في تفهم شو ، وان كان ينحرف بنا عن التعمق في رأيه في المسألة اليهودية التي اراد الكاتب ان يبصرنا به ويكشف لنا عنه .

فقد لخص لنا الاستاذ « مزاحم الطائي » رأي شو هذا تلخيصا مبتورا لا يحتل في بحثه اكثر من سطور ، ويكاد يكون مقطوع الصلة بما تقدمه من كلام طويل . وخلاصته « ان المفهوم الصحيح لليهودية ليس مجرد حالة نفسية يعانيها الفرد اليهودي بسبب اضطهاد الاخرين له ونظرتهم غير الطبيعية نحوه ، بل دفاع قبلي اهوج تحت تأثير الوهم القائل بان اليهود هم شعب الله المختار والورثة الطبيعيون للارض...» ومن ثم « وضعوا ... الاساس النفسي والمعنوي لواقع استعدادهم واستغلالهم الاقتصادي للاخرين ، فما داموا هم الورثة الحقيقيين للارض وثروانها ، فلماذا لا يستغلون الغير ويحرمونهم منها ؟ » وقد احسن الاستاذ مزاحم صنعا اذ اعترض على قول « توينبي » ان اساس الصهيونية ليس دينيا لان كثيرا من قادتها غير متدينين . ولكن يجب علينا في هذا المجال ان نفرق بين الديانة اليهودية البدائية على نحو ما نستخلصها من اسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة وبين تطور هذه الديانة على النحو الذي به تشكل العقلية اليهودية تشكيلا كريها تحت ظروف معينة ، وان كانت بذور هذا الاتجاه التطوري موجودة في تلك الاسفار ، ولكن كان من الممكن ان تسير في طريق اخر غير الطريق الذي سارت فيه وجعلت من اليهود وباء على انفسهم وعلى غيرهم من الامم ، لاننا لا نرى حتمية التطور في وجهة معينة ، ولا سيما في مثل هذه الحالات التي يمكن ان نعتبرها جزئية ، وذلك على خلاف ما يبدو من رأي السيد الطائي .

ومن الظروف الكبرى التي عملت على تشكيل اليهودية او بالاحرى عقلية اليهود ، وكنا ننتظر من السيد كاتب المقال ان يفتش عنها لكي يحول ما عرضه علينا شو في صورة رؤية او تجربه الى نظرية مدعمة ، نقول من اهم هذه الظروف ظرف السبي البابلي وما تبعه من احداث كان يمكن الا تحدث .

فقد جاء في بعض اسفار العهد القديم ان الله اصطفى بني اسرائيل وجعل منهم الانبياء ليكونوا للناس هداة ومبشرين . وبدلا من ان تعمل هذه الفكرة على تمسك اليهود بتعاليم موسى الحقيقية فقد ملأتهم غرورا بانفسهم واحساسا باستعلائهم العنصري ونفوقهم على كل الشعوب والاجناس والقبائل ، وراح الكثيرون منهم يظنون ان اختيار الانبياء من بينهم ليس الا جزاء عادلا على فضائل السمو والتفوق الطبيعية التي امتاز بها جنسهم واعتقد ان « العهد » الذي قالت الكتب المقدسة انه تم بينهم وبين يهوه الههم ليس الا محالفة بين نديين متساويين تضمن لبني اسرائيل التسلط المادي على جميع بني البشر في سبيل التفافهم حول يهوه وايمانهم به . وامتلأت قلوبهم بغضا واحتقارا لشعوب الارض كلها . وبعد ان كانوا يرون انهم « شعب الله » اصبحوا يؤمنون بانهم « الشعب الاله » . هذه هي العقلية التي كانت تسيطر على السواد الاعظم من سكان يهودا واسرائيل في الوقت الذي كشف لهم فيه السبي عن علماء بابل ومذهبهم الديني والفلسفي.وكان الدين البابلي في جوهره ، ينحصر في القول بوحدة الوجود المطلقة ، وبان الكون خالق ومخلوق ، علة ومعلول في آن واحد . فالاله فينظرهم هو عنصر الحياة الذي تتكاثر به الانواع البشرية والحيوانية والنباتية، ولا يخلو منه حتى الجماد . ويمكننا ان ندرك بسهولة ان مثل هذا المذهب من شأنه ان يتملق غرور الكائن البشري وينتهي به الى تأليه نفسه وعبادتها ،.لانه لا بد ان يكون العنصر الالهي فيه اكثر منه في اي موجود اخر . اعتنق مثقفو اليهود سرا هذا الدين ، وراحوا ينشرونه بطرق ملتوية بين بني جلدتهم ولكن بعد تشويهه على طريقتهم . ولما كان احبارهم يفيرون صراحة في التلمود ترتيبا على ان الله اختار منهم الانبياء ان الانسان هو اليهودي الحقيقي ، اما غيره من سائر الاجناس فليسوا ارفع مستوى من بنات العجماوات ، فقد وقر في نفوسهم ان لهم على سائر الاجناس من الحقوق ما للكائن البشري على فصائل الحيوان والنبات وانواع الجماد . وكانت هذه الروح وما ترتب عليها من سلوك هي اللعنة الفادحة التي جرت ضروب الاضطهاد على اليهود ، وجعلت منهم ومن بعضهم في الوقت نفسه ، ولا سيما اعضاء الجمعيات السرية التي منها الصهيونية واسلافها ، وباء مدمرا لكل ما هو سام في الحياة .

القاهرة — **محمد القصاص**



بقلم : سيد حجاب

***

نحن في زمن غريب حقا ! للدم وللنبيذ نفس اللون والمذاق ، ولا لون للكلمات في دخان المقاهي ، ماضغو اللبان يمضغون اطفال فيتنام ، والنساء الصغيرات يلدن اليتامى ، للشروق وللغروب نفس الاثر الدامي، الثورات تغير خريطة البشرية باسرع مما يغير الثوار ملابسهم ،والثورات المضادة تصدر في الحقيبة الديبلوماسية ، هشاشة اليقين الصبياني تتهشم وخلف القشرة الهشة تتفتح آلاف العيون ، العيون تخترق الموج لترى يونس الجديد في بطن الحوت الذري ، ترى هل سينجو يونس ام سيبتلع المحيط الاسود يونس والحوت معا ؟! وفي انتظار نهاية اللعبة المأساوية ماذا يفعل الشاعر ؟ هل يستعير مغزل بنيلوب ليجلس في

انتظار يونس ؟ ان لايرنييس الشيخ يحتاج الى كفن ولكن تليماك الفتى حاجته اسد الى رداء ، قبل أن نعلل بدفن موتانا والبكاء على اطلالهم علينا أن نصنع رداء تليماك .. وبسرعة ، ولا ينبغي ان ننسج بالنهار لننقض بالليل النسيج ، فرداء تليماك القديم قد بلي ، والحياة تتحرك من حولنا باسرع من حركة العشاق حول بنيلوب ، والكلمات ليست مغزلا يتلهى به الشاعر ويلهي العشاق ، وهي ايضا ليست رصاصات ، الكلمات عيون ترى وتبكي وتنسج الرغبة والحلم ، وبين الرغبة النبيلة والفعل البشري ، بين الحلم الاخضر والتجسد الدموي يقف الشاعر.. يفتح محارة قلبه ليرينا حلمه ورغبته ، وبقدر ما يحتزن القلب من حلمه ومحبة بقدر ما تتسع رؤية الشاعر لتحيط بالرغبة والفعل .. بالحلم والتجسد ، وبقدر ما ينفسح مجال الرؤية عند الشاعر بقدر ما يكتسب المتلقي امكانية المزاوجة بين الرغبة والفعل بانتظار ان يخرج يونس من بطن الحوت ، ولكن ... هل هكذا يفعل الشعراء ؟

في قصائد العدد الماضي من الاداب نستطيع أن نلمح موقفين اساسيين للشعراء ، موقف يطل علينا - بدرجة او باخرى - في قصائد « اغنية غجرية » و « ليليات » و « النورس المهاجر » و « من دفتر وعل » ، وهو موقف من يستعير مغزل بنيلوب ليتلهى به ويلهي عشاق الكلمات المنظومة ، والموقف الاخر يطل علينا في قصيدتي «مأساة الحلاج» و « الذي يأتي ولا يأتي » وهو موقف من ينسج رداء تليماك ومن يفتح عيون الكلمات ويوسع حدقاتها لترى وتبكي وتنسج الرغبة والحلم،وبين هذين الموقفين تتأرجح - بدرجة او باخرى - قصائد « باب سليمان » و « حمدون القصار » و « ثلاث قصائد لفلسطين » و «هدية العائد».

في « اغنية غجرية » للشاعر محمد الاسعد تطالعنا حالة انتظار باهتة لشيء لا ندريه ، يرسم الشاعر على شفتي قصيدته بسمة ساذجة بلا سبب الا التوكل العاجز (سنبقى نجوب السنين اشتياقا وحبا ، غناء يمد الى الله دربا) ويمضي ليسأل عن مرفأ ترسو عليه سفائن وجده الحزينة بلا سبب ايضا ثم يمضي بعدها (الى الغد يحمل زهر التمني ويحرق الذكريات) ولا ندري لماذا يحرق الذكرى بل والاغرب لماذا بعد ان يحرقها يتمنى ان تحمل الريح اليه (بقية شوق وذكرى حنين) وتمسح عنه عذاب القدر ؟ ولماذا يعذبه القدر واغلب الظن ان الشاعر لا يرى موضوعه جيدا وانما هو يجر على بحر المتقارب الطروب لمجرد انه يهوى ركوب البحر .

وفي « النورس المهاجر » نلتقي بتجربة مفتعلة ومسطحة ولاشخصية ، هي مفتعلة ولاشخصية لان مقاطعها لا ينتظمها حس موحد ، فالشاعر في البدء يبحث عن نورسه المهاجر بين نوارس الخليج . ثم تتسلل الذكرى المصنوعة الى المقطع الثاني من القصيدة فاذا بنا نكتشف ان شاعرنا عشق في نورسه الوديع (سابقا) عنقه الشديد وذلك حين نزل - الشاعر لا النورس - في مضارب الفجر واذا بنمرة تمنطقت بسموط اخذت بجلده بسوطها المزمجر العنيف .. هكذا .. في غفلة من الحس الصادق تحولت الحبيبة من نورس وديع الى نمرة متوحشة ، واختلط الافتعال بالتسطيح اللاشخصي للتجربة المكرورة بالصيحات الميلودرامية (كنت لي انت خير حبيب سمير ، ثم ضعت فضعت ويا .. يا لهول المصير) ونخرج من القصيدة كما دخلنا لان القصيدة كلاحقتها (الليليات) تفتقر الى خصوصية التجربة وصدقها ، ان التجربة ذاتها تكرر نفسها في (ليليات) حسب الشيخ جعفر و (النورس المهاجر) نفس التجربة بنفس التسطيح والعمومية ، واذا كان لا بد من اجراء مفارقة بين القصيدتين فلن نجد شيئا اللهم الا ان صاحب النورس بحث عن نورسه في سماء الخليج بينما صديقه المعاصر ! بحث عن نورسه في الزحمة.. وسأل « كل سلالم المترو » و « كل سيارة » ، وخرج الاثنان من بحثهما - كما خرجنا من قصيدتيهما - بلا شيء .. !

وفي « من دفتر وعل » للشاعر البيروني هنري فريد صعب يكتسي اللاشيء بدثار مفتعل من الغرابة ، ينعي الشاعر عالمنا الذي (يركض كالديناصور المجهض !) ويبكي - لا نرى دموعا - لان مدينته التي لم يبق فيها (اله مسلول الشفتين او اله شفاف احمق) هذه المدينة ويا للمأساة ! (تنجر كخارطة من خبز مبلول ازرق) ولا يفوتنا ان هذه الخارطة لو كانت من ورق مقطوع اصفر لكانت المأساة اخف ، كل شيء طيب وعظيم هجر المدينة حتى (اعياد الملح الوثني) وهي بالطبع غير أحزان التبغ المؤمن ، وايضا خلت المدينة من (الصاعقة المصنوعة من قضبان اللوز المسروق والعقاب الاخضر الذي يملأ محبرة الصيف بخيانه كبد مشقوقة) .. يا للاكروبات ! الغاز دونها الغاز مشعوذ فريننا الذي يوصي المرضى باستعمال دهن ركب النمل بعد ان يسحق جيدا في اناء بلا قعر .. كلمات تسقط من ذاكرة مثقوبة .. السنا في زمن غريب حقا ؟! فلننظر اذن الى الطرف الاخر ، حيث يقف صلاح عبد الصبور والبياتي بقلبين وعيون مفتوحة .

في المحاكمة يقف الحلاج على حافة المأساة ، العالم من حوله مختل، فالحق المحض والعدل المحض والخير المحض وراء القضبان ، وفرود السلطان يميلون ميزان العدل ، الطريق كان طويلا ومحفوفا بالمزالق : الشك .. والخوف .. والطمع في الجنة والحور ، ان الوسواس الخناس يوسوس في سمع الحلاج كوسوسة الحلى وهمس حرير الثياب ، ولكنه يلتقي بشيخه (كما يلتقي الشوق شوق الصحارى العطاش بشوق السحاب السخي - لاحظ الشفشفة المرحة الظامئة في حروف الشين والسين) ومن الشيخ يتعلم الحلاج الحب ، يتعشق حتى يعشق ويفنى في ذات المحبوب ، وحين يحتوي محبوبه في جبته يتفتح قلبه للعامة فيأسى لاجلهم وينكر اختلال الاحكام ، ونفس الاختلال يسلمه الى السجن والضرب فالصلب والقتل ، آه يا فرود السلطان ! ان الحلاج الحالم بالمطلق لم يشرع سيفه في وجه الحكام ، هو يعرف انه (لا يفسد امر العامة الا السلطان الظالم ، يستعبدهم ويجوعهم) ولكن (ما اتعس ان نلقي بعض الشر ببعض الشر ونداوي اثما بجريمة) هو لم يشرع سيفه اذن ، وهو ايضا لم يحاول اقناع الحكام الظلمة ، لانه (هل تفتح كلمة .. قلبا مقفولا برتاج ذهبي) لم يفعل شيئا غير انه القى بكلماته الحكيمة الحرة للريح السواحة (فلعل فؤادا ظمآنا يستعذبها .. ويوفق بين القدرة والفكرة .. ويزاوج بين الحكمة والفعل، وفي انتظار هذا الذي يأتي ولا يأتي يسقط الحلاج شهيدا وشاهدا على اختلال الاحكام ، ويقف معه صلاح عبد الصبور حالما ان يسعد ابناء الرب في مملكة الرب .. حين تتزاوج القدرة والفكرة .. الحكمة والفعل ، والمشهد بفنائه الدرامي والفكري نموذج جدير بالاحتذاء في الكتابة الشعرية للمسرح ، وان كان يعيبه المونولوج الغنائي الطويل (انا رجل من غمار الموالي ...) .

وفي انتظار « الذي يأتي ولا يأتي » يوحد البياتي بالخيام ، يشهدان معا دورة الخصب والجفاف ، ينتظران - ونحن معهما - عودة الروح الى عائشة التي ماتت في ظلمة نصنعها (ذبابة عمياء تحجب الضياء) ، ولكن عائشة تجوس - برغم موتها - في ارجاء القصيدة (تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام) ولكن هل يأتي الفارس ؟ ان هناك صوتا متشائما يتداخل مع صوت الامل ، الصوت المتشائم يدعي ان الخمرة مغشوشة (وربما نبوءة عودة الفارس الخصيب) ولكننا مع البياتي والخيام نشك في صحة هذا الصوت فصاحبه سكران .. وميت، (سكران بالمجان .. وزحف الدود على جبينه المتقع الاسيان) .. من نصدق ؟! الصوت الآمل .. ام الصوت الذي يستعير نبرة التشاؤم من سفر « الجامعة » ؟ .. (الكل باطل وقبض ريح) ، ان عودة الروح الى عائشة رهينة بعودة الفارس واخضرار نيسابور ، والصوتان : المتشائم والآمل يتداخلان ويتقاطعان حتى تتحول نبرة التشاؤم الى امل متوجس، وها هو حلم الخصب (يأتي ولا يأتي اراه مقبلا نحوي ولا اراه ، تشير لي يداه ، من شاطىء الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة) والصوت الآمل تهشم يقينه الهش لتولد عيون ترى ابعد من قشرة اليقين ، لقد قال الصوت بهدوء انساني اكثر - وان كان لم يفقد امله - بان الدورة لا بد تستمر .. فميت الجذور ها هو يتحرك في رحم الارض ليولد من جديد ، ويتناوب الصوتان الرؤية بهدوء اكثر واعمق في انتظار الذي يأتي ولا يأتي ... (لعلها الريح التي تسبقه) .. لعلها البشارة او

الفجيعة (لعل شاعرا يولد او يموت) وتنتهي القصيدة والصوتان يتجاوبان ويعانقان وننتظر مع شاعرينا مجيء الذي سيأتي .. ننتظر ان يخرج يونس من بطن الحوت لتخضر نيسابور وتعود الروح الى عائشة الاسطورية التي تتجدد في الكائنات .

وفي بقية قصائد العدد نأرجح بين الموقفين الاساسيين اللذين اطلا علينا في القصائد السابقة ، وان كانت هذه القصائد أقرب الى الجدية والمسئولية من القصائد المصنوعة والمكررة التي اطلت علينا في اول استعراضنا للقصائد .

في قصيدة « حمدون القصار » للشاعر عفيفي مطر نلتقي برفض متوتر محموم لهذا العالم ـ عالمنا ـ حيث نهر الليل الاقتم ينشر الرعب والعقم ، و (ينفجر رمادا دمويا في شريان العالم .. ينسكب خلال حدائقه الجرداء .. ويدس الطمى القاتل في رحم الاحياء ... ويهدم كل جدار قائم) ويلد الويل والبوم والغربان ، الرعب يشل الرغبة في الخصب ، الرغبة تنفجر في ابناء الارض ينابيع دموية وحلم الخصب (يتراكض في ظلمات الصدر خيولا شهوية ، فتحمحم .. نفرس حافرها المشتعل بفور القلب) ولكن الكوابت تخنق الشهوة وتجهضها (ويسيل عصير العالم في الثدي المسموم) وتتوارث الاجيال اللعنـــة والعقم والثرثرة الجوفاء ، حتى صوت الخصوبة الاخير (حمدون القصار) نفسه مهدد هو الاخر بان ينسكب روحه (عبر الجرح رمادا لا يخضر ولا تحمله الريح) .. وقبل ان يحدث هذا فليتهدم العالم ، والحقيقة ان هذه الرؤية الحارة لشاعرنا عفيفي مطر قد استطاعت اثارة الحس بتوترها الوحشي الذي افاده كثيرا استخدام الجملة الفعلية الدينامية في بدايات معظم الابيات ، ولكن هذا التوتر الحسي الذي نقله الشاعر الينا لم يستطع ان يكسب ادراكنا بنفس القوة لانه لم يأسر التجريد الصحيح للمسألة ، ان شاعرنا كدس صور العقم والضياع المحتمل ولكنه سار في الطريق المسدود ، لقد رأى الحوت يبتلع يونس ، ولكنه لم يستطع ان يمد بصره ليرى يونس حيا في بطن الحوت .

وفي « باب سليمان » نلتقي بسعدي يوسف وهو يحاول ان يهرب من حكايات الضياع والعصر الممل ورموز السياسة المقلقة .. ولكن الى اين ؟ هل يستطيع ؟ ان النهر نفسه يتشتت بين النخيل وهو قد ابتعد عن المنبع .. عن النهر .. عن الجذور والاعشاب واليمام والبلبل الذي يغني في التوت ، هو يحلم بالعودة الى ضفة نهره البعيد ، ويمضـغ الحنين الى ذكريات الطفولة والفتوة .. (جرار النسوة النحاسية وشباك جده والسجارة الاولى ، بان مشيئة الشاعر هنا رهينة بمشيئة النهر .. واين النهر الان ؟ ان نفحات العطش والحنين التي تنساب في ثنايا القصيدة تستطيع ان تتخلل مشاعرنا ببساطتها الرهينة، ولكن هل نستطيع ان نعود الى ايام براءة اللافعل البرية ويونس في بطن الحوت والحوت في ظلمات المحيط ؟!

وفي قصيدتي « هدية العائد » و «ثلاث قصائد لفلسطين» نستطيع ان نلمح ـ خلف نبل الهدف ـ تهاونا في استقصاء عمـق التجربة والعثور على منابعها وردود فعلها في الذات التي لا يمكن ان تكون بمثل هذا التشابه مع ذات اخرى ، ففي قصيدة هدية العائد للشاعر حسن النجمي نلتقي برموز دينية كدم هابيل والصديق ، ويهوذا ، وايوب ، ونوح ، وفي القصيدة الاخرى (ثلاث قصائد لفلسطين) .. للشاعر عبد الكريم السبعاوي فنلتقي برموز يهوذا وهابيل وايوب ، ورغم الاختلاف في النبرة والحدة والموقف تبرز هذه المشابهة شيئا غريبا ربما كانت دلالته ان التجربة الشعرية فقدت خصوصيتها حين حدثت هذه الاحالات الاسطورية الرمزية كأنها المعادل الجبري المشاع لمشكلة وتجربة فلسطين.

القاهرة **سيد حجاب**

القصص

بقلم : محمد ابو المعاطي ابو النجا

***

« عودة الكلمة » ـ لعايدة مطرجي ادريس

تروى القصة على لسان زوجة كاتب ، ومنذ اللحظة الاولى ، يتضح ان الزوج يمر بأزمة تبدو مظاهرها في رفضه الرد على تليفون المدير ، ثم في اعتذاره عن الخروج مع زوجه واولاده للنزهة ، ثم في مغادرته للبيت وعودته في منتصف الليل ، وتتضح طبيعة تلك الازمة في حديثه مع زوجه بعد عودته ، فنعرف انه يفتقد تلك القدرة الغامضة التي تجعل القلم يسيل بالكلمات !

وطبيعي ان تتساءل الزوجة اهي مسئولة عن تلك الازمة ؟ وكيف ؟ ولكن ردود الزوج وما تعرفه عنه يدعانها في حالة من القلق سرعان ما تتحول الى ثورة مكتومة حين يغيب الزوج عن البيت خمسة ايام كاملة!

ويعود الزوج ويحكي لها قصة الايام الخمسة ... « لقد نـزل في احد فنادق الجبل ولكنه كان يشعر بأنه يسير وسط صحراء لا يستشرف فيها اي سراب فلا زرقة السماء ولا حفيف الاشجار .. لا شيء من هذا كله يحدثه ، وتساءل ايكون الحل اذا شاء المرء ان يقضي على الزيف بالقضاء على حياته ؟ وانفتل عائدا ، احس فجأة انه بحاجة الى البشر.. توقف امام واجهة للكتب ووجد بها كتابا له ووجد قارئا يدفع نقوده ليشتري الكتاب ، قارئا يقول له : ان كتابه يعبر عن جيل من الشباب.. فيه تصوير رائع ... وبشر حقيقيون ... وموسيقى ... وظـل يصغي دقائق وساعات الى صوت الشاب واحس ان مغاليق نفسه تنفتح..الخ. وشعر ان بطل روايته يشيخ مثله ، وتسأل صوته الداخلي ، لماذا لا ارافقه من جديد ؟ لماذا لا اصور عجزه واستسلامه وفشله ؟

وقفل عائدا الى الفندق والى طاولة الكتابة ... وبدأ ينظر الى الكلمات تنهمر خطوطا سوداء .

والقصة تعرض لازمتين وشخصيتين في نفس الوقت ، الزوجـة وازمة علاقتها بزوجها ، والزوج وازمته مع قلمه وبالتالي مع الناس .

وقد كان من الممكن ان تكون الشخصية الاولى بأزمتها موضوعـا لقصة كاملة ، كما ان ازمة الزوج تجربة فريدة في حد ذاتها ، فاذا ارادت الكاتبة ان تعرض لهما معا فقد كان عليها ان تقيم توازنا بينهما حتى لا تطغى احدى التجربتين على الاخرى او لا تفقد كل تجربة كما حدث بالفعل ، اهم عناصرها . فالذي حدث هو ان الكاتبة قد جعلت من شخصية الزوجة وازمتها مجرد طريق تبدأ منه مشكلة الزوج ونعرض على امتداده فكانت النتيجة ان بدت ازمة الزوجة شيئا هامشيا من ناحية ، كما بدا الطريق طويلا من ناحية اخرى مليئا بلافتات قد لا تشير الى شيء ، فماذا يفيدنا ان نعرف ان الزوج بعد عودته فـي منتصف الليل لم يأكل الحساء ، ورفض قطعة الخبز المحمص وان البنتين كانتا تتنافسان على دفع اللحاف عن جسديهما الخ. وكانت النتيجة ايضا اننا حين انتهينا الى استشراف ازمة الزوج وتكشف غوامضها في نهاية ذلك الطريق الممتد ، وجدنا الكاتبة تعدل عن اسلوب تجسيد الموقف خلال حوار كما فعلت في بداية القصة الى رواية حكاية الزوج عن رحلة الجبل على لسان الزوجة فجاء ذلك الجزء الهام مـن القصة في صورة تقرير لم ينجح في انقاذه ذلك السلوب الشعـري الذي استخدمته الكاتبة !

وفي الحقيقة ان الاسباب التي تجعل كاتبا يعجز احيانا عن الكتابة لا تقل غموضا عن الاسباب التي تجعله قادرا عليها ، ولهذا فان تصويـر الازمة يبدو اكثر ثراء من محاولة تفسيرها ، ولو ان الكاتبة تمهلت قليلا امام تلك اللحظة النادرة التي وقف فيها الكاتب امام واجهة الكتب ليبصر الى كتابه وهو لا يزال محتفظا بين دفتيه بهذه القوة الغامضة

التي صدرت ذات يوم عنه والتي يشقى الان في التماسها ، ليبصر الى مخلوقاته وهي تتمتع بالحياة وتجتذب اليها الناس لتهبهم الدفء والحماس بينما هو خالقها يعيش في الجدب والخواء .. ! لقد لمست الكاتبة هذه الاوتار دون ان تعزف عليها لانها حريصة على تفسير الازمة لا على تصويرها .

« جريس » ـ للدكتور جورج حنا

« جريس » او جرجس عازر واحد من الشخصيات الشاذة التي قد نلتقي بها في اي مكان ، والتي تبرز بروزا خاصا في المجتمعات الصغيرة والمقفلة كالقرى ، ومثل هذه الشخصيات تثير اهتمام الكتاب على السواء ، الناس يجدون في شذوذها المكشوف فرصة لارواء شذوذهم المستور والكتاب يجدونها فرصة لكشف شذوذ الاثنين!

فكيف استخدم الدكتور جورج حنا شخصية جريس في هذه القصة ؟

يبدو لي أن « عالم جريس » الغريب هو الذي استهوى الدكتور وأغراه بمحاولة اقتحامه مع ان المحاولة نجحت أيضا في كشف عالم ضيعة « بشامون » حيث تداخلت حدود العالمين في الحياة وفي القصة!

ان « عالم جريس » لا ينضح الا من خلال نداء أهل القرية له « بجريس الاخوت » ، ثم يتضح أكثر بمجموعة من السلبيات فهو ليس كسائر المجانين : انه لا يضرب ولا يقتل ولا يعربد ولا يخوف احدا، واللغة الوحيدة التي يعبر بها عن عالمه الغريب هي تلك المقطوعة التي يرددها بعد ان يطلق ضحكة مجلجلة « تره لم نره لم » وهذه المقطوعة هي رده الوحيد على أي كلام وتعبيره الوحيد ايضا عندما تزدحم ساحة العين بالنساء !

ولكن جريس هذا الذي لا يمتلك ـ ملكية خاصة ـ غير ثيابه التي لا تتبدل صيفا أو شتاء ، والذي يبدو وكأنه لا يشارك ابدا في لعبة المجتمع ذات القوانين الصارمة ، والذي يبدو قانعا بلقمة يخطفها من معجن البيت ـ فهو ينتمي الى عائلة كبيرة ومحترمة ـ جريس هذا يصبح بطريقة ما .. مالكا لكل القرية ، وسيدا فوق كل قانون ، فهو الوحيد الذي يمكنه ان يدخل بيوت أهلها واحدا واحدا كأنه منهم.. الرجال يمازحونه ، والنساء لا يتحجبن عنه ، يدخل أملاك القرويين ويقطف منها ما يحلو له ، عالم واحد لا ينجح جريس ان يصبح سيدا فيه ـ بهذا المعنى للسيادة ـ هو عالم الاطفال ربما لانه يشبه بطريقة ما عالمه هو ، فهو عالم لم تتحدد فيه بعد قواعد لعبة المجتمع ، انه يضج بهذه الحرية الروعة التي تشمل حرية ايقاع الاذى بجريس نفسه ، ولا يجد جريس مأوى من هذا العالم المخيف سوى دكانة الشيخ « بوعلي » وهو واحد من أهل التقى يقف بقناعته الشديدة وطيبته الورعة وظروف حياته على الحدود بين العالمين فيصبح أقرب اليه من أي شخص في القرية ، كما تصبح دكانته الشيء الوحيد بعد ثيابه الذي يحتمي به ، والذي يشعر أنه يمتلكه في نفس الوقت بصورة مغايرة لهذه الطريقة التي يمتلك بها القرية كلها ، بل واكثر من ذلك ينصب نفسه حارسا للدكان حين يغيب صاحبه ، أجل الدكان الذي يحميه من الاطفال !..

ولكن الشيخ « بوعلي » يموت ذات ليلة .. فيفاجأ أهل الضيعة بجريس الذي كانوا يظنونه مجرد أبله،لا يمكن أن يرتبط باحد اوبشيء او يحرص عليهما خلوا من أي عاطفة او رغبة .. وربما لهذا السبب منحوه كل شيء ...!

أهل الضيعة فوجئوا بجريس هذا يتصرف في هذا اليوم ليس فقط كأعقل الناس ، بل مثل أكثرهم وفاء وعاطفة ، فهو وحده يسجي صديقه على محمل الموتى وهو يحمل المحمل على كتفه الى القبر مدافعا عن هذا الحق ضد كل التقاليد كأرقى الثوار .. ويصلي عليه كأتقى الخاشعين .

واذا كان الشيخ « بوعلي » قد مات فان دكانته لا تزال هناك ولن تموت ابدا فيلجأ اليها ويتقوقع أمامها محتميا بها وحاميا في نفس الوقت ، مؤكدا انه اذا كان يجهل قواعد لعبة المجتمع فهو لا يجهل قواعد لعبة الحياة ...!

حقا انها سياحة في عالم رجل أبله ولكن كان يقودنا فيها كاتب شديد الذكاء وفنان !!

« الاسد بو رمان » ـ بقلم عبد المجيد لطفي

الاسد بورمان ليس اسدا ، انه كلب ، ولكنه غير عادي ، انه هجين من سلالتين رائعتي البسالة وصاحبه معتز به وفخور وحين يسأله جاره :

ـ هل هو من سلالة ذئبية ؟ يقول غاضبا :

ـ انك تهينه حين تقول عنه ذلك ! انه من سلالة الزاسية جبلية

وحين يسأله الجار عن سبب اقتنائه يقول موضحا السبب وموضحا أكثر شخصيته !!

ـ لقد أخذ بعض الاطفال من ذوي التربية السيئة يسطون على أقنان دجاجي ، ويسرقون أفضلها ، وهذا علاجهم ، ان الكلاب حيوانات ضرورية اجتماعيا !

ويمضي الكاتب في مهارة متتبعا نمو الكلب الذي اشتراه صاحبه جروا صغيرا وتعهده حتى اصبح كلبا شديد الضراوة .. ان الكاتب يروي القصة على لسان الجار وهو لا يهتم بقصة الكلب وحده ، بل يهم أكثر بصاحبه .. انهما معا بطلا هذه القصة !..

وتنتشر شهرة الكلب في الحي كله ، ويصبح حديث الازقة والاحياء المجاورة ، ويصل صيته الى استاذ علم الطبيعة في المدرسة الثانوية ، وهو الذي يطلق عليه اسم « بورمان » النازي الشهير وأستاذ فن ابادة الجنس البشري في الشعوب المتأخرة .

ويوما بعد يوم ترتفع الدمدمة ضد الاسد بورمان وضد صاحبه في كل بيت ... ويفكر الجار في طريقة للتخلص من الاسد بورمان ولكنه قبل ان ينفذ طريقته يلتقي بصاحب الكلب فيدور بينهما هذا الحوار الذي يزيدنا معرفة به !

ـ أتدري كم سأربح من نزاله بعد أيام ؟

وحين يبدي الجار دهشته يوضح له صاحب الكلب !.

ـ هناك في الجنوب يوجد هواة من الاغنياء لا يزالون يربون كلابا للنزال والمعارك ، ويراهنون عليها بالكثير .

ويعود الاسد بورمان من رحلته ويسأل الجار صاحبه :

ـ كيف كانت الرحلة ؟

ـ ممتعة وحزينة ..

ـ هل خسر بورمان ؟

ـ لقد خاض ست معارك ، وفي اربع جولات مزق ثلاثة كلاب من أحسن انواع الكلاب المصارعة ، وبقر بطن احدها ، مزقه تماما ، ثم في الجولة الخامسة تضعضع ، وفي السادسة خسر اولى معاركه، فقد واحدة من اذنيه !

ـ وهل ربحت من هذه الرحلة الى الجنوب ؟

ـ نعم نحو من مائة وخمسين دينارا وجاموسة .

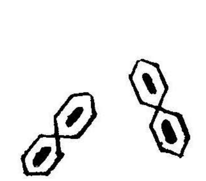
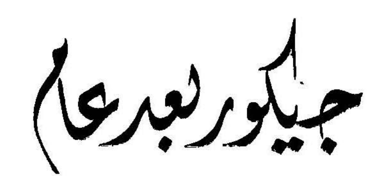
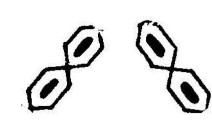
وتسوء حالة الاسد بورمان يوما بعد يوم ويقول صاحبه :

ـ انه جريح نفسيا .. ان روح الافتراس قد انطفأت فيه .

وفي النهاية يموت الاسد بورمان معفيا الجار من مهمة قتله !

لكن هل مات الاسد بورمان حقا ؟ هذا ما كان يردده الاطفال في حزن ، ولكن اجمل ما في هذه القصة ان الكاتب قد نجح دون صخب او ضجيج وبأسلوبه الهادئ المركز في ان يفتح عيوننا من خلال وصفه الذكي والموحي للكلب وصاحبه الى انه لا يزال ثمة كلب بشري يعيش ، ونعيش فيه روح الافتراس ، الذي يبدو انها لم تمت بموت بورمان النازي الشهير ولا بموت الاسد بورمان الذي أصبح مجرد ضحية لروح الافتراس البشرية ، التي تبدأ لدى نوع من الناس بشعورهم بالحاجة الى حارس ، وتنتهي بافتراسه له !

ـ التتمة على الصفحة ٧٧ ـ

جيكور بعد عام

(الى روح صديقي بدر شاكر السياب)

ذكرتك يا رفيق الدرب والكلمه .
ذكرتك والقلوب تغوص في الظلمه .
وصوت الريح صفارات انذار
تشق الليل من دار الى دار
فهز جوانحي شوق الى لقياك
متى يا صاحبي القاك ؟
متى ، وفؤادي المفجوع مما شفه قد ذاب !
متى ، ودروبنا لما تزل مسدودة الابواب !!

***

ظلام الليل ارحم من شموس لا تواسيني
ومن لي اذ رحلت وكنت لي دنيا
من الاشعار تسري في شراييني
فاشعر انني احيا
انا الانسان من نور ومن نار
تضيء غياهب الطرقات افكاري
ولكن يا صديقي كيف تتركني
وما قضيّت اوطاري
جحيم البعد يوجعني
ودون لقائك المنشود الف حجاب !
صديقي مر عام ، يا له من عام
وددت لو انني فيه
دفنت بمهمه التيه
فعام لست فيه انت كيف تعده الايام ؟
صديقي كنت لي حلما فهلا دامت الاحلام ؟!
بنيت بما وهبت حديقة خصبه
رأيت بها احبائي على ربوه
يغرد طيرهم اشعارك العذبه
فتسري في دمي نشوه
الا يا طائر الاحباب لا زالت حكاياهم
تسامرنا على بعد وتحيينا بذكراهم!

***

صديقي ، كنت في البصره ...
لثمت ترابها المغسول بالالم
شربت الماء فيها قطرة ... قطره
فسال كما تسيل النار في حلقي وخض دمي
نشيج مشرد يشدو ... ابو ذيه
(زرعنا وما ستفادنيا) ويلطم خده حسره !
واسمع من بعيد صوت جيكور
فحيح نخيلها وقبور موتاها
ومن دفنوه تحت حوائط الدور
اكاد ارى بويب يفيض ، يغرق منزل الاقنان
وينثر في زواياها
بذور شقائق النعمان ،
... ولكن الصدى ما زال يرجع لي عبوديه !؟
زرعنا وما ...
والمح طيف عشتار
يفك قيودها تموز عاد بجمع ثوار
وتملأ مسمعي اغنية صخابة النغم
تشق طريقها في داجي الظلم
ستعشب ارضنا ويموج بالاشجار وادينا
ويجري نهرنا بالنور دفاقا
يروي اهلنا ... يرعى محبينا
ستشرق شمسنا دفئا واشواقا
ستشرق ... قد سمعت عويل جيكور
وهمهمة المقابر وهي تسمع نفخة الصور
سنجني ما زرعناه
ونحصد ما بذرناه
وتزهو ارضنا بالنّور !!

الكويت

علي السبتي

في ذكرى السياب

غريبٌ على الخليج .. يغنّي للمطر

بقلم صبري حافظ

اعتدنا ان تكون المراثي اشعارا ، ينثرها الشعراء بكاء فوق قبر الفقيد الذي لم يجف ترابه ، ولم يتصلب الاسمنت على فوهته بعد . يعددون فيها المناقب ويبعثرون الترحمات . غير اني هنا ، وقبل ان تجف الدموع ، أو ينحسر التوهج العاطفي ، او يخلق الزمن مسافة كافية لوأد التحيز الانفعالي (*) لا استطيع ان اكتب عنه الان سوى مرثية ... اما الدراسة الموضوعية ، التي نعدد فيها ما له ونحاسبه على ما عليه ، فبعد المرثية بموعدها ومكانها .

❊✶❊

وهو يحث الخطى نحو عامه الاربعين غاب .. تدثرت بالصمت خطواته .. وفي وهاد الموت ، الذي طالما تذكره راجفا مرتعبا وهو في منفاه المرضي الاخير ، اختفى ... بعدما استطاع الشلل الكئيب الراعب الزاحف من القدمين ، والذي نثر الحزن والخوف والاسى في كل اعماله الاخيرة ، مواصلة الرحلة نحو الذرى .. وامتصاص اخر نفثات الحياة من اعماق اعظم شاعر عربي معاصر ... وسرى النبأ الحزين في كل الاروقة .. وبارجاء عالمنا طاف ، وعلى كل الجباه ترك ميسمه ، وفي القلوب خلف الاسى .. مات بدر شاكر السياب ، الشعر والقلق والعذاب .. مات الغريب الواقف على الخليج ينثر اناشيده للمطر وللنخيل ولارض عراقه الجديبة . مات الانسان ولكن ظل الشاعر يطوف بكل البلدان ، ليخاطب اعمق ما في اعماق الانسان ، وليحفر لنفسه مكانا في كل مكان .

ومن خلال الاحساس الدامي بفجيعة الفقدان ، اتناول القلم لاكتب هذه الكلمات عن بدر شاكر السياب .. الشاعر والانسان . الهرقل الذي حاول طيلة حياته التي مزقتها نصال الغربة والعذاب ، ان يفك بروميثيوس الموثق . وان يمسح بكفه الرحيمة دموع عشتار ، او يبكي بين يديها الحبيب الذي وهب غيابه الاجداب والجفاف والخراب ... عن مغني تموز وعاشق أدونيس انحدث ، عن رفيق اوديسيوس في بحثه وعذابه ، وقرين بروميثيوس في تشوفه الظامىء الى الحقيقة ومعاناته من اجلها . عن شقيق غينميدا في الاختطاف المفاجىء والمعاناة الداهشة لعالم يسفر كل لحظة عن وجه غريب وجديد .. عن بدر شاكر السياب اسوق الحديث ... ومعذرة ان كانت مرثيتي عن اعظم شعراء العربية في هذا العصر نثرا . فانا لا اعرف قول الشعر . حتى لو كنت بشاعر . ما كان بمقدوري ان اكتب عن بدر شعرا . فمرأتي اعظم شعراء العربية في هذا العصر ، مهما كتبت شعرا ، لا بد وان تستحيل على اعتاب عاله الى نثر .. ونثر فحسب .

ولن تحاول مرثيتي للسياب ان تنثر على قبره الترحمات . ولن تدعي لنفسها في الوقت ذاته القدرة على استنفاد كل ما تطرحه اعمال هذا الشاعر العظيم من رؤى وقضايا . ولا على تناول كل ما تثيره الدراسة الموضوعية المقيمة لهذه الاعمال من نقاط . ولكنها ستحاول التعرف على حياة هذا الشاعر ، وعلى التناقضات الذاتية والمجتمعية التي وقفت في الخلفية من اعماله وانجازاته في شتى الميادين الابداعية التي مارس الابداع فيها . وستحاول الحديث عن الدور الذي اضطلع به السياب في حياتنا الادبية المعاصرة ، عبر مرورها التنوفي السريع على الكنوز التي اثرى بها مكتبة الشعر العربي الحديث . والتي وقفت في شموخ لترفع منارات الهداية لكل من يحاول الوصول الى مرافىء الشعر .

واي حديث عن بدر شاكر السياب لا بد وان يتمركز حول ذلك العناق الحاد بين احساسه الدامي بالاغتراب والوحدة ، وتوقه العميق الى سبر جوهر مملكة الحاضر ، والوصول توا الى منبع الشعر فيها . فحول هذا اللقاء دارت حياة السياب ، وعلى شقيه توزعت كل اشعاره . على مد المراحل المختلفة التي مرت بها رؤى الشاعر ، وعلى طول الدواوين الستة التي جمعت فيها اشعاره . وقبل ان نتحدث عن هذا اللقاء المحوري الذي بعثر العذاب في حياة شاعرنا . سنحاول ان نتعرف على الخطوط العريضة لحياته ، وعلى الالوان العامة للوحة الحضارية التي شب وسطها .

❊✶❊

ففي قرية جيكور – احدى قرى لواء البصرة – التي خلدها الشاعر عندما حفر اسمها – بعدما نثره عبر كل قصائده – في اعماق القراء وفي وجداناتهم . ووسط الظلام الكثيف الباسط جناحيه فوق عراق الاحتلال الجاثية تحت اقدام الانجليز .. واثناء دوامات الغليان الشعبي العراقي التي انتهت بتوقيع معاهدة الاستقلال عام ١٩٣٠ .. وعلى وجه التحديد في عام ١٩٢٥ ولد بدر شاكر السياب ، لابوين لا نعرف ماهيتهما الطبقية ، ولكن الشيء الاكيد الذي نعرفه عنهما هو انهما كانا فقيرين . وعاش بدر طفولة حافلة بالبراءة في جيكور ... حيث يعانق النخيل في تلك القرية التي تعد واحدة من اجمل بقاع جنوب العراق .. الشط والرمال ، ويشرب في امسيات الشتاء المطر . وفي هذه الطفولة .. السعادة النسبية الوحيدة في حياة بدر .. شرب شاعرنا الحياة في القرية بكل جزئياتها . وترسبت كل هذه الجزئيات ، عبر حدقتيه المبتهجتين بجمال الطبيعة ، في اعماقه .. وظلت هذه الصورة الطفلية المصعوقة بجمال الطبيعة المندهشة بحزنها الجليل ، هي صورة الطبيعة في اغلب قصائد السياب ، حتى في اكثرها حزنا واسى .. جميلة ، غافية ، مشرقة ومعربدة بالبهجة ومتشحة بغلالات من الحزن العريق الجليل في آن . ترد القارىء الى هذا العالم السحري المليء بالاسرار والعامر بالرؤى والاساطير .. عالم الطبيعة المشرقة الغافية والبراءة الطفولية الشديدة البساطة والمتناهية التعقيد معا .

ولم تستمر هذه السعادة لابعد من سنوات الطفولة .. فقد مزق صبا شاعرنا التشوف الى حياة اوسع ، والتعثر المختنق في شباك الايدي المجذوذة الاصابع ، والتي ابدا لا تطول المنى . ولم تكن الايدي

(*) كتبت هذه الكلمات عقب وفاة السياب بايام قلائل .. وحالت ظروف دون نشرها في حينها ، حينما اعتزمت نشرها في ذكراه الاولى، لم أرد ان اغير شيئا فيها . لانها تسجيل لنضارة صدمة فقدان هذا الشاعر العظيم وحدتها .. وتكثيف لانفعالي بها وقتها . (ص)

مجذوذة الاصابع من الفقر الجديب فقط ، ولكن ايضا من فقدان الوسامة .. فما كان شاعرنا وسيما ، وما كان باستطاعته في صباه ان يهتم لفقدان الوسامة ذاك .. ولكن حاصرته هموم هذا الفقدان في مطلع الشباب .. استدعتها الى الاعماق منه خفقات القلب المتشوف الى المغامرة وطعم الحب . وخاصة في تلك الفترة التي كان فيها بدر طالبا في الجامعة ... كان هذا في مطالع الاربعينات من هذا القرن او في منتصفها . وكانت اروقة الجامعة تشهد الاختلاط منذ فترة جد قصيرة. وكان يرين على اروقتها وباحاتها ذلك التوتر المتوهج الذي يصاحب بدايات الاختلاط في مجتمع رزح طويلا تحت نير الركود والجمود والعلاقات المريضة .. وكانت اسرة السياب الفقيرة قد عاشت واحدة من بطولات عصرنا الصغيرة حتى تتيح لابنها فرصة الوقوف على قدمين في خضم الجامعة ، حيث يتعمق فقر الفقراء ويبرز حدته ... وكان تشوف شاعرنا بعدما تفتحت الموهبة الشعرية في اعماقه ، الى عالم ارحب مدى قد بلغ ذروته ، وبلغت حساسيته درجة عالية من الرهافة وحدة التأثر ... ومن جماع كل هذه الاشياء ارنوت اغاريد السياب اليائسة للحب . والتي اكتظت بها صفحات مخطوطته التي لم تنشر (ديوان شعر كله غزل) وكله تقريبا من الشعر التقليدي ، واول دواوينه المنشورة (ازهار ذابلة) . وحومت اغلب هذه القصائد حول المنطلق الرومانسي لاغاريد الحب .. اذ كان يكفي ان تلمس حسناء كتف شاعرنا في احدى باحات (كلية التربية) لتسأله في حياء عن موضوع المحاضرة التالية . او تخبره بأنها قرأت اخر رسائله او اعجبت بها . او تصوب له نظرة ناعسة في احد دهاليز مبناها . او تتريث الى جواره وتحدثه قليلا في احد مماشيها الرفيعة الطولة . حتى تتحول داخل القصيدة الى ... شقيقة روحه .. ومعبودته .. وفينوس المتنعمة على البشر بنظراتها الحنونة .

لهذا سقط بدر في الحب سريعا . ولاحق الحسناء التي اعجبت في البداية بقصائده ، بعشرات القصائد المتناهية العذوبة والرقة ... وكما سقط في الحب سريعا ، افاق سريعا على الفاجعة .. بعدما تزوجت شقيقة روحه (؟!) من احد سراة العراق اثر اول تلويحة بالثراء . ونبهته الفاجعة الى اشياء عديدة ... الى ضرورة الا يمعن في الابتعاد عن الشاطىء ما دام لا يملك سوى مجدافين من قش. والى ان قوادم الاحلام المتكسرة لن تقوده ابدا الى العالم الارحب الذي طالما تاق اليه ... والى أن يديه المجذوذة الاصابع بالفقر وبفقدان الوسامة لا بد وان تعثرا على طريقة جديدة تمكنها من القبض على الامنيات الهاربة من بين الاصابع ... والى ضرورة ان تنقلب عيناه الحالمتان المشوفتان الى المجهول .. لتجوسا بداخله وترودا اطراف العالم من حوله بنظرة جديدة وفهم جديد ... وقصة البحث عن هذه النظرة الجديدة وهذا الفهم الجديد ، هي قصة السياب مع الشعر الذي رغب دائما ومخلصا في الوصول الى جوهره ، والى نبعه الرقراق المصفى .

وقبل ان نرافق خطواته في رحلته الطويلة مع الشعر والكلمات.. سنتلمس بسرعة بقية ابعاد المرحلة الجامعية في حياة السياب، ففيها كانت بذور هذه الرحلة والروافد التي ارتوى منها بالزاد لهذه الرحلة الطويلة المريرة ... فقد التحق السياب بدار المعلمين العليا عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ وهو نفس العام الذي تخرجت فيه منها الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة .. فلحق بنازك وهي في عامها الاخير بهذه الدار ثم لحق به البياتي في العام التالي ورافقه رحلته فيها ، مخففا عليه بعض وطء هذه الرحلة وبعض جفافها . فكان عبد الوهاب يأخذ رأي بدر في اشعاره وكان بدر يقرأ على عبد الوهاب قصائده ... بل لقد ساعد عبد الوهاب بدرا على تجاوز اسوار هذه المرحلة الغزلية المغرقة في الرومانسية دون ان يدري .. وذلك عبر ثرثراته السياسية المتعددة وعبر اهتماماته الدائمة بالقضية الوطنية .. وعموما نقول ان صداقة السياب والبياتي قد اثرت على شعر كل منهما وسارعت في انضاج محاولاتهما الشعرية ... وقد رافقت سنوات الدراسة هذه خروج العراق من انخراطها الجائر في الحرب العالمية الثانية التي شملتها كثير من اثارها .. بكل ما صاحب هذه السنوات من اضطراب وتوتر .. بلغ ذروته خلال انتفاضة عام ١٩٤٨ واضراباتها الوطنية ضد معاهدة بورتسموث المعقودة بين العراق وبريطانيا والتي اشتهرت وقتها باسم معاهدة بيفن - جبر حيث تمت ابان وزارة صالح جبر العميلة.. وصاحبت هذه الفترة ايضا بداية نضج وتبلور الاتجاهات اليسارية على الصعيدين الفكري والسياسي .. وبدأت في خوض معاركها المختلفة في مجالات الثقافة والسياسة والفكر والفن . كما رافقت هذه الفترة - والاعوام التالية لها - بداية تنامي حركة التحرر الوطني على الصعيد العالمي ، وانتصار الثورة الاشتراكية على مبعدة بلدين من العراق .. في الصين ، وخروج الاتحاد السوفياتي من عزلة البناء الطويلة.. كما شهد تهذه السنوات على الصعيد الفني بداية حركات الفن وثوراته للتملص من قيود القديم والخروج من اقبيته المعتمة والمستهلكة سواء على المستويين العربي او العالمي .

كل هذه العوامل المتشابكة والمتفرقة في آن ، ساهمت في صوغ ابعاد المناخ الحضاري الذي شكل فيه السياب ، والذي خرج عبره من سراديب المرحلة الغزلية المفرطة الرومانسية ... وساهمت فيه ايضا طبيعة المناهج الدراسية التي كان السياب يتلقاها في دار المعلمين العليا - كلية التربية - والتي كانت تركز بصفة اساسية على القيم التراثية سواء في الادبين العربي او الاجنبي .. وكانت مناهج هذه الدراسة مترعة بالمحفوظات الشعرية التي شملت المتنبي وابا العلاء والبحتري وابن الرومي وابا تمام وامرأ القيس وغيرهم من كبار شعراء العربية وفطاحلها ، الى جانب شيللي وبيرون وكيتس وكولريدج ووردزورث واغلب الرومانسيين العظام ، مع كبار الرمزيين من امثال بودلير وفيرلين ورامبو وفاليري وريلكه وغيرهم .. وعبر تطوافه الحساس الطويل في عوالم هؤلاء الشعراء العظام بدأت اولى خطوات رحلة السياب الطويلة المريرة على درب الشعر والكلمات .

***

فبعد ان ذرت الفاجعة انقاض المرحلة الرومانسية التي مزج فيها السياب ما شربه من غنائية علي محمود طه وابراهيم ناجي ومعروف الرصافي ، بجزالة الشعر العربي القديم ، بدأ بحثه العظيم عن رؤيا.. عن مفهوم متكامل وجديد للعالم والانسان .. غير ذلك الذي تتحول فيه لامسة الكتف الى شقيقة الروح ثم معذبتها .. مفهوم يرتاح اليه ويحقق عبره تشوفه الى العالم الارحب الذي تذوب على شطآنه كل عذابات اغترابه وحنينه الى التآلف مع جزئيات عالم مبرد ومريح ... ولان السياب كان مخلصا في بحثه العظيم عن رؤيا .. ورؤية شعرية على وجه التحديد .. شمل نطاق بحثه الشكل كما شمل المضمون . فكان السياب من اوائل المجددين في الشعر الحديث . بل هو اول الشعراء العراقيين في هذا المضمار . اذ بدأ مفهوم القصيدة الجديدة يتحدد على ايدي السياب ، وعبر انتاجه الشعري وصل هذا المفهوم الى ارق وارقى اشكاله واثراها .. وقد رافقه هذا النضوج الفني اهتداء الشاعر الى الرؤيا التي كان يبحث عنها ، والتي علق على مشجبها كل همومه الذاتية والمجتمعية . فلما بدأت اولى مراحل شاعرنا الالتزامية ، والتي رافقها ارتياح الشاعر الى هذا المشجب الذي علق عليه كل همومه .. بدأ التألق الفني في الظهور في اعمال السياب والتعمق فيها . فقد وهبه الارتياح الفكري الى الرؤيا التي وفق اليها، قدرا كافيا من الانصراف الى التجويد الفني لقصائدها والاهتمام ببنائها الشعري والشعوري . ساعده في ذلك رحابة هذه الرؤيا واتساع افقها وعمق تفهمها لكافة ابعاد الحياة وتقديمها للاجابات المعقولة والمنطقية على شتى تساؤلات الشاعر وعلى جل تطلعاته . فوهبته راحة الرؤيا تلك طاقة هائلة للانطلاق نحو منابع الشعر ومحاولة الغوص الى ما في اعماق اغواره من رؤى واساطير ... كما ادى ولع الشاعر بهذا الاهتمام بجوهر الشعر الى الانفتاح على عطاء الشعر العالمي يشرب منه الى حد الارتواء .. وكان السياب اذا استثنينا لويس عوض اذا ما

اعتبرناه شاعراً – اول الشعراء المحدثين اهتماما بالشعر العالمي واعمقهم احتفاء به واستفادة منه ، واسبقهم مبادرة الى التأكيد على اهميته بالنسبة لشعر عربي يريد ان ينهض من سبات طويل وعميق .

ولم يقف اهتمام السياب بالشعر العالمي ، وبيقينه من ضرورة استيعابه والاستفادة بروئى ما وصل اليه من تجارب تعبيرية ومجتمعية، عند حدود القراءة والفهم . بل جاوزه الى افاق الاستيعاب والتمثل والترجمة . فكانت مجموعة القصائد المترجمة التي صدرت لبدر في بغداد عام ١٩٥٤ تحت عنوان (قصائد مختارة) من اول المختارات الشعرية المترجمة ... بل لقد سمع قراء العربية فيها لاول مرة اصوات عدد كبير من شعرائها المعاصرين ... وهم : ت.س. اليوت ، مونتال ، غارسيا لوركا ، ناظم حكمت ، رابندرانات طاغور ، اديث ستويل ، بابلو نيرودا، ستيفن سبندر ، سكليانوس ، كامير ، مزرين ، لويس ، ريلكه ، عزرا باوند ، جيوفانيني ، والتر دي لامبير ، جاك بريفير ، كرمل ، آرثر رامبو وفيلشر ... ومن الواضح انه ليس ثمة رابطة واحدة يمكنها ان تجمع كل هؤلاء الشعراء على اختلاف مشاربهم ، وبرغم تباين تصوراتهم للعالم ورؤيتهم له ، بين دفتي كتاب واحد ، سوى احتفائهم جميعاً بجوهر الشعر ، وبراعتهم في الوصول الى مرافئه .

وقد استطاع اهتمام السياب الشديد بالشعر العالمي ، ان ينعكس على انتاجه الشعري ، وأن يترك اصابعه نضجا ومقدرة على قصائده ، مؤكدا ضرورة ان يكون الشاعر العظيم ، مثقفا عظيما .. كما استطاع السياب بثقافته العظيمة في الشعر العالمي والتي لم تصرفه ابدا عن الاهتمام بذخائر الشعر العربي القديم ونفائسه ، فما اعلى صوت الموروث الشعري في قصائده ، ان يثري الشعر العربي وان يدخل فيه عشرات الابنية والتصورات ، ويؤصل فيه اكثر القيم اقترابا من جوهر الشعر ، مع محافظته خلال كل هذا على ان يكون اكثر الشعراء اقترابا من روح الشعر العربي القديم ، واوثقهم صلة به واعمقهم اخلاصا له ، دون ان يكون ذلك بأي حال على حساب التصاقه بوجدان اللحظة التاريخية والحضارية التي صدر عنها وعبر خلالها عن احلام شعبه وامانيه . وقد تجلت رغبة السياب في الاخلاص للشعر العربي ، والتي عانقت توقه الى تجديده وايقاظه من سباته القديم الطويل ، في المحافظة على روح الشعر العربي القديم والاقتراب الدائم من جزالته والتحويم بالقرب من رصانته التقليدية ، وفي احيائه للكثير من الكلمات العربية الاصيلة ، وحرصه على تنقية لغته من الالفاظ الهجينة . كما تأكدت رغبته في بث دماء جديدة داخل عروق القصيدة العربية ، في البناء الملحمي للقصيدة والذي قدم السياب انقى اشكاله وارقاها في الشعر العربي الحديث عبر (المومس العمياء) و (حفار القبور) و (قافلة الضياع) .. وفي الاقتراب بالقصيدة من جوهر التراجيديا دون افقادها شفافية الشعر وعذوبته كما في (نبوءة عام ١٩٥٦) و (سفر ايوب) و (من ليالي السهاد) و (منزل الاقنان في جيكور) و (انشودة المطر) .. وفي البناء الاسطوري المحكم للقصائد والذي لا تقوم فيه الاسطورة بدور اداة التشبيه الساذجة ، بل تستحيل الى الخيوط الناسجة لسداه المنهج التعبيري ولحمته ، والذي يكشف الشاعر خلاله كل الجزئيات الرامزة الى ابعاد المأساة الانسانية التي يعاصرها انسان عراقه الجديبة ، كما في (مدينة بلا مطر) و (مرثية الالهة) و (حدائق وفيقة) ... وفي استخدامه لاكثر من تفعيلة عروضية في القصيدة الواحدة ، وانتقاله من بحر الى اخر بحسب الانتقال بين جزئيات التجربة الشعرية والانسانية ... وفي خروجه بالشعر الحديث من اسار البحور العروضية التي كاد يصاب بالاغماء من كثرة دورانه في اقبيتها المستهلكة الى حد الابتذال ... وفي اهتمامه المبكر – على الشعر العربي – بان يكون جرس الالفاظ صدى لمعناها ، والذي يعد استخدامه لاكثر من بحر عروضي في القصيدة الواحدة ، استجابة لرغبته في الانتقال من قالب موسيقي الى اخر ، حتى يستوعب النغمات الجرسية المتنوعة التي يتطلبها البناء المعقد للتجربة الشعرية ... وفي محافظته الدائمة على وحدة التجربة ، وكبحه جماح الرغبة الملحاح في الانسياق التلقائي خلف تداعي الخواطر الشعرية ، والذي يسقط بكثير من شعرائنا المجيدين في هاوية الثرثرة والنثرية ، فالشعر تركيز .

ولا يعني هذا ان قصائد السياب كانت خالية من السقطات والهنات تماما .. فالذي يهمني هنا هو التركيز على الاضافات الحقيقية التي اثرى بها السياب الشعر الحديث . فلست في معرض تقييم نقدي لانتاج السياب وحصاده الشعري ، ولكني هنا في معرض رثاء له وتأكيد على الجوانب الاكثر فعالية في شعره وايجابية ... وقد ركزت في السطور السابقة على انجازات السياب – في حقل الشعر – المتسمة بالعمومية، وعلى الاضافات التي اثرى بها صرح الشعر الحديث الوليد ، واقامه عليها ، دون التعرض للطابع الخاص للسياب والمذاق المميز له ... لذلك لم احدث عن الحس الفلكلوري المتغلغل في كثير من قصائده .. ولا عن محاولته الدائمة للاقتراب من جوهر الرؤية الشعبية واحتضانه لها وخاصة في اثري مراحل انتاجه الشعري واخصبها ، اقصد مرحلته الالتزامية الاولى .. ولا عن احتفائه الخاص بالالفاظ والتراكيب القرآنية .. ولا عن تحويمه كثيرا بالقرب من البناء القرآني للصورة .. ولا عن براعته في تحقيق الالتحام بين المأساة الذاتية والمأساة القومية من خلال البناء الاسطوري المحكم للقصيدة .. فكل هذه من سمات السياب الشديدة الخصوصية والمميزة له والمكونة لطعمه الفريد .. والتي نستطيع ان نتلمسها عبر مراحله التطورية المختلفة .. ولا سيما في المرحلة الالتزامية الاولى ، والتي تشمل اغلب قصائد اروع دواوينه (انشودة المطر) وهو ثالث ديوان للسياب .. وكان الثاني بعنوان (اساطير) لصيقا بالديوان الاول وان أطلت عبره تباشير الديوان الثالث الكبير . في هذا الديوان – (انشودة المطر) – استطاع الشاعر ان ينزع عن كاهله تماما كل ظلال الفنائية الرومانسية التي توشحت بها كل قصائد (أزهار ذابلة) واغلب قصائد (اساطير) .. وان يحلق قريبا جدا من جوهر الشعر .. وان يغني عبر البناء الاسطوري المحكم ، كل الجزئيات المتناهية الصغر والتي تصوغ ببراعة ابعاد المأساة العراقية ..

عذارانا حزانى ذاهلات حول عشتار
يغيض الماء شيئاً بعد شيء من محياها
وغصنا بعد غصن تذبل الكرمة
بطيء موتنا المنسل بين النور والظلمه

فيقدم من خلال عذارى العراق المتحلقات في ذهول حول عشتار الذابلة وسط صحراوات الجدب والجفاف والموت البطيء الزاحف على كل شيء ، مأساة العراق .. عراق فاضل الجمالي ونوري السعيد الرازحة تحت اقدام الحكم العميل وتحت وطأة الموضعات الاجتماعية الجائرة .. التي تدفعه حدة تناقضاتها السافرة دونما خجل الى الصراخ ..

وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد
وتطحن الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول حولها بشر
مطر .. مطر .. مطر ..
وكل عام حين يعشب الثرى نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع

.. احتاج هذه الصور الطافحة بالاسى المجللة بالاحزان العميقة والكثيفة الى ادنى تعليق ، بل هل باستطاعة اي تعليق ان ينقل شحنة الغضب الهائلة التي تتوتر بها جزئيات هذه الصور .. حيث تصبح الرحى هي المركز وحولها البشر الدائرون كثيران السواقي العماة في فلك هذه الرحى الدائرة وسط انهمار المطر الاحتجاجي لتطعم الغربان والجراد .. حيث يظل الجوع عملاقا برغم اخضرار الثرى وليس بسبب اجدابه .. الجوع الدائم المستمر المطل عبر كل حول .. ولم يكتب السياب هذه القصائد بعد انحسار الحكم العميل الذي ازدهرت معه الموضعات الجائرة .. فالسياب لا يؤمن بضرب الجثث الميتة ولا

بمصارعة طواحين الهواء .. ولكنه كتبها والحكم العميل في اوج مجده .. في اعوام ٥٤ ، ٥٥ ، ١٩٥٦ .. سربلها آنا بالاسطورة ، ولفها آنا اخر برداء من النفني باغترابه وضياعه وسط عالم جائر مخمل ، ووسط النخيل الجميل المنساب على شطآن جيكور يشرب المطر .. راسمـــا للمفارقة ومعمقا لها ..

اتعلمين اي حزن يبعث المطر
وكيف تنشج المزاريب اذا انهمر
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع
بلا انتهاء ـ كالدم المراق ، كالجياع
كالحب ، كالاطفال ، كالموتى ـ هو المطر

فتركيز السياب على جمال الطبيعة في هذه المرحلة ، نوع من تأكيد هذا الجمال النقي ازاء القبح والجور ، وتعميق للاحساس بشاعتهما في الان نفسه ... كما كان لتأكيده على المطر في تلك المرحلة الاف الدلالات ..

ولفني الظلام في المساء
فامتصت الدماء
صحراء نومي تنبت الزهر
فانما الدماء
توائم المطر

فاقترن المطر في شعره بالدم وبالرعب وبالارق وبالدموع وبعذابات الرحيل وبالحنين الى الاحباب .. وبالخوف مــن الوحدة والوحشة والظلام .. واصبح المطر في الان نفسه بلسما ينكأ الجراح .. وعلة نتعلل بها حذر الخوف ..

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع
ثم اعتللنا ـ خوف ان نلام ـ بالمطر
مطر .. مطر .. مطر ..

وهو ايضا مرفأ الافراح والضحكات .. وواهــب الطبيعة ألقها وبهاءها وجمالها .. عدو الجدب وقرينه في آن .. وواهب الاطفال البهجة والضحكات واغنيات للمطر الصغيرة .. هو هذا معا وهو ايضا مفجر كل هذه الكنوز

ونرفع للسحاب عوننا : سيسيل بالقطر
وارعدت السماء فرن قاع النهر وارتعشت ذرى السعف
واشعلهن ومض البرق ازرق ثم اخضر ثم تنطفىء
وفتحت السماء لغيثها المدرار بابا بعد باب
عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىء
تكلله الفقائع ، عاد اخضر ، عاد اسمر ، غص بالانغام واللهف
ونحت النخل حيث تظل تمطر كلما سعفه
تراقصت الفقائع وهي تفجر ـ انه الرطب
تساقط في يد العذراء وهي تهز في لهفه

.. وظل السياب يركز على هذا الرمز الثري بالايحاءات ، حتى نجح من كثرة الحاحه على الرمز الكامن في هذه الصورة الشعرية الثرية ، في ان يربط بين اسمه وبينه ... حتى اصبح المطر اذا ما ذكر فـي الشعر ، يذكر معه السياب .. واذا ما ذكر في قصائد السياب يستدعي الى اعماقنا الاف الرؤى والايحاءات .. يستدعي الجـدب والدمـاء والجوع والحزن والوحشة .. يستدعي تموز وعشتار واتيس ولعازر وعشرات الرموز المرتبطة في اعماق الاساطير بالخصب والعطاء والعذاب في آن .

وكما غنى السياب قضايا بلاده في هذه المرحلة الالتزامية ..غنى ايضا قضايا العالم العربي كلها ... ذلك العالم المثقل وقتها بالاف القضايا والمشاكل .. الرازح تحت عشرات الضغوط .. المزق بيــن براثن المتناقضات المتعددة ... ذلك العالم الهائم بين يافا ووهران .. الممزق على الجبال هنا وهناك ..

اله محمد واله ابائي من العرب
تراءى في جبال الريف يحمل راية الثوار
وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار
وابصرناه يهبط ارضنا يوما من السحب
جريحا كان في احيائنا يمشي ويستجدي
فلم نضمد له جرحا
ولا ضحى
له منا بغير الخبز والانعام من عبد

وانسان هذا العالم ممزق ايضا .. مدرك لوعورة المرقى الـى الجلجلة .. حيث تدمي الاشواك الاقدام ثم ينتظر الجسد الصلـب للخلاص .. قادر على تحمل اعباء اكاليل الشوك ووخزات الحصى .. من اجل احياء لعازر الذي مات مذ امد طويل ودبت الديدان فـوق جثته .. انه سيزيف المدرك لفداحة المسئولية والعذاب ولثقل الصخرة .. فالصخرة هنا هي الاخرون .. هي المسئولية عنهم .. مستقبلهم .. ايقاظهم من هذا السبات العميق الطويل ..

وعر هو المرقى الى الجلجله
والصخر يا سيزيف ما اثقله
سيزيف ان الصخرة الاخرون
هذا مخاض الارض لا نيأسي
بشراك يا اجداث حان النشور
بشراك في (وهران) اصداء صور
سيزيف القى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على (الاطلسي)

لكل هذه القضايا العربية غنى السياب .. لبور سعيد ولوهران .. ولكفاح الشعوب العربية من اجل استقلالها وحريتها .. وايضا لقافلة الضياع المتشوقة الى يوم العودة ...

لم يخرجونا من قرانا وحدهن ولا من المدن الرخيه
لكنهم قد اخرجونا من صعيد الادميه
فاليوم تمتلىء الكهوف بنا ونعوي جائعين
ونموت فيها لا نخلف للصغار على الصخور
سوى هباب ما نقشنا فيه من اسد طعين
ونموت فيها لا نخلف بعدها حتى قبور
ماذا نخط على شواهدها ؟ ..
أ ... كانوا لاجئين »

لكل هذه القضايا كتب السياب قصائده .. واستطاع عبر هذه القصائد ان يوظف الشعر وان يفجره بكل قضايا شعوبنـــا العادلة والشريفة .. غير انه لم يتمكن من مواصلة رحلته مع الشعر الى الذرى .. ولاسباب كامنة في اعماق قصائد هذه المرحلة ذاتها . ومع سقوطه في المرض ، الذي اعقب بدايات الاجداب الشعري ورافق تيقظ الاحساس المرير بالاغتراب والوحشة ، سقط في وهاد الغربة وفقدان الرؤية .. وبدا كتجسيم حي لشاعر كبير يصرخ في اعماق بئر مظلمة ويتخبط فـي اقبيتها الموحشة وسراديبها النحاسية الرنين .. وجاء ديوانه الرابـــع (المعبد الغريق) تسجيلا لحالة شاعر ينثر ابتهالاته في اروقة معبد غريق بالفعل .. ويتأرجح بين السقوط الدامي والتشبث الضاري بالعالم الرحب الفسيح الذي يتخفف على شطآنه من كل الهموم .. والشــيء الاساسي الذي انقذ هذا الديوان ، هو اخلاص الشاعر وصدقه فـي تصوير حالة التأرجح الكئيبة تلك .. بعدما تيقن من ان الخواء يعبق في كل الارجاء .. وبعدما حاصر الاجداب كل ابعاد عالمه حتى اضحت ..

الموسس الاجيرة الحقيره
اكثر من حبيبتي سخاءا
اتيتها مساءا
معانقا ، اعانق الهواءا
هب من القطب على الظهيره
مقبلا عيونها الخواءا

وحتى استحال هو ، وسط اقبية المعبد الغريق الموحشة وسراديبه ، الى مجرد دون كيشوت فاقد لابعاد الرؤية الصحيحة .. تلعب الخيالات

بعقله الممسوس فيجهز بسيفه الطائش على حصاد الخصب قبل اي شـيء ..

كأنني كيشوت في الاصيل
يركض خلف ظله الطويل
ويطعن السنابل الكسيره
يظنها الاعداءا

... ثم جاء الديوان الخامس (منزل الاقنان) بكل ما فيه من ظلال صوفية ، ومن تشبث يائس مرير بالحياة ، ومن احساس متوهج حاد باقتراب نهاية الغريب الذي طالما غنى على الخليج للمطر .. ومن شبق عارم الى العراق والبيت والابن والاستقرار والراحة .. ومـن ارتعاش داخلي حاد ازاء الضوء والالوان المبتهجة المشرقة .. ليسجل عبر كل هذا به ، الانعطاف الجديد الذي اسفر عن وجهه الكامل فـي الديوان الاخير (شناشيل ابنة الجلبي) .. والذي استرجع فيهالشاعر من شرفة الفتاة البصراوية ، صوته الاول ، وجزء من رؤيته للعراق ولمأساته الذاتية في أن .. واستعاد عبره شغفه الطفولي العذب بالنخيل والمطر المكنوز بالاسرار ، وعالم جيكور الحافل بالبـراءة والجمال ، والبؤس والعذاب معا ... وان اكتظ الديوان باغنيات المرض والعذاب .. وحلق فـي سماء اغلب قصائده احساس فاجع متشائم .. وتجلت فيه نعمة واضحة من البؤس والحرمان والانين والشكوى .. وتشوف ظامىء الى صوت اليف او حتى رسالة ..

اني اريدك ، اشتهيك ، امس ثغرك في رساله
طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترق الزوارق والتخوت
في ضفة العشار تنفض ، وهي لاهثة ، ظلاله
عل الرياح حملن منك لها رساله
لم تبخلينعلي بالورقات ، بالحبر القليل وسحبة القلم الصموت؟
اني اذوب هوى .. اموت
واحن منك الى رساله .

بل يتجاوز به هذا الحنين العارم كل حد . ويدركه اليأس من صمم الاحياء المجسد لصمم العالم الكلي من حوله .. ويسهر الليل كله فـي انتظار الصوت الاليف ، ولكن الباب مـا قرعته غير الريح فـي الليل العميق .. فيستجدي صوت الام المتوارية تحت الرغام .. يأمل لو لم تمت ، لملأ صوتها عليه الحياة .. يصرخ ..

اماه .. ليتك لم تغيبي خلف سور من حجار
لا باب فيه لكي ادق ، ولا نوافذ في الجدار
كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون

من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق البحار ؟
كيف انطلقت بلا وداع فالصغار يولولون ،
يتراكضون على الطريق ويفزعون فيرجعون
ويسائلون الليل عنك ، وهم لعودك في انتظار ؟
الباب تقرعه الرياح لعل روحا منك زار
هذا الغريب !! هو ابنك السهران يحرقه الحنين
اماه .. ليتك ترجعين
شبحا ، وكيف اخاف منه وما امحت رغم السنين
قسمات وجهك من خيالك ؟
اين انت ؟ اتسمعين ؟
صرخات قلبي وهو يذبحه الحنين الى العراق ؟
الباب تقرعه الرياح .. تهب من ابد الفراق

.. ولكن .. يا لمرارة اليأس والوحشة والخواء وارتطام الرياح بالابواب دونما رحمة .. والقبوع مع الصمت وحيدا داخل الحجرات الموصدة .. والتمدد على اسرة المستشفيات ليل نهار في ملَل وكآبة.. والام المرض والوحدة التي فيها ..

لم يبق صديق
ليزورك في الليل الكابي
والغرفة موصدة الباب

والتي يصرخ من الامها الموحشة الى الله ان يعيده الى الابن والاهل والدار ..

اعدني يا اله الشرق والصحراء والنخل
الى ايامي الحلوه
الى داري ، الى غيلان الثمه ، الى اهلي !

فليس باستطاعة احد ان يتلمس مدى العذاب الذي يعيشه ، بساقيه العاجزتين عن حمله وبتمرغه اليومي في اسرة الدماء والمرض، وبخيالاته المنطلقة الى اقصى الحدود ، لتمعق قدرتها على التجوال في كل الفيافي والقفار والرؤى ، عجزه المرير حتى عن المشي لخطوات قليلة .. ومغادرة هذه السرر الدموية المعذبة ..

اه لو تدرين ما معنى ثوائي في سرير من دم
ميت الساقين محموم الجبين
تأكل الظلماء عيناي ويحسوها فمي
تائها في واحة خلف جدار من سنين
وانين
مستطار اللب بين الانجم .

وبرغم رهبة العذاب في كل هذه الاغنيات ووحشة الاسى .. فاننا نلمس فيها تلك الشفافية الشعرية التي استعادها الشاعر من جديد في هذا الديوان الاخير بعدما تاهت عنه في اقبية (المعبد الغريق) المعتمة وفي سراديب (منزل الاقنان) الصوفية الموجعة .. وكانباستطاعة السياب ، بعدما استعاد في (شناشيل ابنة الجلبي) صوته الاول ، مواصلة الرحلة نحو الذرى .. غير ان المرض الزاحف من القدمين ، شللا كئيبا راعبا ، اتم رحلته نحو الذرى ، قبل ان يقطع السياب الشوط الاهم في رحلة الشعر الطويلة المريرة .. الشوط الذي يتجلى فيها الصفاء والنقاء وجوهر الشعر .

وكما اختطف الموت جون كيتس وبيرون وشيللي وبروك في ريعان الشباب . انقض كالصقر الالهي ليختطف عنيميدا الرفيق الجميل الروح ، علًه يغني تراتيله الرائعة تلك في اولمب الالهة ، بعدما اجحفه عالم البشر ادنى حقوقه وابسطها .. انقض الصقر الالهي على شاعرنا وهو يحث الخطى نحو عامه الاربعين .. اختطفه .. ولكنه ترك لنا عطاء ثريا من الشعر والاقاصيص والترجمات والدراسات .. ينبغي علينا ان نعود اليها في فسحة من الوقت ، لنتأملها ، وندرسها ، ونمسح الرغام عن كنوزها الوفيرة .

القاهرة — صبري حافظ

قصيدتان

***

***

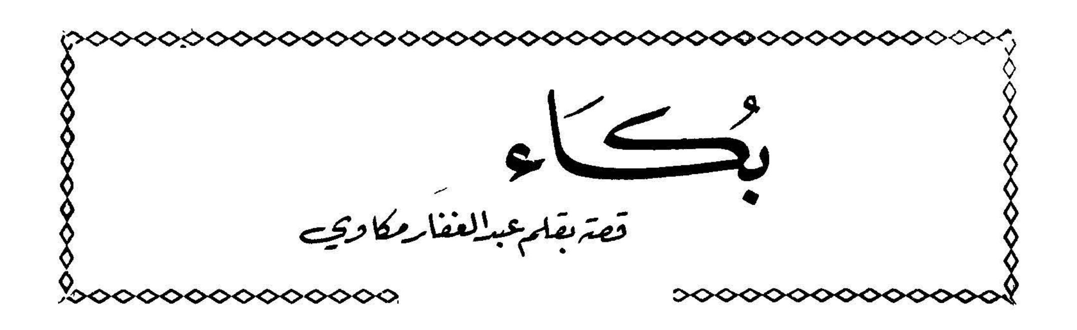
١ ـ العودة والليل بـلا انجم

ـ اغدا ترجع ؟
ـ لا ترجع ، فليل الموت والبارود والدم
مشرع الاسياف حقدا يترصد
وجهك القمحي
ـ بل ارجع في الغد
أفأبقى ها هنا قلبي للهم
واغاني رياح الغربة السوداء تذروها فتهر
دونما رؤيا ، غدا ارجع ، يا درب توعر
وازدهر يا عوسجا بقيا دمائي
لم تزل في شفتيه مورقه
وانغمد في اضلعي ياليل خنجر
فأنا الجمرة ابقى محرقه
واناشيدي بليل التعسـاء
أنجم تروي حكايا الصبح تلتم
بحر ضوء تفرق العتمة فيه تتحطم .

٢ ـ حوار مع اغنية الريـح الحصباء

ـ يا أغنية الريح الحصباء السوداء السكرى بدمي
مري ، فقناديل السأم
تأتلق الليلة في صدري مري
بالحارة ، تغسل وجه الحارة انهار الثأر
طوفانا ،
ـ يا فارس ، يا ممتطيا فرس الالم
الليل ظمي
لدمائك بحرا تجتاح الآفاق
ولوجهك ، اضلاعك ، صوتك يشتاق
أن يطأ العالم ، ارحل ، ارحل ، فالمد
مـاء أسود
وحراب الليل
ملء الشارع تصرخ ، فالويل الويل
لك يا فارس ، فارحل ، ذا السيل
قطعان ذئاب جوعى تتوعد
وجهك ، اضلاعك ، صوتك ،
لا ما خفت الليل
وحراب الليل
فضلوعي جسر صخريا يمتد
لعبور الغد

بغداد «عبد الستار العليمي»



اوه ! معذرة . طرقت على الباب طرقتين فلم يرد احد . قلت لا شك انه خرج مبكرا . ليتسلق الجبل او يمشي في الغابة او يتزحلق على الثلج . ولكن ها انت ما تزال في الفراش . هل نسيت ان اليوم هو الاحد ؟ ام يا ترى لم يحضر قاموسك ذو ذيل الحصان ؟ تقول انك لا تفهم ؟ آه ! هذا شيء محزن . لا بد انك ستفهم يوما . لغتنا الصعبة. اليس كذلك؟ كثيرا ما سألت نفسي كيف يستطيع امثالكم ان يتكلموها. ارجوك ان تفهمني . لست اشعر بالطبع باي تعصب ضدكم . نحن جميعا بشر . وانتم كذلك ايضا . هل تسمح لي بان اقدم لك مجاملة ؟ ان نطقك رائع . صحيح مائة في المائة . لولا شعرك الاكرت وبشرتك السمراء وعيناك السوداوان لقلت انك واحد منا . معجزة . هذه معجزة . هل تسمح بالنهوض لحظة واحدة ؟ لا لحظة واحدة فحسب . بمجرد ان ارتب السرير يمكنك ان تعود للنوم . ماذا تقرأ ؟ قصيدة لجوته ؟ عظيم ! عظيم ! سمعت بالطبع انه أعظم شعرائنا . كل انسان هنا يذكر اسمه . يحتفظ بمؤلفاته في مكتبته . ولكن صدقني : ما اقل الذين يقرأونه ! ما اقل من يفهمونه ! هؤلاء المنافقون . لو انهم عرفوه حقا ما حدث ما حدث . ما علينا . لا تؤاخذني . هل اثرثر كثيرا ؟ لا ؟ هل انت متأكد . ولكن لونك متغير قليلا . تقول انها الانفلونزا ؟ هل احضر لك قرص اسبرين ؟ تقول اخذت خمسة ؟ لا . اسمح لي . هذا كثير . كثير جدا . لو كنت مثلي تمارس اليوجا لما بلعت قرصا واحدا في حياتك . نعم اليوجا . هل تضحك ؟ لك حق . وماذا تفعل اذن لو رأيتني كل يوم واقفة على رأسي وساقاي في السماء . امام البيانو . لا تصدق ؟ ولكنني لا استطيع ان اجرب هذا امامك . ثم ان ساقاي ليستا مما يحسن رؤيته . اشكرك . بعد هذه السن . الغرض. يمكنك أن تعود الى الفراش . ولكن دعك الان من جوته . شعر ؟ مع هذا البرد ؟ يظهر انك عاطفي جدا . لو كنت مكانك لقرأت شيئا اخر . مثل ماذا ؟ عندك الرحلات . شاب في سنك لا بد ان يسافر ويرى الدنيا . مرة في الجنوب ومرة في الشمال . ام هل تظن انك ستعرف الدنيا وانت جالس في حجرتك . ارجوك . لا تظن انني اطردك . يمكنك ان تفعل ما تشاء . ثم ان الناس طباعها مختلفة . ولكل بلد عاداتها . انا ايضا كان ينبغي ان اكون اليوم في الجبل او اتزحلق على البحيرة ؟ تقول كيف ؟ الم ترها في الشتاء . لا لا . انت مقصر جدا . صحيح انك هنا من شهر واحد . ولكن لو كنت مكانك كنت تفرجت على كل شيء . يظهر انك تحب البيت . ستكون زوجا ناجحا . نعم نعم . انا لا اضحك ابدا . ستكون زوجا ناجحا . على فكرة . لم اسألك عن جو الحجرة . هل يعجبك ؟ صحيح ؟ منذ ان حضرت في اول الشهر وانا لا اجد فرصة للكلام معك . ربما تجدني لهذا السبب اثرثر كثيرا . ارجوك ان تعذرني . لست دائما هكذا . انت تضحك ؟ يظهر انك لا تصدق ابدا . وبخاصة السيدات . ها ها ! لا بد انك لاحظت انني مشغولة جدا . من السابعة صباحا حتى التاسعة في المساء . ارجو الا يكون صوت البيانو قد ازعجك . ماذا افعل ؟ اكل العيش كما يقولون. حذار ان تظن ان العزف السيىء مني ! انهم الاطفال الصغار . نعم . من الخامسة الى الخامسة والعشرين . مدرسة حقيقية. انا فيها المعلمة والناظرة والمفتشة والفراشة والتلميذة ايضا . تقول ان العزف يعجبك كثيرا ؟ هذا شيء يسعدني . يظهر انك تحب البيانو . الم اقل لك انك عاطفي اكثر من اللازم ؟ . وماذا لاحظت ايضا ؟ لا بد انني اصحو بميعاد واعمل بميعاد وانام بميعاد ؟ وماذا كنت تنتظر غير هذا ؟ الم تسمع عن الفيلسوف كانت ؟ يقولون ان الناس كانوا يضبطون ساعاتهم عليه . دائما في الساعة الرابعة يخرج من بيته ليتمشى في الغابة . رجل عظيم . بالطبع . وان كنت لم افهم منه حرفا . اقول لك الحقيقة بل لم احاول . نظام مزعج . ولكنه مفيد في بعض الاحيان . على الاقل ينسي الانسان عذابه . نستطيع ايضا ان تقول انه نوع من التعذيب ينسى به الانسان عذابا اكبر . معذرة . انا لا افلسف ولا عمري ذقت طعم الفلسفة . انما العرق دساس كما يقولون . على فكرة . نسيت ان اقول لك : جاء لك خطاب امس . نعم انا التي تسلمته من الموزع . هل نصرفت في طابع البريد ؟ ارجوك ان تحافظ عليه دائما . تقول في درج المكتب ؟ شيء بديع . ابو الهول نفسه . لا بد انه شيء ساحر . الصحراء والصمت واللانهاية . لا بد انه شيء ساحر . خصوصا في ضوء القمر . هل كنت تذهب الى هناك ايضا ؟ ليس وحدك بالطبع . لا ! يا للخسارة ! تقول ربما قدر لي ان ازوره انا ايضا ؟ آه ! فات الاوان . انت لا تعرف انني تجاوزت الستين . لا يبدو علي ؟ الحمد لله على كل حال . انا لا اطمع في اكثر من هذا . على فكرة : هل رأيت جارتك في الحجرة المقابلة . لا . اطمئن . انها ليست هنا . اردت فقط ان احذرك منها . نعم . تلك التي تسمي نفسها مدام شميت . ستعرفها من الانجيل الذي تحمله دائما في يدها . تقول انها تقية ؟ يظهر انك حسن النية . وماذا يفعل القسيس الشاب الذي يحضر اليها كل احد ؟ الم تره اليوم ؟ اقول لك كل احد . وربما كل يوم . من يدري ؟ ثم انني مشغولة بدروسي وتلاميذي . انا شخصيا لا اطيق رجال الدين . لا تتصور انني انكر وجود الله . بالعكس . انني اتذكره على الاقل مرة كل اول شهر . عندما يخصمون مني ضرائب الكنيسة. لكن استغلال الدين لاشياء اخرى . انت تفهم قصدي بالطبع . ثم ماذا يفعلان طول الليل ؟ يلعبان الورق او يقرآن الانجيل ؟ انا لا امانع في الزيارة كما قلت لك . يمكنك انت ايضا ان تأتي بصديقتك . بالطبع لغاية الساعة العاشرة فقط . تقول ليس لك صاحبة ؟ هذا شيء محزن. لا يمكنك بالطبع ان تعيش وحدك طول العمر . لا يمكنك ابدا . الا يقول الانجيل ليس حسنا ان يكون ادم وحده ؟؟ لا بد ان هذا ايضا موجود في انجيلكم . تقول ليس عندكم انجيل ؟ تسمونه القرآن ؟ لا بد ان شيئا كهذا موجود فيه . وليس حسنا ان تكون حواء وحدها . ليس حسنا بالمرة . اقول لك هذا بمنتهى الاخلاص . وربما لانك تخطيء في بعض الاحيان وتناديني بالمدام . لست مدام . انا ما زلت انسة . نعم في الستين وما زلت انسة . اف ! ها انا اعود مرة اخرى الى حكايتي القديمة . ان كان هذا لا يضايقك فسوف ارويها لك . تقول لا تضايقك؟ بالرغم من البرد والصداع ورغبتك في قراءة جوته ؟

اذن فذنبك على جنبك . هل استطيع ان اجلس هنا لحظة . الحجرة اصبحت نظيفة على كل حال . هل قلت لك ليس حسنا ان يكون ادم وحده ؟ نعم نعم . وليس حسنا ان تكون حواء وحدها . انا بالطبع لم اكن وحدي دائما . كان لي مثل كل الناس اهل واصدقاء وحبيب ايضا ان شئت . هل قلت كان لي حبيب ؟ انا ابالغ بالطبع بعض الشيء . الحقيقة انه هو الذي كان يحبني . حب من طرف

واحد كما يقولون . بالطبع انا ايضا لم اكن اكرهه . بالعكس كنت اشعر بالرضا عندما اراه . لكنه العناد او الطموح او الانانية ـ سمها كما تشاء ـ هو الذي كان يمنعني من ان احبه . ذلك الحب الحقيقي ، الصريح ، المتفاني . اه يا ربي ! لماذا تذكرني بهذا كله ؟ كان في مثل سنك تقريبا . هل اخطىء كثيرا اذا قلت حوالي الخامسة والعشرين . صامت ومتعب ومصفر الوجه دائما . تعارفنا في المعهد . معهد الموسيقى بالطبع . كنا معا في قسم البيانو . لم نكن وحدنا بطبيعة الحال. كان هناك طلبة اخرون . لا يقلون عن عشرين . وربما اكثر او اقل . اه يا ربي ! ما الذي يجعل الشبان ينسون شبابهم ؟ ما الذي يغمض عيونهم عن متعه الحلوة ، عن لحظاته السعيدة الفانية ؟ ما الذي يجعلهم يديرون له ظهورهم ، فتذكرون كل شيء الا شبابهم ؟ هل يعرفون وهم يفعلون هذا انهم سيشيخون في يوم من الايام ؟ ان شعرهم سيبيض ،وظهورهم ستنحني ، وعيونهم سيتخلى عنها النور ، وقلوبهم ستصبح كساعات الحائط القديمة ، التي لا تفعل شيئا سوى ان تردد رنين الزمن الاجوف؟ لا داعي للندم . اقول انني تجاهلته واعترف لك . بالطبع كنت اقابله، واتناقش معه ، بل واحتد في النقاش الى الحد الذي اتمنى معه ان اصفعه او ابصق في وجهه او اشد شعره . وماذا افعل اذا كان يصر دائما على تمجيد بتهوفن فوق كل شيء ؟ هل تصدق انه كان يرفع هذا المجنون المشوه فوق باخ نفسه ؟! وانا التي كنت لا اقدس احدا مثل باخ . صدقني يا سيدي . انه في الموسيقى هو الالف والياء ، المنبع والمصب ، الاول والاخر . تستطيع ان تتأكد من هذا اذا القيت نظرة على حجرة البيانو . هناك سترى لوحة تقول لك هذا الكلام ، موضوعة تحت صورته التي يطالعك منها وجهه الهادىء المكتنز ، وعيناه الثابتتان وجبهته الشامخة ، كانه هو بوذا الموسيقى في كل زمان ومكان . لكن هانز لم يكن يريد ان يفهم هذا . وعندما كنا نتقابل لم نكن نفعل شيئا سوى ان نتناقش او نعزف على البيانو او نتكلم عن مستقبل الموسيقى والانسانية .

لماذا لا يسعد الانسان بانسان قريب منه ؟ ما الذي يشل يده فلا يمتد الى الثمرة التي تدعوه لان يقطفها ؟ اي شيء في الوجود يجعل الاقوياء اقوياء والضعاف ضعافا ؟ اليس ان هؤلاء يتركون الفرصة تفلت من ايديهم بينما يتشبث بها اولئك ؟ نقول القدر ؟ وهل القدر الا ان تفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب ؟ ان تلتقط اللحظة المؤاتية من نهر الزمن فتمسك بها وتعانقها وتقبلها قبل ان تذوب في الماء ؟

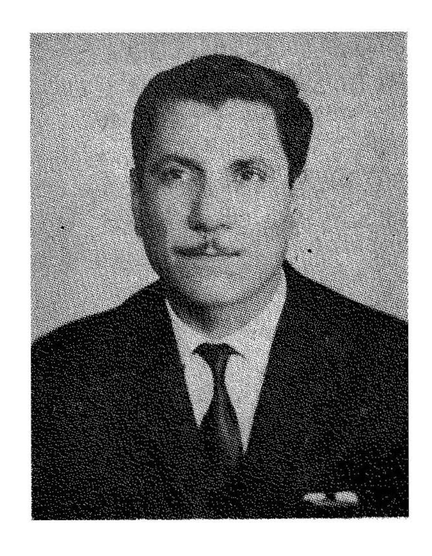
كان الاغريق يسمون الفرصة ((توخي)) . بالطبع ليس الاغريق مجهولين لك ؟ هل تقول ان العرب ايضا نقلوا تراثهم الينا ؟ انت اكاديمي وادرى مني . كانوا ، كما تعلم ، يصورون كل شيء بالاساطير. كل فكرة عندهم يقابلها مخلوق حي مجسم . هل تعلم كيف كانوا يصورون التوخي ؟! فتاة حسناء تسكب خصلات شعرها على جبينها . نعم على جبينها . حتى يستطيع الانسان ان يتشبث بها ، ان يقبض على شعرها قبل ان تفلت منه . والويل لمن تفلت منه الفرصة ! والويل لي ايضا فقد فاتتني . ادارت ظهرها لي قبل ان امد يدي لامسكها من خصلات شعرها . كنت احسب انها ستعود . لكنها لا تعود ابدا . لا تعود . تقول كيف ؟ جاءت الحرب كما تعلم وطلبوا هانز . هل قلت لك ان اسمه كان هانز ؟ حسن . استطيع اذن ان اكمل كلامي . الى هنا والفرصة لم تفت . كان يمكن ان امد يدي فامسك بخصلاتها الحريرية المغرية . ولو للحظات. لو كنت فعلت ما كان يهمني بعد ذلك ما يحدث. قال لي اخر مرة في المعهد : غدا اسافر يا كلارا . قلت : الى اين يا هانز ؟! قال وهو يمد يده يفتش عن يدي : ليس للنزهة بالطبع .فهمت ما يعني ، فاطرقت وكتمت شلا للالم الذي يوشك أن ينفجر من عيني بعد ان طال انكاري له . قال بعد لحظة صمت : هل انتظر ان تكوني في وداعي؟ قلت في صوت تعمدت أن يكون جافا لكيلا يشي باضطرابي: ربما . اه يا سيدي ! لماذا نحاول ان نخفي ضعفنا امام احبابنا ؟ اليس لهم حق ايضا في دموعنا ؟ ذهبت للمحطة . كانت تغلي بافواج المسافرين . ما من شاب الا ومعه زوجته او عروسه او صديقته . وانا

اقف مع هانز . وجها لوجه . الصمت يكبلنا . الخجل يشلنا . لا كلمة ولا لمسة ولا دمعة . ليس هناك شيء اشد خجلا من ان يخجل الانسان من اظهار عاطفته . اللغط يشتد . الصراخ والبكاء من حولنا يحرك الصخر . القطار يصفر . عمال الرصيف يدفعون الشبان دفعا الى القطار . وانا هناك صخرة محرومة من نعمة الصخور . وفي لحظة شعرت بشفتي هانز على شفتي . لم تكن ذراعه تجد الوقت لتطوقني . لم تكن الا لثمة واحدة . سريعة وملهوفة وتكاد ان تموت من الخجل .

هل تدري ماذا فعلت ؟؟ لم افعل شيئا على الاطلاق . وحين تحرك القطار وراح يشير الي بيديه رفعت ذراعي واخذت اشير . بلا حماسة ولمجرد التقليد في اول الامر .. ثم في حماسة اخذت تزداد حتى وجدتني اجري واجري وراء القطار . لكن الوقت فات و «توخي» اعطتني ظهرها ، وخصلاتها السوداء الناعمة ، افلتت الى الابد . لا اعلم ماذا حدث لي بعد ذلك . فلم اشعر بنفسي الا وانا ملقاة على ارض الرصيف ، وحارسان من حراس المحطة فوق رأسي يرشان الماء على وجهي ويقومان بالتنفس الصناعي لي . وحين فتحت عيني وجدتهما يتحسسان رأسي بحنان ويقول احدهما : هل تقتلين نفسك اذن ؟ أمن يؤدي واجبه نحو الوطن يستحق منك كل هذا البكاء ؟ ونظرت حولي فوجدت المحطة خالية والريح الباردة تبكي في ارجائها . شكرت الحارسين وقمت اتعثر في خجلي . كنت احس بأن هذه هي اخر مرة ارى فيها هانز . لو انني لمست يده فحسب ؟ لو انني بادلته قبلة ؟! لكن لا بأس . ان الانسان يدفع ثمن لحظة ضعيفة بعشرين سنة . ربما تقول الم تكن امامك فرص اخرى ؟ هل انقرض الشباب من على وجه الارض ؟ بالطبع تأتي الفرص كثيرة . والشباب ايضا موجودون في كل مكان . لكن ماذا تفعل فيمن خاب امله في نفسه ؟ من الذي يهمه ان يعيد اليك ثقتك بنفسك حين تفقدها مرة ؟ تخرجت من المعهد واشتغلت بالتدريس .

وحين اشتدت الحرب في سنواتها الاخيرة واخذوا منا تلاميذ المدارس لم يبق امامي الا ان اعزف للعجائز والمشلولين في البيوت او للجنود في المعسكرات . وحين دخل الحلفاء بلادنا كانت مهمتي ان اعزف للعساكر في البارات والقشلاقات . هل تتصور ان تساعد موسيقى باخ على السكر او تسلي مع الفجور ؟ ثم انني كنت انفع بشيء اخر . فاللغات التي يتعلمها الانسان لا بد ان يحتاجها ذات يوم . نعم . كنت اشتغل مترجمة لخطابات الحب – ان جازت هذه الكلمة – التي يرسلها الجنود الى بناتنا . وبالطبع كنت اكسب . على الاقل لم امت من الجنوع . لماذا لم يلتفتوا الي ؟ وهل يطمع فيك احد اذا كنت تضع نفسك في صفيحة القمامة ؟! واين الفرصة التي تقدم نفسها اليك بعد الان ؟ لا انكر بالطبع ان الكثيرين ناموا معي ولا انني نمت مع الكثيرين . لكن « توخي » ذات الشعر الناعم المنسدل على الجبين الناصع الشفاف .. من اين تأتي ان ادارت ظهرها مرة واحدة ؟! كيف تعود ان ذهبت الى الابد ؟! لا . لم تعد قط بعد ذلك . ماذا ؟ هل تقول انني بكيت كثيرا ؟ حقا ؟! شيء غريب . انا نفسي لم احس بهذا . معك حق . لا بد ان اجفف عيني . اشكرك . يا الهي ! وانت ايضا تبكي . هذه دمعة تجري على خدك . احتفظ اذن بالمنديل لنفسك . أأنت ايضا فاتتك « توخي »؟ لم تمد يدك في الوقت المناسب لتتشبث بشعرها ؟ لا تقل هذا . وماذا اقول انا اذن ؟ من يدري ؟ ربما كان في العمر بقية لزيارة ابي الهول . ستكون معي بالطبع . اعدك انني لن اتكلم كما تكلمت اليوم . ابدا ابدا . هل تسمح لي بطابع البريد ؟ صحيح انك تستغني عنه ؟ يا له من وجه عجيب . تصور انه يبتسم . هذا الصامت الابدي يبتسم . لا بد انه يضحك علينا . وعليك انت بالطبع اكثر . لن اتركك حتى تبتسم مثله . مهما حاولت . نعم . من فضلك . هكذا ..

القاهرة — **عبد الغفار مكاوي**



الالتزام في «سفر الفقر والثورة»

بقلم شوقي خميس

لعل عبد الوهاب البياتي هو الشاعر الوحيد من جيل رواد حركة الشعر الحر الذي ظل ملتزما حتى الان باتجاهه الواقعي في الفن ،في الوقت الذي تتعرض فيه الواقعية كاتجاه فني للانتكاس ، ليس على ايدي معارضيها فحسب ، وانما نتيجة لانحراف بعض من كانوا يؤيدونها بحماس شديد في البداية . ونعني بالتزام شاعرنا اختياره الارادي لموقف محدد من الحياة والفكر وانضمامه الى جانب المدافعين عن الاشتراكية وحرية الانسان والتقدم . ولم تكن المشكلة بالنسبة اليه ترديد مجموعة من الافكار النبيلة او تفاؤلا ساذجا او مساهمة بالنوايا الحسنة ، وانما كانت وما تزال مشكلة حياة باكملها بلا سكن ، بعيدا عن الوطن والابناء والصحاب والذكريات ، بعيدا عن الطيور والغيوم والبيوت التي عرفها واحبها في صباه ، وبعيدا عن الشوارع والمدن والوجوه التي شاهدت حماسة نضاله شابا يتنقل من بلد الى اخر ، وينظر الى العالم من نافذة قطار بعيون المحكوم عليه بالنفي ، ولكنه كان يستطيع دائما ان يدافع عن نفسه وعن العالم ، ولم يتوقف ابدا عن الكتابة .

وفي ديوان « سفر الفقر والثورة » يضع الشاعر امامنا صورتين عظيمتين لمأساة البطل الملتزم ، الاولى تتمثل في قصيدته « عذاب الحلاج » ، والتي تحتوي على ستة اجزاء ينتظمها نسق درامي دقيق.. يتصاعد حتى ذروة المأساة في الجزء الخامس « الصلب » وتنتهي القصيدة في الجزء السادس « رماد في الريح » باكتشاف المعنى الكلي للمأساة . والقصيدة الثانية التي تعكس لنا مأساة البطل الملتزم هي قصيدة « محنة ابي العلاء » وهي مقسمة ايضا الى اجزاء عددها عشرة ويختلف بناؤها تماما عن القصيدة الاولى ، فهي تتخذ مسارا افقيا ، وتتحدد في شكل عرض لمواقف اساسية من حياة الشاعر الكبير لا يؤدي كل موقف منها الى الاخر ، ولا يرتبط به ارتباطا ضروريا ، ولكنها تصب جميعا في مركز واحد في النهاية لتعطينا اثرا كليا واحدا على الطريقة التي يتبعها شعراء الحكمة من قديم في انهاء قصائدهم .

في قصيدة « عذاب الحلاج » يبدأ الجزء الاول « المريد » لنشاهد البطل وقد توقف عن المسير مع حركة الحياة العادية متلهفا الى نوع اخر من الحياة لم يتبينه بعد ...

– ١ –

سقطت في العتمة والفراغ
تلطخت روحك بالاصباغ
شربت من آبارهم
اصابك الدوار
تلوثت يداك بالحبر وبالغبار

وينتهي الجزء الاول من القصيدة والشاعر يخاطب بطله الذي لم يزل غارقا في تلهفه النبيل الحزين .

وها انا اراك في ضراعة البكاء
في هيكل النور غريقا ، صامتا ، تكلم المساء

وفي الجزء الثاني من القصيدة يصور الشاعر مرحلة الوعي والارتباط بالواقع في حياة بطله الذي تمرد على الفقر والظلم الاجتماعي والعذاب :

ما اوحش الليل اذا ما انطفأ المصباح
واكلت خبز الجياع الكادحين زمر الذئاب
وصائدو الذباب
وخربت حديقة الصباح
السحب السوداء والامطار والرياح

... الى أن يحدث الامتزاج بين الرؤية الواقعية والوجدان الصوفي في شفافية باهرة :

– يا مسكري بحبه ،
محيري في قربه ،
يا مغلق الابواب
الفقراء منحوني هذه الاسمال .
وهذه الاقوال
فمد لي يديك عبر سنوات الموت والحصار

اما في الجزء الثالث فان الشاعر يوحي الينا بعرضية النظرة الرومانسية للحياة فيحكي تحت عنوان « فسيفساء » قصة مهرج احب ابنة السلطان ، وكان حبه يساعده على تحمل عبء حياته كمهرج، ولكن حدث ان ماتت ابنة السلطان – بلا سبب – كما تموت فراشة في الحقول ، فجن المهرج ولاذ بالصمت – وانتهت القصيدة . ويقول الشاعر في ختام هذا الجزء :

رويت ما رأيت
رأيت ما رويت
كان ويا ما كان

وكأنه يعلن انفصاله ، ويوحي الينا بانفصال البطل في نفس الوقت عن هذا العالم الغريب المحزن اللامعقول ، وكأنه اراد ان يصور لنا بطريق غير مباشر تلك اللحظة التي يتخطى فيها وعي البطل النظر الى الحياة على انها مجرد قصة محزنة ، لان له همومه الاخرى الاكثر جدية ، ولان العالم يلقي عليه عبء مسئولية فادحة يواجهها في الجزء الرابع من القصيدة حيث يحدث الصدام المنتظر بين البطل والخارج.

بحت بكلمتين للسلطان
قلت له : جبان

هكذا تتحول رؤية الحلاج الى حياة ، الى فعل ، الى ممارسة،الى موقف لتتوحد نفسه ، بعد ان قذف بنفسه الى قمة الصراع – ولكن الاخرين لا يتركونه . وفي الجزء الخامس يتجسد العقاب ، وتتقاطع الانغام في جمل قصيرة ومشحونة متوترة بين فظاعة الفعل اللانساني، وبين براءة الصيحة الصوفية الممتلئة بالحب . اننا حين نسمع صوت

البطل في قمة عذابه النبيل ، لا نتمكن من الحصول على متعة التطهر التقليدية ، فان الشاعر يؤكد ان كل ما حدث عن طريق التفصيلات الموجزة ، كان حقيقيا .

وقال لي اياك
واغلق الشباك
واندفع القضاة والشهود والسياف
فاحرقوا لساني
ونهبوا بستاني
وبصقوا في البئر ، يا مجيري
ومسكري
وطردوا الاضياف

ولكن رغم كل شيء يظل هناك دائما امل في الخلاص .

فافتح لي الشباك ـ مد لي يديك اه .

لقد قطعوا اوصال الحلاج ـ ثم احرقوه ، ولكن اسمه ما يزال حرا يتردد كالنار والريح . لقد قطعوا اوصال الحلاج ثم احرقوه ولكنه حل في الحياة وانتصر على الموت ! كيف ؟ يقول البياتي في ختام القصيدة:

ـ اوصال جسمي اصبحت سماد
في غابة الرماد
ستكبر الغابة ، يا معانقي
وعاشقي
ستكبر الاشجار .

اما في قصيدة ((محنة ابي العلاء)) فان الشاعر عبد الوهاب البياتي يعطينا صورة واحدة للانسان في اطار عصر باكمله . ونظرا لاتساع المشهد ، فقد قسمه الشاعر الى عشر مستويات بحيث يمكن للمتلقي ان يكتشف الحقيقة من اكثر من جانب . وما اشبه اجزاء القصيدة العشرة باجزاء مسرح بالغ الضخامة ، يقسم الى عشر مستويات ، ليمثل عليه عرض هائل من فصل واحد . اقيم في مقدمته تمثال لفارس من النحاس ، رمزا لخواء القيم النفعية التي تتحكم في مقدرات اناس فقدوا الامس والحاضر والحلم يتراءون في خلفية العرض كالظلال .

هذا بلا امس وهذا غده قيثارة خرساء
داعبها ، فانقطعت اوتارها ولاذ بالصهباء
اشعل في الهشيم نارا وانتهى الصراع
وذا بلا شراع
ابحر حول بيته وعاد

وبعد ان يصور الشاعر الجو العام للمأساة ، يبدأ في تعريفنا بابي العـلاء ، وشيئا فشيئا تتشابك خيوط القصيدة منطلقة من وعي البطل لذاته ورغبته المعذبة في تخطي هذه الذات في عالم محكوم عليه بالصمت والحزن : ـ مت وما تزال حيا انت والريح التي تبكي

تهز البيت في المساء
حرمتني من نعمة الضياء
علمتني ثقل غياب الكلمات وعذاب الصمت والبكاء
الشارع الميت غطى وجهه الصقيع
والباب اغلقت الى الابد
ثلاثة منها اطل في غد عليك
مقبلا يديك
لزوم بيتي وعماي واشتعال الروح في الجسد

ثم يدخل البطل في صراع مع الخارج ليستخلص حريته وصوته:

كنت اذا ما غاب عبر حجرتي القمر
وغسل المطر
ذوائب الشجر
انزع نفسي في بلاط قصره ، واكسر الحجر
اشد في قيثارتي الوتر .
امد للسحر
يدي التي تحجرت ، واصبحت
من دون ان ادري الى الامير
خنجره وصوته ـ صوتي انا الكسير
يدي ـ التي استرجعتها

ويبدأ الالتزام مرحلة ايجابية يرتفع فيهـا الشاعـر ليؤدي دوره الحقيقي كشاهد على واقع مليء بالنفاق والزيف والتعاسة . كشاهد على عصر ساده الظلام :

وكنت انت بينهم عراف
وكنت في مأدبة اللئام
شاهد عصر ساده الظلام

والى هنا كان من الممكن ان يدفع المضمون الايديولوجي للقصيدة بشاعرنا عبد الوهاب البياتي الى الخطابة المملة ـ ولكنه كشاعر انساني وكفنان كبير استطاع ان يستمد من حياة البطل العادية ومن تجاربه مع الغربة والعذاب ما يخلق خلفية انسانية للصورة :

ابحث عن سحابه
خضراء ، عني تمسح الكآبه
تحملني
الى براري وطني

فمثل هذه اللحظة تحقق بتفاعلها مع النغم الاساسي في القصيدة ـ وهو يدور حول ان الشاعر ضمير عصره ـ نوعا من البناء الهارموني يضيف الى الكلمات والصور المستخدمة عمقا اضافيا .

ويلجأ الشاعر الى طريقة اخرى لتجسيد الخط الاساسي في القصيدة حين يحيطه بلحظات من التوتر شبيهة بالظلال مهر الشاعر في التقاطها وتجسيدها من خلال التناقض الموجود في الحقيقة الانسانية والواقع : لم يبق الا الموت في الاطلال والهياكل

لم يبق الا الشعر في ذاكرة الاحقاب
وبعد الف سنة ستنضج الاعناب
وتملأ الاكواب
ويبعث المغني
فآه ثم آه يا صبابتي وحزني

ولم يقف البياتي عند هذا الحد ، لان هدفه كان اكثر من وضع قصة شعرية مؤثرة ، ولذلك يمتد الصوت ويشير الى ما وراء واجهة الحياة العصرية من اوجاع وضعف فنشعر بأن المأساة لم تزل مستمرة وان تكن مختفية في ثوب عصري مما يضيف معنى جديدا لمحنة ابي العلاء:

ضفادع الحزن على بحيرة المساء
كانت تصب في طواحين الليالي ـ الماء
تقارض الثناء
ما بينها ، وتنشر الغسيل في الهواء
وتشرب الشاي وفي المكاتب الانيقة البيضاء
والصحف الصفراء
كانت تقيء حقدها على الجماهير ، على المارد وهو يكسر الاغلال
ضفادع كانت تسمي نفسها ((الرجال))

ولكن هل معنى ذلك أن الحياة لا تتغير وان الظلم الانساني حقيقة ابدية ؟ هكذا يدعي البعض ويجيب البياتي في ختام قصيدته :

الارض رغم حقدكم تدور
والنور غطى نصفها المهجور

واذا كانت قضية التزام الانسان والفنان قد طرحت على نحو موضوعي في قصيدتي ((عذاب الحلاج)) و ((محنة ابي العلاء)) وكشف الشاعر لنا عن ابعاد الموقف الالتزامي ، متخذا من حياة كل مـن الشخصيتين وعاء يصب فيه رؤيته الخاصة محملة بشعور تاريخي حي، فان قضية الالتزام تطرح تجربة الشاعر نفسه في قصيدته الطويلة الاخرى بعنوان ((سفر الفقر والثورة)) ونحن نشعر فيها بانه استمد صورة الفقر من حاجته الى الوطن والاهل والصديق ، وبانه استمد الثورة من حياته نفسها . وطوال القصيدة يتردد الاحساس العميق

الصارخ بالوحدة وبالعذاب والحلم ، بالعدالة ووحشة الانتظار والليالي الضائعة والمنفى والادراك المفزع للمصير والسحرية الممزوجة بالمرارة :

– من يشتري قصيده
لقاء هذا القمر الفارق في بحيرة المساء
فوق القمم المديده
لقاء هذا المطر الاخضر ، هذي الزهرة الفريده
– ومن يفك الشاعر الاسير
من اسره من ظلمات عصرنا ، من قلق المصير
– الشعر كان قدري يا قاتلي الاجير

وهكذا نرى مدى ارتباط الشعر بحياة عبد الوهاب البياتي ، ان الشعر بالنسبة له كما قال ذات يوم بحق « نوع من العبادة يحميه من الكثير من الضياع او الهرج والسقوط . نوع من الطهارة ، ودفاع عن النفس ضد الموت والعادية ، بدونه تصبح الحياة لا مبرر لها،ولذلك فهو يكتب دائما ، ولا يتوقف عن الكتابة . وينعكس هذا الاحساس على « قصيدة سفر الفقر والثورة » التي تصور حياة الشاعر مطاردا من منفى الى منفى ، لا يصحبه سوى اغنياته وايمانه العميق بالمستقبل، وتتداخل الصور المستمدة من الطبيعة وعناصر الوجود الدائمة مع الصور المستمدة من واقع الحياة اليومية – والاحداث المعاصرة لتكسب الكلمات والصور قدرا متزايدا من الكثافة والثقل .

ان عبد الوهاب البياتي متيقظ دائما ، ففي المنفى يكتسب الانسان هذه العادة . انه يحلم بعيون مفتوحة :

بعيدا انت يا وطني
كحلم عبر نافذة القطار اراك في الوسن
نخيلك في ضباب الفجر ايقظني

ان هذه القصيدة تعكس لنا من حياة الشاعر صورة فريدة للاغتراب:

وتحملني ليالي الصمت للمقهى
شريدا ماله مأوى
يجوب شوارع المدن التي نامت بلا نجمه
على عكازة ويغيب في الظلمه

ولكنها تعكس ايضا وفي نفس الوقت صورة فريـــدة للمقاومة والصمود :

قلت لكم : اعود
لكنني احترقت في الموانيء البعيده
وكانت القصيده
اسلحتي الوحيده
بها فقأت اعين اللصوص والضفادع البليده

ومن تكامل هاتين الصورتين ينبثق الشعر في قصيدة « سفر الفقر والثورة » . وفي اغلب قصائد الديوان ، غنيا في بساطة حاسمة مؤثرة، فالشاعر لا يقف عند سطح التجربة ، وانما ينفذ الى الداخل ، لا يتوه في الاحشاء وانما يتجه الى القلب مباشرة :

وكانت العباره
اجنحتي بها اطير وبها اخترق الحصار
في سنوات النار
وكانت الامطار
مركبتي بها اليك انهب القفار
فالف الف ليلة انتظار
شيبت الفجر الذي يحبو على الجدار
فكن صباحي ، واحتي المطار

ان الصباح والواحة المطار اوصاف عادية تماما للشيء المنتظر تحققه من البناء الجديد . ولكن الشاعر في الفقرة السابقة من قصيدته (الى الاتحاد الاشتراكي العربي) قد نفذ الى داخل التجربة ، ووضع الصباح والواحة في نهاية طريق شاق مقفر ، وضعهما في المكان الذي يكتسبان فيه طاقة جديدة ، وعذوبة غنائية .

ان القيم الاصلية في تراثنا الادبي تكون جانبا هاما من شاعرية البياتي . فهو لا يكف عن التأكيد اذا ما طرحت قضايا الشعر والفلسفة او الشعر والسياسة بان الشاعر مفن قبل كل شيء . ونعتقد انه نفس المعنى الاشتقاقي لكلمة شعر في اللغة اليونانية القديمة . مما يؤصل وجهة نظر الشاعر ويسحبها على المستوى الانساني العام . والبياتي يحاول اقامة جسر بيننا وبين تراثنا العربي حين يستمد منه موضوعات اكبر قصائد الديوان « عذاب الحلاج » و « محنة ابي العلاء » حتى لا نصبح مقطوعي الصلة بماضينا فلا نكتسح في زحام العرضية . والبياتي يسيطر عليه انفعاله احيانا فيتحول الى مغن كما في قصيدته الاولى الى ولده علي :

البحر مات
والعشب فوق جبينه يطفو وتطفو دنيوات
كانت لنا فيها اذا غنى المغني ذكريات
غرقت جزيرتنا وما عاد الغناء
الا بكاء

وكأن موجات من الحزن تتدفق الواحدة تلو الاخرى ولا شيء اخر. ولكنه يسيطر على انفعاله نوعا ما فـي القصيدة الثانية المهداة الـى ولده فنرى وراء صورة اغترابه وشوقه صورة اخرى لعالم لامبال :

مدن بلا فجر تنام
ناديت باسمك في شوارعها – فجاوبني الظلام
وسألت عنك الريح وهي تئن في قلب السكون
ورأيت وجهك في المرايا والعيون
وفي زجاج نوافذ الفجر البعيد
وفي بطاقات البريد
مدن بلا فجر يغطيها الجليد
هجرت كنائسها عصافير الربيع
فلمن تغني ؟ والمقاهي اوصدت ابوابها
ولمن تصلي ؟ ايها القلب الصديع
والليل مات

هذا الذي يرتبط بالاشياء ارتباطا حميما جدا وينفصل عنها في الوقت نفسه ، الذي يجد نفسه في كل لحظة مواجها لقدره ومصيره كالمحكوم عليه بالاعدام ، الذي ينظر الى الشيء ولا يراه ، الذي ينتظر من جاء ولم يجيء في الوقت نفسه ، الذي يكون في يقظة ابدية دائمة. انه المنفي ، انه الشاعر عبد الوهاب البياتي رائد الشعر الحديث،صنع من سنابل القمح والتاريخ والرياح والمطر والربيع والفجر قصيدة «الى عبد الناصر الانسان» وآمن بان الفنان الحقيقي لا بد وان يكون صوته مع التقدم لان وقوفه ضد الانسان يخرج به عن كونه فنانا .

واذا كانت تثار من حين الى اخر زوبعة حول من هو مكتشف الشكل الجديد في الشعر فان عبد الوهاب البياتي بلا جدال هو اول من حدد المعنى الثوري للشكل الجديد ، باعتباره الوعاء المناسب لان يصب فيه المضمون الثوري لحركة الواقع المعاصر . ويكون بذلك اول من حقق الوحدة بين الشكل والمضمون المتلائم معه ، واذا كان هنالك من الشعراء من سبقوه في كتابة القصائد دون التقيد بعدد التفعيلات من بيت الى اخر مثل الشاعرة نازك الملائكة او الشاعر نزار قباني اللذين قدما لنا في النهاية موضوعات وتجربة تقليدية في شكل جديد ولا يكونان قد فعلا شيئا اكثر من وضع بدعة جمالية ، فان عبد الوهاب البياتي يظل هو المكتشف الحقيقي للشكل الجديد في الشعر . لانه اول من وهبه الروح التي تضمن له البقاء ، الروح الثورية التي لا تتحدد بالمضمون الايديولوجي للعمل الفني فحسب وانما بما يحتوي عليه العمل من مضامين انفعالية وعاطفية بل وبيولوجية ايضا ، فان الروح الثورية انعكاس ايجابي صادر عن حياة باكملها .

وبعد ، فقد حاولت اللحاق بتلك الروح الثورية في ديوان سفر الفقر والثورة ... ولكن ما اصعب هذا العمل ! ان ثورية عبد الوهاب البياتي تتمرد على كل تحديد !

القاهرة — **شوقي خميس**

مذكرات لاجيء فلسطيني

ـ ١ ـ

غسلت قلبي في مياه البحر
نظفته .. من حمأ الزمان
من بقع الاحقاد .. والاحزان
لكنني ..
لما اعدته .. الى الضلوع
قابلت فيه
حقدي العظيم
حقدي القديم
على الذين اغتصبوا
حديقتي .. وزوجتي .. وطفلي
وفرحة .. كانت هناك
حنطوها مثلي

ـ ٢ ـ

جهزت يوم العيد ..
حلتي الجديده
صافية البياض .. كالنوار
لكنني .. لما هممت بارتدائها
صباح يوم العيد
وجدتها متسخه
أحسست .. ان شيئا ينقص الهندام
وان حلتي ليست كما يرام
فتشت في الادراج .. لم اجد
سوى اشارة حمراء
مصبوغة بحفنة من الدماء
لرجل ..
من أهل دير ياسين
جروه في الشوارع الصهاينه
أمام اعين النساء
وكان عاريا
قبلت تلك الشارة المباركه
علقتها على القميص .. فوق القلب
فاسترحت
كأنها حقيقتي
او اسمي الذي يعرفه الرفاق
او .. عار امتي الذي ..
يحمله الرفاق

ـ ٣ ـ

لما احتضنت كف طفلتي الصغيرة
وسرت في الغابات
تسمت اصابعي
احسست ان قوتي تنساب في يديها
وان قريتي .. وبيتي المفقود .. والاحباب
في عينيها
فكرت في هدية لها
في وردة .. برية .. صغيره
تشبهها ..
لانها .. غريبة في الارض .. مثلها
ضفرتها .. في باقة من اغصن الزيتون
لكنني .. احسست
ان شيئا ينقص الهدية
وجدته .. في حفنة .. من حسك البرية
غرزتها .. في اعين الزهور
فحاولت صغيرتي .. ان تبتسم
لما بكت في قلبها .. اغنية منكسره
« بلادي .. اعدني اليها
ولو .. زهرة يا ربيع »
فاهتز ملك الله
والنـاس
ما تلفتت

ـ ٤ ـ

اوصيت قلبي ان يظل صامتا
اذا رثت لحالتي .. صاحبة النزل
كما تعودت
لكنني .. بالامس كنت اصعد الدرج
سمعتها
تسر ـ في اسى ـ لاختها ...
ـ تصوري !
قد كان يملك الكثير
المال .. والاولاد والاصحاب
قد كان يملك الوطن
لكنه نكب ...
تعثرت رجلي ..
واختنقت بالبكاء
احسست سقف الكون فوق راسي انقلب

وان محنتي
معدومة النظير في حانوت هذا العصر
وجاء صوت ساكن في الحجرة المجاورة
ـ « اللـه .. حي »

ـ ٥ ـ

شاهدت فوق البحر رحلة السمان
جماعة .. تطير فوق اسطح الضياء
تسكرها .. رائحة الوطن
وذكريات الحب .. والحزيه
فتطلق العنان للغناء
بكيـت ..
غير انني خجلت من دموعي
حملت .. صرة المتاع والهموم .. والرؤى
وعدت نحو نزل .. اجرته
فـي التيـه ...
القيت في كآبة الفراش .. جثتي
منسحقا .. من التعب
ولم انظف حلتي
ولا يـدي
من تراب .. رحلتي
ففي غد ..
استأنف السفر
تساقطت على الفراش صور الاحلام
واوجه الاخوات
والحبيبة التي تركتها .. بلا وداع
فكرت في مواقفي في الحرب
في اخوتي الجنود
في السلاح .. في الخيانه
صليت في الفراش .. كي انام
صرخت في الظلام
ـ يا الـه
قد سرق الشيطان بهجتي
فابعث اليَّ احد الملائكة
يشل يقظتي
اخفيت رأسي في الوساد من حرائق الهجاس
منتظرا .. سلطانة النعاس
وقد أتت .. كالموت
تحمل الغياب .. والعزاء .. والصور
ساعتهـا
حلمـت
ان لي اجنحة .. كطائر السمان
وانـني
أشم فوق اسطح الضياء
رائحـة الوطن

ـ ٦ ـ

تشاجرت عصابة الرياح في الفضاء
واشتبكت ثيابها في مصرع الشباك
فلطمت بـه الجدار
الصـوت
شق هيكل الحلم
كأنـه
اشارة الهجوم
تهز ربضة المدافع الثقيله
ووقفة الجنود .. في الحدود
صرخت ...
ـ في انفجار فرحتي ـ
ـ « حرس .. سلاح »

***

لكنني ..
ادركت انها الرياح
تشاجرت على اقتسام صرخه
للاجيء يموت ...

ـ ٧ ـ

نافذتي مطلة .. على طريق قاهري مفرح
تعبره .. مواكب العمال والجنود
كـل يوم
في ساعة الصباح مر طالبان مصريان
يناقشان مشكلة
ويشبهان رفقتي في حربنا الاولى
وقال اول الاثنين ..
ـ « لا يسلم الشرف الرفيع
من الاذى
فأكمل الرفيق .. قائلا
ـ « حتى يراق .. على جوانبه
الدم
فهمست ـ في سري ـ له
ـ يا صاحبي
لن يرفع الاعراب راسا
تحت شمس
لـن تبسموا
حتى يراق ..
على فلسطين الدم
حتى يراق ..
على فلسطين الدم

العريش **فرج صادق مكسيم**

من ديوان فلسطين حبي تحت الطبع

الغول

الغول ميت ...
اياك ان تقول لا ،
الغول ما يزال سيدا مسودا
له الملوك حشم
والامراء خدم
وفي يديه سر صنعة التيجان
لقد قضى ...
ارداه يافع في العشر من سنيه ،
لم يبد عارضاه او يخط شارباه
ولا تحيط ساعديه عضلات مارد ،
ولا لديه « حكمة » الكهان
اياك ان تقول خرافة
فليس هذا الزمن الكاذب اخر الزمان
الغول ميت
اني اراه جسدا محطما
وجثة مكومه
بأم عيني ارى سحنته المورمه
بأم عيني ارى الضباع حوله محومه .

***

اتثقون بالذي اقوله
هيا اذن ... تجمعوا
تجمعوا ...
وهيئوا الفؤوس والسواعدا
لكي نشق في الصخور حفرة
نلقيه فيها بكرة
ونرجم الصخور فوقه جلامدا
فقد سمعت انه يموت بعض زمن
ثم يهب من رداه
هيا اذن تجمعوا
ولا تخلوا في البيوت راقدا
فالصخر من صوان ...

***

الغول جثة هامده
والساهرون يأكلون حصرما
ويشربون علقما
ومن يهب منهم معاندا
تفتك به الثعالب
وفي الجحور تقبع الارانب ...

***

سمعت ما سمعت ؟
هل هي الرياح ام نفير صور
يهدر من مشارف الجبال في الوديان
بلى نفير صور
بلى نفير صور
يا ايها المعلقون في زوايا الدور
يا ايها المكومون في الجحور
هذي هي الاشاره
هذي هي الاشاره
فاطلقوا الشراره
وليتفجر جبل الصخور

ناجي علوش



« محمد ، يا محمد .. ! أين رحت يا صبي .. ؟! » وتـلاشى الصوت الاجش المتعب في عتمة الكوخ الطيني وهمهم الشيخ العملاق « لو أن هذا الملعون هنا كنا عرفنا ماذا يحدث بينهم .. ! » وتململ في فراشه ثم راح يصغي . كانت اصواتهم تصل الى سمعه كدمدمة غامضة ، وفكر : كأنما يتخاصمون .. ؟! كان في وسعه أن يميز تلك الصيحات العنيدة الغاضبة .. اما الكلمات ، تلك الكلمات الهـادئة الرصينة ، وقد كانت تختلط في سمعه وتضيع .. نعم ، انهم يتجاوبون وتثاءب وهو ينظر بضيق الى الزاوية المعتمة ، هذه حقا هي صيحـة ابراهيم ولده الاصغر . ابراهيم هذا في عينيه البنيتين ضراوة ذئب جائع وفي قلبه نقمة وحنق .. لا بد وانه يصيح في وجه اخيه مصطفى! مصطفى هذا ، ابو محمد مصطفى ، ولده البكر ، فيه رجاحة عقـل الرجال وصلابتهم وحلمهم .. نعم ، هذا هو ولدي الحقيقي . واطلق الشيخ تنهيدة بينما راحت أصابعه الضخمة تمر على الحصير بحركة راعشة .. نعم ، هذا هو رجل الاسرة ، لن اخشى شيئا علـى الاسرة ما دام ابو محمد معها .. ولا على بنياتي المسكينات فانه يعطي البنيات قلبه اذا لزم الامر .. وسرت دفقة من الحرارة في الجسد العملاق ، فتوثب قلبه كان مشدودا بكل كيانه الى الخارج حيث تنطلق هـذه الصيحات ، كان يود لو يرى كيف يقف هذان الولدان وجها لوجـه وفي عيونهما الغضب والناس من حولهما يتأملان باعجاب لا حد لـه هذين الرجلين اللذين لم يعرف الفرات أشد منهما عزما . لكنه كـان مقيدا الى هذا الفراش ، وهذه الزاوية ، ورفع رأسه قليلا ، ثم غمغم جازما وهو يريح رأسه على الوسادة : نعم الولدان يتجادلان .. وفكـر وقد لاحت على شفتيه ابتسامة : فليتجادلا .. نعم ، فليتجـادلا .. هذا شيء طبيعي ، مثل هذا الخصام شيء طبيعي بالنسبة لنا نحن الفلاحين ... شيء مألوف في حياتنا ان نختلف ونتصايح ... وأن نتخاصم احيانا من أجل لا شيء .. تماما من اجل لا شيء ، كما يفعل هذا الولد الارعن .. ابراهيم لا يريد ان يسقي القطن في هذه الساعة ... انه يعلم بالطبع ان هذا هو الوقت المناسب لسقايته ، كما قـال له مصطفى .. ولكن ، ما دام مصطفى قد قال له : هيا ، هذا وقت السقاية ..! فان هذا الاحمق يريد أن يتأخر قليلا من الوقت ، نعم ، قليلا من الوقت ، ليثبت بذلك انه ليس في حاجة لوصاية احد حينما يتعلق الامر بهذا القسم من العمل الذي يخصه وحده ، فهو وحـده الذي يعرف متى يجب ، ومتى لا يجب ، ان يروي القطن . هذه هي المسألة .. ابراهيم يريد ان يكون سيد نفسه حينما يؤدي عمله ... يريد ان يرى نفسه حرا في هذه اللحظات . ويتنفس الشيخ بعمق . نحن الفلاحين جميعا نعرف هذه الرغبة ، انها تلهب قلوبنا ، كل منـا يقول لنفسه : لماذا لا تكون لي قطعة صغيرة من الارض ؟؟! لـماذا لا تكون لي الارض التي ازرعها لنفسي ..! ولكن ، لن يكون له غير هذه الارض التي يزرعها من اجل سيدها .. ولن يكون له في نهاية الامر غير هذه الديون وغير هذا البؤس الخانق .. ولذلـك فاننا كثيرا ما نتصايح ونتخاصم ونتظاهر بالقسوة .. ولكن سرعان ما تصفو الامور وتروق حينما نغسل كبرياءنا وتعاستنا ، فيجد الحب والمودة طريقهما الى قلوبنا ، نحن ، في الحقيقة ، لسنا قساة ، بل اننا مخلوقـات مسكينة في منتهى الطيبة ، وانما حمية الشباب وعنفوانه واحلامـه غير المحدودة هي التي تجعل ابراهيم يسرف في خصامه وقسوته ...

ولكن ..؟! ربما ، ربما كان الحب هو ما يدفعه الى كل هذه النقمة .. نعم ، ربما كانت سميرة هي التي تختفي وراء كل هذه المشاكسـة العنيدة .. فلا بد وان يحس بالوحدة هنا بينما هذه الصبية الغضة بعيدة عنه في الجبل .. وتلوح على شفتي الشيخ ابتسامة ، انـه يحلم بها ، بعينيها العسليتين المشرقتين ، باغنياتها وهي تحتطب في الحـرج غربي القرية .. وحينما يفكر في كل هذه المسافات التي تباعد بينهما؟! .. حينئذ فانه ينفجر في وجوهنا .. ويقرقر الصدر العملاق بضحكـة حدبى ، ثم يفكر بتأثر وحنو : يجب ان نفهم هذا الفتى العنيد الغاضب يجب ان نفهم مشاعره ، هذه الصبية الحلوة هي جنته الوحيدة التي يهرب اليها من بؤسه اليومي .. ومن دونها لن تكون الحياة في عينيه غير جحيم لا يطاق .. انه يحبها .. وتمر الاصابع الضخمة عـلى الحصير بحنان بالغ ، ويهمس الشيخ بصوت متهدج ، وحق الله لن يتزوج منها رجل غيره ، ابدا لن يمسها رجل سواه .. غدا ، متى ما أعطت الارض خيرها ، سنرجع الى الضيعة ونأخذ له هذه البنية الحلوة ... والله لو كلفني ذلك كل موسمي فسوف آخذ له هـذه البنية .. وحين يتزوج ابراهيم وينجب اولادا ، ستروق طباعه ويصير كأخيه مصطفى ، رجلا ممتلئا بالاناة والطيبة .

وعاد الشيخ يصغي ، ولكن لم يكن ثمة غير الصمت يغمر العالم من حوله ، لا بد وانهم اتفقوا وراحوا ، كل الى عمله ، هكذا تحـدث الامور دائما ، تتجمع بعض السحب فيكفهر وجه السماء وترعد الدنيا ثم تتلاشى السحب ويعود الى الدنيا صحوها وصفاؤها ... وانطلق عصفور يغرد بفرح وزهو وراح الشيخ يصغي اليه وقد امتلأ قلبـه بالبهجة ، وتدفقت الدماء الحارة في شرايينه ، وشعر بان جسـده المريض المتصلب قد صار أكثر طراوة .. لو كان في وسع الانسان ان يسير ، نعم ان يسير قليلا ويخرج الى الشمس ..! لا بد وان يبـدو العالم جميلا .. حقا .. بعد ثلاثة أشهر من الرقاد في هذه العتمة ، لا بد وان تبدو السماء والحقول والنهر وكل الاشياء على غاية مـن الجمال . وتخيل نفسه حينما كان يقف على ضفة النهر معتمدا عـلى عصا الفأس لينعم بلحظة من الراحة وهو يدخن سيجارته .. حـلوة كانت تلك اللحظات ، ما أجمل ان يتأمل الانسان صفحة الفرات العظيم وهي تتلألأ تحت شمس آب ، تماما في مثل هذه الايام ، وليس ثمـة غير هذا النهر يشق السهول الترابية موغلا نحو الشرق وعلى ضفتـه من الجنوب ترتفع التلال الجرداء بصمتها وخضرتها الكابية ... وهنـا في الجزيرة هذه الحقول النضيرة .. ثم هذا الحلم الذي يملأ قلبك بانك أتيت الى هذه الارض من قرية بعيدة كي تصنع حياة اكثر سعادة لك ولاطفالك .. حقا ما أجمل هذا كله ، ما أجمل ان يكافح الانسان ليجعل الدنيا اوفر سعادة !.. وسرت رعشة حارة في جسده تتحامل على نفسه ونهض قليلا معتمدا على ساعديه ، ولكن خدرا مؤلما جعـله يترنح ويتهاوى على فراشه .. ونظر الى الشعر الاشيب الكثيف الذي يغطي صدره العريض فاحس بالحسرة تخترق قلبه .. كيف قـدر لهذا الجسد العملاق ذي القدرة الخارقة ان يقعد عاجزا في هـذه الزاوية ؟.. وأحس بغصة ، حقا ، كيف قدر له ان يصبح عاجزا لايقوى على الوقوف وهو الذي كانت الارض تهتز تحت قدميه اذا سـار .. هو الذي كانت الصبايا تعشقه .. هو الذي ما عرفت هذه السهـول لا أقوى ولا أنضر منه .. هو الذي كان فيما مضى يستطيع بيد واحدة

أن يقتلع سنديانة من جذورها ، نعم .. من جذورها ..؟! ترى أقذف به الى هذه الارض كي يموت فيها غريبا ، بعيدا عن تلك الارض التي نبت فيها والتي يحس عطرها وشذاها مع كل خفقة من خفقات قلبه ؟.. كي يموت كالجرذ في عتمة هذا الكوخ الطيني من دون ان يحقق الحلم الذي ضمه بين جناحيه كل هذه السنين ، من دون ان يتحرر من ظروف حياته البائسة ، من دون ان تصبح له قطعة ارض صغيرة ؟.. ورفع يده ثم راح يتأمل ساعده العاري ، انه ما يزال ممتلئا ولكنه مع ذلك خائر العزيمة .. ــ لا ، لن يكون هذا ..! همس الشيخ بعمق ، وربي لن أموت كالجرذ هنا ، سأحيا ، نعم سأحيا ، لارى تلك الخرنوبة أمام بيتنا الجبلي .. لازوج هذا المصروع ابراهيم .. وحرك رجله اليمنى فاستجابت له ، الحالة الان افضل ولن يطول الامر حتى انهض ، نعم سأنهض ، قليلا من الارادة الصلبة ويسير كل شيء على ما يرام .

كان الشيخ يحس في تلك اللحظة بانه يمتلك قدرة لا حدود لها ، يجب الا يستسلم الانسان للضعف ولا للمخاوف ، مادام الانسان يملك القدرة على التحرر من الضعف فلماذا يستسلم له ..؟! وعاد الطائر المزهو يردد اغنيته ، وحملته الاغنية العذبة الى حقول القطن خارج الكوخ حيث أسرته غارقة في العمل اليومي والعرق .. ان له في الحقيقة ، أسرة لا تجاري في حيويتها ودأبها .. أسرة فيها عزم تلك الجبال وعنفوانها .. حتى العجوز النحيلة المسكينة ، العجوز الطيبة التي انجبت له مصطفى وابراهيم والبنيات ، كانت تعمل في الحقل طيلة يومها .. وتخيلها وهي تنحني بجسدها الواهن لتقلع الاعشاب الغريبة من التربة ، وقطرات العرق الحارة تنعقد على جبينها المتغضن .. كذلك الصبايا ، البنيات الثلاث ، فانهن يشتغلن بحيوية وشغف .. وكذلك ابنته الكبرى حسنا وزوجها .. يمكن لحسنا ان تترك الطفلين يلعبان على المرج الصغير في رأس الحقل ، ولكن ، كما قال لها في الصباح ، يجب ان لا تغفل عنهما ، وان لا تدعهما يقتربان من الساقية الرئيسية التي تمر في طرف الحقل ... فحياة الطفلين أثمن من كل شيء .. يجب على افراد الاسرة ان يعملوا كيلا نضطر الى استخدام العمال ، فنحن لسنا من اولئك الفلاحين الكسالى الذين يدفعون كل ما تنتجه الارض أجورا للعمال .. لا ، لسنا من هؤلاء الفلاحين ، فنحن نريد كل قرش عرقنا من اجله ، نريد ان نجني كل ثمار تعبنا ، فبعد ان يأخذ صاحب الارض حصته وديونه يجب ان يبقى لنا ما يكفي كي نشتري مؤونة وثيابا ، ثم اننا سنزوج ابراهيم ، ويجب ان ندخر قليلا من المال كي نشتري فيما بعد قطعة من الارض .. طبعا لن يتم ذلك في هذه السنة ولا في السنة التالية ، ولكن اذا أتت مواسمنا جيدة فسنتمكن اخيرا من ان نشتريها .. ومن اجل ذلك يجب الا نستخدم عمالا .... فمن العار ان ندع يدا غريبة تمتد الى الحقل .. لا تدعوا يدا غريبة تمتد الى حقلكم بينما تقعدون انتم ، لا تستخدموا عمالا ابدا .. هذا ما قاله لهم في هذا الصباح . وقد أجابه ابو محمد بحزم ورزانة : « لا يا ابي ، لن نستخدم ابدا اية يد غريبة ، يمكنك ان تثق بهذا يا ابي ، سوف نخدم ارضنا بايدينا .. »

نعم ، هذا ما قاله هذا الولد الطيب .. أما تلك العجوز المسكينة ، فما كان يجب ان تدعها تذهب معهم ، لقد أصبحت خرقة بالية لا تقوى على شيء .. وفي ذات يوم سوف تسقط ميتة في الحقل اذا استمرت الحال هكذا .. كانت مشاعر الشيخ تتجه نحو زوجته المسكينة ، فقد كان يحس نحوها بكل حنان قلبه ورحمته. لقد كانت رفيقة حياته .. وقد وهبته كل ما في حياتها : حبها وحنانها وتفانيها ، رغم انها كانت تعرف كل شيء .. كانت تعرف انه لم يهبها من قلبه غير العطف ، أما حبه فقد كان لامرأة أخرى ، لصبية ذات عينين تتألق فيها خضرة المراعي ونضارتها ورقتها ... لزاهية .. اجمل فتاة عرفها الجبل .. ومع ذلك فقد كانت العجوز كريمة دائما ، متفانية دائما .. دائما كانت الزوجة الوفية الصالحة لقد كافحت هذه المرأة معه وتألمت ، وصبرت على البؤس .. وها هي تعرق في الحقل كصبية صغيرة .. من أجل هذه العجوز ، من اجل الالام التي حملتها في قلبها كل هذه السنين لا بد وان يبارك الله لهم في عملهم .. أولا نستحق الارادة الطيبة هذا القدر اليسير من عناية الله ؟. تبارك الله ، انه واسع الرحمة ، لا بد وان ينظر الينا من عليائه ويقول : واخيرا سنكون لهؤلاء المساكين فرصتهم الموعودة فقد تعذبوا طويلا .. وهتف الشيخ بحرارة : نعم ، لا بد وأن تكون لكل انسان فرصته الموعودة .. ثم فكر ، أما العجوز الطيبة فيجب الا تعمل بعد اليوم . سأقول لها حينما ترجع : من غير الواجب يا ام مصطفى ، أن تذهبي للعمل في الحقل بعد اليوم ، ليس هناك ما يدعو الى كل هذا التعب .. دعيهم يعملوا وحدهم ، أما انت فقد صار يحق لك ان تنالي نصيبك من الراحة ..

وترافص شعاع ساطع على العتبة ، ثم تسلل بأناة ودعة الى داخل الكوخ بينما راح الشيخ يتأمله بفرح واعجاب وكأنه يستقبل زائرا عزيزا . وترافص الضوء على الجدار المطروش بالحوارة ، فأحس الشيخ بالرغبة في الخروج الى الشمس .. وهتف بقوة وحزم : « محمد ، يا محمد .. اين انت يا ولد ؟؟. »

وانبثق صوت الولد مذعورا وهو يدخل الى الكوخ : « نعم يا جدي ، نعم .. »

فتأمله الشيخ لحظة ثم قال وفي صوته رنة عتب : « تأخرت طويلا يا ولد ، أين كنت .؟! »

وتأمل الصبي الكوخ ثم قال برزانة : « كنت هناك يا جدي ، كنت عندهم ... »

وارتفع الصوت الاجش معاتبا : « ... ونسيت جدك يا ولد ؟» وأكد الصبي بحمية : « لا يا جدي ، لا .. اعوذ بالله !.. »

وسأل الشيخ حفيده وقد عاد اليه الرضى : « يخيل الي اني سمعتهم يصيحون .. هل كان ابوك وعمك يتجادلان كالعادة ؟.. »

ــ نعم يا جدي ، لقد كانا يتجادلان ..

ــ من أجل سقاية الارض كالعادة .. أليس كذلك يا محمد ؟..

ــ نعم يا جدي ، بسبب سقاية الارض ..

وقال الشيخ جازما : « نعم ، نعم .. عمك ابراهيم لا يريد مشورة من أحد ، يعني ، هو لا يريد من أي انسان ان يقول له : قم بهذا العمل على هذه الصورة .. قم به تماما هكذا !.. عمك يا بني يريد ان يكون حرا .. ان يكون سيد نفسه .. وهو محق في هذا لولا ان يبالغ في الصخب قليلا ، أليس كذلك يا صبي ؟.. »

ــ هذا صحيح يا جدي فهو يصيح كثيرا !..

ــ اسمع يا بني .. عمك ابراهيم يبالغ فعلا في اظهار قسوته ولكنه في حقيقة الامر ليس سيئا .. انه يقسو لانه لا يريد ان يشعر بالخضوع لاي كان ، ولانه يحس في أعماق نفسه بانه خاضع لصاحب هذه الارض وانه ليس حرا .. تماما كما نحس نحن .. ولذلك فهو يخاصم والدك كما نفعل نحن جميعا .. هذا ما يجب ان تعرفه انت ايضا يا صغيري .. يجب عليك ان تعرفه جيدا لانك ابني ، لقد خلقك الله على صورتي ، فانا ابوك الحقيقي ، ولذلك يجب ان تحفظ في قلبك كل ما أقوله لك ..

ــ نعم يا جدي ، سأحفظه في قلبي ...

قال الجد في حزم : « ولكن يجب ان يعلم عمك ابراهيم بان والدك الطيب لا يفرط في شيء .. ابوك يريد ان يؤدي العمل كما يجب ان يؤدى .. وهذا ما يفعله الرجل العاقل .. ابوك لا يضمر لعمك ابراهيم غير الحب ..

فهتف الصبي بحرارة : « نعم يا جدي ، انه لا يضمر له غير الحب ... »

قال الجد جازما : « ولذلك فما يكاد عمك يثور حتى يهدأ كالحمل الوديع ، لم أعد اسمع صياحه ، وهذا يعني انهما اتفقا وان كل شيء يسير الان على ما يرام ، كما يحدث دائما ؟..

ـ نعم يا جدي ، كل شيء يسير الان على ما يرام ..

« هذا حسن ، كل ذلك حسن .. » قال الشيخ معقبا وهو يتأمل الصبي بعينيه الكبيرتين ، ثم هتف بحرارة : « تعال يا صغير .. اقترب وحدثني عن زرعنا .. قل لي : كيف غدت حقول القطن وكيف حال السهول والشمس .. والنهر ؟.. ثلاثة أشهر مرت علي ولم أر الدنيا فيها .. ثلاثة أشهر يا صبي .. ! »

واقترب محمد فجلس القرفصاء على طرف الحصير قريبا من الشيخ ، وقال بنغمة حالمة وهو يحدق في فراغ الكوخ : « حقولنا هائلة يا جدي ، القطن فيها كالاشجار .. اذا سار الرجل فيه لا يظهر منه غير رأسه .. »

وهتف الشيخ مقاطعا بنغمة مزهوة : « عظيم ، عظيم ما تقوله يا صبي !.. »

وتابع محمد بلهجته الحالمة : « .. والسماء رائعة يا جدي .. سماء بلون الورد تتألق فيها شمس وهاجة .. والقطن ينمو وينمو.. وعلى ضفتي النهر في كل الحقول يغني الفلاحون يا جدي .. وفي اغنياتهم بهجة لا حد لها .. »

وعقب الشيخ : « نعم يا صغيري ، يحق للفلاحين ان يفرحوا اخيرا يحق لهم ان يفرحوا .. »

وهمس الصغير بلهجته الحالمة : « ويرجع النهر اصداء اغنياتهم .. فيتهادى بين الحقول حاملا الخير الى كل مكان .. ستعطي الارض الكثير في هذا الموسم .. ستعطي الكثير .. هكذا يقولون .. »

وهتف الشيخ مزهوا : « واذن فلقد جادت علينا السماء .. جادت علينا بعد انتظار طويل !.. اذن سنطرح بؤسنا يا صغيري.. سنطرحه ونتخلص من نعاستنا .. تباركت السماء .. » وتأمل الصبي لحظة ثم أضاف : « الان نستطيع أن نوفي عمك ابراهيم حقه .. سوف نأخذ له سميرة في نهاية الموسم .. »

وسكت الشيخ لحظات قليلة راح اثناءها يتأمل الطفل بحنان بالغ ، ثم هتف بعمق وحرارة وعيناه ما تزالان معلقتين به : « اقترب يا ولدي ، تعال .. » ودنا الوجه منه ، كان وجها حلو الملامح تتألق فيه عينان من الفيروز الصافي تحت خصلات من الشعر الاسود متناثرة على الجبين ، وتتفجر فيه حيوية الرابعة عشرة ونضارتها . ورافقت يد العملاق ببطء الى الوجه الصغير وراحت الاصابع الضخمة تمر على الجبين والوجنتين الطريتين بحركة راعشة ... ومرت لحظات من الصمت ، ثم همس الشيخ العملاق بحرارة : «هاتان العينان .. دعني أر نورهما الحلو .. ففي هاتين العينين أرى ذاتي أرى كل الاحلام النضيرة القويمة التي اختلج بها قلبي .. أوه ، كم فيهما من الاحلام .. لا ، لا يمكن لاية عينين جميلتين ، ولا حتى لعيني ابيك ، ولا حتى لعيني أجمل الصبايا واحلاهن ان تشرقا بكل هذا السحر .. بكل هذه العذوبة .. ففيهما يتألق الفجر الذي كنت ابحث عنه جاهدا .. الفجر الذي قضينا حياتنا في بحث مضن عنه ماذا ..؟ من هم هؤلاء ؟.. وتعود يد الشيخ لتستقر على صدره.. اوه .. انهم : جدي ، وابي ، وانا جدك ، ثم ابوك الطيب !... سلسلة طويلة من البشر ، من مساكين البشر الذين شقوا كثيرا ، وتألموا كثيرا .. هذا ما يجب ان تعرفه ، ان تضعه في قلبك وتذكره دائما ... يجب عليك ان تذكر دائما لانك ابني ، وعلى صورتي خلقك الله .. انك الوحيد الذي يشبهني بين افراد الاسرة كلها .. نفس العينين .. نعم ، حينما كنت في الرابعة عشرة كانت لي نفس هاتين العينين .. والروح نفسها .. ونفس احلام الصبا التي لا حد لروعتها ... أوه ، انت تريد أن تسألني : لماذا يحلم الناس !.. كل الناس البائسين يحلمون ايها الصغير !.. لقد ضيع البؤس حياتهم وانهكها، وانهم يريدون ان يعودوا ثانية بشرا حقيقيين وسعداء .. ولذلك فانهم يحلمون .. لان الانسان اذا رضي ببؤسه فهذا يعني انه قد صار بهيمة .. ولكن ما دام الانسان يحلم .. ما دامت الاحلام تحيا في قلبه فان البؤس لن يصيره بهيمة ابدا ..

وسكت الشيخ لحظة كان يبدو خلالها وكأنه راح في اغفاءة ثم عاد يقول بصوت عميق هادىء : ـ « وانا ايضا كانت لي احلامي، بل لقد كانت حياتي كلها سلسلة من الاحلام .. انظر : حينما كنت ما ازال صغيرا ، في سنك تقريبا ، كنت اتطلع الى الارض من حولي ، الى الذرا الفتية الشامخة والوديان الرهيبة والكروم المتدرجة على السفوح ، ثم اقول لنفسي : هذا كله خلقه الله من اجلي !.. لقد خلق الله الارض من اجلي .. هكذا تماما ، ومنذ ذلك الوقت بدأت الاحلام في حياتي .. كنا حينئذ ما نزال بعد في تلك القرية الجبلية ، ما اجمل قريتنا الجبلية يا صغيري .. انك لم ترها بعد فقد شاء الحظ ان تولد انت هنا على شاطىء الفرات العظيم .. قريتنا تلك تشبه عش النسر ، تقع على ذروة الجبل وتلفها خمائل وخمائل من العرائش واشجار الجوز والتين والرمان . وبيتنا هناك يطل على واد عميق فسيح تغطيه اشجار الزيتون . وكنت منذ صباي ، اشتغل من شروق الشمس حتى مغيبها في البستان وكرم الزيتون .. اوه ، العمل في الجبال صعب يهد الجسد .. عليك ان تحمل فأسك طيلة اليوم ، فالارض تحتاج الى حفر والنباتات البرية التي تقطعها لا تلبث حتى تعود كثيفة نامية .. ثم انك تشتغل اياما واياما في تنظيم بستانك .. ولكن ، في يوم واحد فقط ، تقذف السيول اليه بأكوام واكوام من الحصا والحجارة ، وتخرب السياج ، وتهدم جدران الحيارة التي قضيت اياما واياما في بنائها .. وحينئذ يجب عليك ان تبدأ من جديد لتصلح كل شيء .. هنالك دائما ما يجب عمله .. ومع ذلك فارضنا هناك لم تكن تعطي الا بعسر وشقة .. وكان يتحتم علينا ان نعمل طويلا حتى نحصل على لقمة بسيطة .. وكان الجوع يترصدنا في كثير من الايام .. اننا لم نكن في الحقيقة غير فلاحين مأجورين فقراء ... لم نكن سوى فلاحين بؤساء .. ولكن ، كنت ما ازال في ميعة الصبا لقد كان لي ساعد اقوى من الفولاذ وظهر لا يتزعزع .. وكنت بيدي هذه استطيع ان اقتلع سنديانة من جذورها .. كنت رجلا حقيقيا له قلب كالصوان وعزيمة لا تقهر .. وكنت اقول لنفسي : مهما تكن حياتك الان قاسية فلا بد وان تصنع منها شيئا عظيما ... كنت أؤمن انني ، بطريقة ما ، سأنشيء لنفسي حياة حسنة ، حياة فيها خبز نظيف وسعادة .. هذا ما كنت افكر فيه وانا اجلس على الحصير تحت الخرنوبة الشامخة الملتفة التي تنتصب أمام بيتنا، كنت افكر في ذلك وانا اتأمل زاهية التي كانت تجلس مسندة ظهرها الى جذع الخرنوبة ، ـ ما الذي يمكنك ان تفكر فيه حينما تجلس تحت تلك الشجرة لتستمع الى اغنيات الريح العذبة الخافتة

وانت تتأمل زاهية ؟!.. وانت تتأمل عينيها اللتين يشرق فيهما سحر الخمائل الخضر ؟!.. من اجل زاهية كنت افكر في انني لا يمكن ان اعجز عن اي شيء ، وانه لا يوجد شيء يستطيع ان يحد من ارادتي .. وكانت هي ايضا تداعب حلمها وعلى شفتيها الطريتين بسمة مشبعة بالامل .. لم تكن زاهية تتكلم كثيرا ، ولكن قلبها كان مليئا بالكلمات ، كنت أنفذ الى قلبها ، الى احلامها وانا أصغي الى أغنية الريح التي تهمس بها أغصان الشجرة ..

« ثم .. اتى يوم رحلت فيه زاهية عن القرية .. اخذوها لرجل اخر .. ومنذ ذلك اليوم أحسست اني وحيد .. وان اجمل أيام الصبا قد ضاعت مني .. لقد التقيت بجدتك الطيبة وبدأنا حياتنا معا .. وكانت هذه المرأة تتعب طيلة يومها متحملة الشقاء بصبر وشجاعة .. ولكن ، لا البؤس ولا التعب استطاعا ان يطفئا من عينيها تلك الشعلة الرائعة من الحنان والعطف .. ما أكرم الصلب الذي انبت هذه المرأة .. ! لقد كانت لها دائما عزيمة الرجال .. ! ولكن .. كانت صعوبات حياتنا تزداد يوما عن يوم .. كان علينا ان نكافح السيول وتلك الطبيعة الجبلية المتوحشة الغاضبة ، ثم ذلك القحط الذي حل بالارض .. كان علينا ان نكدح طيلة اليوم ، ثم كان تعبنا يذهب في النهاية بلا جدوى .. كان الامر يبدو وكأن سوء حظ اعمى بدأ يطبق على حياتنا .. فقد اخذ الكرم يجف ويذوي .. وبدأت السيول تجرف التربة من بستاننا فلا تترك فيه غير الحصى والصخر .. وفي ذلك الوقت قال لنا صاحب الارض : هيا اتركوا كرمي ، واتركوا بستاني .. انتم شؤم وقد خربتم ارضي ، لا اريدكم بعد اليوم عندي .. !

« احسست حينئذ يا صغيري ، كأنما سلبت حياتي مني .. لقد ولدت في هذه الارض ، وكنت منذ صغري اعمل فيها .. كل شبر منها يحمل اثارا من يدي هاتين .. وكنا رغم كل شيء ، رغم القسوة ، قد الفنا بعضنا . لقد كانت تلك الارض تعني الكثير الكثير بالنسبة لي .. ولم يكن من العدل ان تنتزع مني بكل هذه البساطة .. لكن تلك كانت حقيقة .. وكان يتوجب علي ان اعرف هذه الحقيقة وهي ان الارض لا بد وان تنتزع منك بكل بساطة اذا لم تكن انت الا فلاحا اجيرا فيها.. وبدت الحياة لي حينئذ على غاية من القسوة .. كان كل شيء يخوننا ويتخلى عنا : الحظ ، والارض ، وصاحب الارض ... وكان الالم والغضب يعتصران قلبي .. لكنني قلت لنفسي : حسنا .. ان ارض الله واسعة ، والانسان لا يموت أبدا في الارض اذا كان يملك عزيمة صلبة .. وقال لي اخي : والان ماذا يجب ان نفعل .. ؟! قلت : يجب ان نرحل ، يقال ان في الفرات اراضي جيدة ، خصبة وواسعة .. وان الفرصة متوفرة هناك لكل انسان .. فقال اخي بتأثر بالغ : انا لن اترك هذه القرية ، لقد عشنا هنا ، وكانت لنا فيها طفولة وحياة وامال .. فكيف تريدني ان اتخلى عن كل شيء وارحل .. ؟! لا ، انا لن اذهب ، توجد هنا قطعة ارض ، وسأتفق مع المالك على زراعتها .. انها ليست جيدة ولكنها افضل من الرحيل .. فقلت له : تبا للارض هنا .. لقد خسرنا كل شيء في هذه القرية ، وسوف ارحل .. سابحث في كل الارض عن حياة جديدة .. قال : ارحل وحدك اذن ... !

« وهكذا يا بني .. بقي اخي هناك في القرية .. واتينا نحن الى هذه الارض ... ولقد مضى علينا زمان طويل ونحن نتعب هنا .. لقد تعبنا طويلا . من دون ان نظفر بشيء .. فقد كانت الارض شحيحة دائما ... ولكن ها نحن اخيرا نثبت اننا لم نخب .. لقد نجحنا ، ففي هذا الموسم المبارك سنتخلص من الفقر والديون .. نعم ايها الصغير.. لقد نجحنا اخيرا .. » .

كان الزهو والبهجة يلوحان على وجه الشيخ وهو يتكلم ، وهتف الصبي والدمع يجول في عينيه : نعم يا ابي .. لقد نجحنا اخيرا .. لقد نجحنا .. وارتعشت شفتا الصغيرتان .. كان وجه العجوز العملاق يتراءى له من خلال الدموع غارقا في نشوة عارمة .. ولاول مرة استطاع الصبي ان يرى في عينيه كل هذا البريق .. ولاول مرة ، منذ اشهر ، استطاع العملاق المتهدم ان ينهض من رقدته ، فجلس في فراشه وطاف ببصره في الكوخ . لا بد وان تكون الشمس الان جميلة ، شمس آب جميلة دائما ، ثم .. اوه ، هذه هي القبرة تشدو ، قبرة الحقل لا تغني بكل هذا الاتقان الا اذا جاءت المواسم .. اسمع يا صبي ، الا ترى كم ساحر غناء هذه القبرة .. ؟! ولكن ما هذا .. ؟! أنت تبكي يا صبي .. ! انني ارى الدمع في عينيك .. ؟! » .

وارتعش صوت الصبي ، وهتف وقد اصطنع الابتسام : « انني سعيد يا جدي .. اني سعيد .. فلدينا خير كثير ... »

وصاح الشيخ مندهشا : « ومن اجل هذا انت تبكي .. ؟! من اجل هذا تبكي كالبنيات الصغيرات السخيفات .. ! لا تكن سخيفا يا صبي! .. امسح عينيك ، هكذا .. يجب الا تبكي ابدا مثل البنيات ولا حتى اذا كنت سعيدا .. جدك لم يبك في حياته ابدا .. ارني هذه الضحكة .. نعم ، اوه ، كم انت رائع بضحكتك هذه .. سوف نشتري لك فستانا جديدا .. فستانا جديدا يا صبي .. !

فهتف محمد وعلى شفتيه ابتسامة : وبذلة يا جدي .. !

فاكد الشيخ : وسنشتري لك بذلة مثل تلك التي يلبسها الاولاد في المدن .

ـ وحذاء جديدا يا جدي .. !

ـ نعم ، وحذاء جديدا ايضا .. سنشتري لك كل ما تطلبه ، وستلبس كل هذه الثياب الجديدة الحلوة في عرس عمك ابراهيم .. ولكن .. ؟! ، راح الشيخ يصغي باهتمام ثم هتف مندهشا : « ولكن ، ما هذا .. ؟! يبدو انهم قد عادوا الى الخصام .. ؟!؟ » ثم اخذ يصغي وقد ظهرت على وجهه علائم الدهشة والاستنكار .. بينما راح الصبي يراقبه وقد ظهرت على محياه علائم القلق .

وهتف الشيخ وقد ارتعش صوته من الغضب : « اسمع .. ! هذا هو عمك ابراهيم يصيح .. ؟! لماذا لا يريد هذا الاحمق ان يكف عن الصراخ .. ؟! هذه رعونة .. ! اوه .. حقا لا يمكنني ان احتمل كل هذا الصراخ .. ؟! هل تستحق السقاية كل هذا الخصام .. ؟! ان الرجل الذي يصرخ هكذا لن يكون في الحقيقة رجلا ، وكان يجب على والدك ان يدع هذا المجنون ليقوم بعمله كما يحلو له .. ناولني هذه العصا يا صغير .. لا بد وان اخرج فورا لارى ماذا حدث لهما ... هات العصا .. » .

وظهر القلق بوضوح في عيني الصغير ثم هتف بوجل : « لا يا جدي ، لا تزعج نفسك .. ساذهب انا واقول لهما : جدي يريد منكما ان تسكتا .. اما انت يا جدي فيمكنك ان ترتاح في فراشك ، انني ذاهب يا جدي ، فلا تتعب نفسك .. »

ونظر الشيخ الى الصبي الذي وقف متأهبا للخروج ، وقال بلهجة عاتبة : « لا اتعب نفسي .. ؟! قلت لك ناولني هذه العصا وكذلك القنباز والمنديل .. وسوف ترى أن جدك ليس عاجزا .. لن احتاج الى غير هذه العصا لاتمكن من السير بكل بساطة .. واذا اقتضى الامر فسوف اعتمد قليلا على كتفك .. » .

قال الصبي برجاء حار : « لا يا جدي ، لا .. لا تخرج بحق الله! »

وصرخ الشيخ غاضبا : « قلت لك ناولني هذه العصا .. ! ماذا بك ، هيا .. ! »

وامتثل الصبي فاحضر القنباز والمنديل والعصا التي اعتاد الشيخ ان يتوكأ عليها قبل مرضه ، فدفع الشيخ الغطاء عنه وارتدى القنباز ثم لف رأسه بالمنديل .. وتنحنح ثم نظر الى الصبي فالفاه يحدق في الفراغ بنظرة ذاهلة ، فانتهره : « ما بك يا صبي .. ؟!؟ »

فاجفل محمد واستدرك : « لا شيء يا جدي ، لا شيء ... »

قال الشيخ : « هيا اذن ، لنخرج ... » ثم نهض من فراشه بصعوبة بالغة معتمدا على عصاه الضخمة ، وترنح العملاق ، وكاد يهوي لولا انه اسرع يعتمد بيده الثانية على الجدار . وانقضت لحظات كان اثناءها يقف متصلبا كتمثال خال من الحياة ، ثم اختلج وهتف بصوت عميق حار : « حمدا لك يا الهي .. » وكان محمد يقف قريبا منه ، فمد يده واعتمد على كتفه ، وحينئذ صاح بزهو وهو يخبط الارض بعصاه : « والان .. ايها الصغير .. دعنا نخرج .. » .

وسارا بخطوات بطيئة ، كان الشيخ يجر قدميه جرا متثاقلا .. وتريث لحظة على عتبة الكوخ حيث راح ينقل بصره بين السماء والحقول والنهر وقد اختلج وجهه انفعالا ، وهمس بصوت نشوان : « ما اجمل الدنيا .. ! حمدا لك يا الهي .. » كانت صفحة النهر الرمادية تتراقص متلألئة في الضياء الساطع ، وبدت له السهول اكثر رحابة .. ولكن سرعان ما لفتت نظره نبتات القطن الذابلة ، فقال بانزعاج : « هذه هي العادة ، لا يكاد الزرع ينبت قرب المساكن حتى يهمل ، فتدوسه الارجل وتتلفه الماشية ، ولا تصل اليه مياه الساقية .. كان يتوجب عليهم ان يعتنوا بهذا الزرع ... » ونظر حوله ثم اضاف متعجبا : « ولكن اين هم .. ؟!؟ ها .. ! لقد ابتعدوا قليلا ، دعنا نلحق بهم .. ولكن ، ما الذي جرى .. ؟! هناك كثير من الناس .. ! »

وابتعد قليلا عن الكوخ ، فلاحظ الشيخ مرتاعا وهو ينظر الى نبتات القطن الذابلة : « ما هذا يا ولد .. ؟ القطن يابس كله في هذه القطعة .. ! هذا اهمال ، اهمال بشع .. ! سيضيع قسم كبير من المحصول .. ! » .

ثم توقف لحظة وراح ينقل بصره بين جنبات الحقل ، كان القطن كله جافا ، ميتا .. ولم يقل الشيخ شيئا ، وانما سار صامتا وكانت خطواته في هذه المرة اسرع واقوى ، واخيرا توقف امام الجمع . كان هناك ولداه وصاحب الارض وغرباء في ثياب رسمية نظيفة ، وفلاحون من الجوار .. بينما وقفت النساء على مقربة من الجمع يراقبن ما يحدث .. كانوا جميعا ينظرون الى الشيخ صامتين وقد ارتسم القلق في عيونهم .. لكن الشيخ لم يكن يعبأ بهم ، فقد راح يتأمل الحقل الذابل بنظرة مفعمة بالغضب واليأس .. ثم التفت الى الجمع وراح يتأملهم واحدا واحدا بتحد وتصميم .. واخيرا سأل بصوت ترن فيه القسوة : « من الذي فعل بنا ذلك .. ؟! » .

ولم يجب احد منهم . فقد اخذوا يتبادلون نظرات تنم عن التوجس والقلق .. واقترب من ولده البكر مصطفى وقال وهو يتأمله بنظرة صارمة : « لقد سألت : من فعل بنا ذلك .. ! » ولم يجب مصطفى ، وعاد الشيخ يسأل ، وقد غدا صوته هادئا عميق النبرة : « هل يمكن ان تكون انت .. ! لكن .. لا ، لا يا ولدي .. لا يمكن ان تكون انت قد قصدت ان توقع بنا كل هذا الخراب .. ! » وارتعش الصوت : « لقد كنت دائما ولدي العاقل . ولدي الحكيم » وراح ينظر الى ابراهيم : « ولا انت ايضا ايها الاحمق .. انك اكثر طيبة وبراءة من ان تجر كل هذا الدمار على نفسك .. ! »

وراح ينظر الى الارض بانكسار ثم همس بصوت مضعضع : «كيف امكن ان يحدث كل هذا ، بحق الله كيف امكن .. ؟! لقد كانوا يقولون لي ان كل شيء في غاية الجودة ... ! »

وارتفع صوت مصطفى الهادىء : « لم ترو الارض يا ابي ، منذ اكثر من شهر لم نرو ... »

وانفجر صوت ابراهيم الغاضب فقال مشيرا الى مالك الارض : « كان يتوجب على هذا الرجل ان يصلح المحركات .. قلنا له مرارا : ان القطن يحتاج الى السقاية .. لكنه لم يكن يهتم بذلك .. يجب ان يدفع لنا تعويضا عن الاضرار ... »

وقسا صوت الشيخ : « تعويضا عن الاضرار ..! وما فائدة ذلك ؟! .. تريد تعويضا عن الامال التي حملتها في قلبك كل هذه السنين ..! ايها الاحمق .. ! »

واتجه الى مالك الارض فتأمله بقسوة وصرامة ثم قال بصوت مليء بالكراهية : « اذن .. انت الذي جلبت لنا كل هذا الدمار .. ! انظر . كل هؤلاء كانوا يخدمونك بعرقهم ودمائهم .. كانوا يعطونك قلوبهم .. فما الذي فعلناه من سوء حتى تخوننا .. ؟! لقد دمرتنا .. واني امقتك من كل قلبي .. اني اكرهك .. !

وقاطعه موظف برزانة : « مثل هذا الكلام لا يجوز يا سيد .. لا يجوز النطق بكلام كهذا امامنا .. نحن موظفون يا سيد .. ! »

وتأمله العجوز ببرود وقال : «انا لا يهمني من تكونوا يا سيدي..!»

ثم التفت الى مصطفى وسأله معاتبا : « لماذا لم تخبروني .. ؟! »

ونظر مصطفى اليه بحيرة : « يا والدي ... ! »

وتأمل ولده لحظة ، ثم راح يحدق في الارض بمرارة وانكسار .. وارتعش الجسد العملاق وهوى ممددا على الارض كجذع سنديانة ضخمة. كانت عيناه مغمضتين وصدره يختلج ، واكب الجمع عليه فهمس مشيرا اليهم : « ابتعدوا .. ! » ثم اشار الى محمد هامسا بعذوبة : « تعال يا ولدي .. »

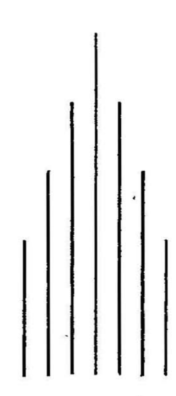
واحتضن محمد الرأس المتغضن المتعب بحرارة ثم اراحه على ركبته .. وهمس الشيخ برقة وعذوبة : « انا انتهيت يا محمد .. » واضاف بحسرة : « لقد انتهيت .. ! » ورفع يده الى الوجه الصغير ليمر باصابعه المرتعشة على الجبين الغض .. وهمس بحرارة : « لقد انتهيت انا يا ابني .. لقد حلمت باشياء كثيرة ، باشياء حلوة وعظيمة .. وقد تعبت كثيرا .. وقد جاء دورك انت .. انت ابني وفي عينيك الصافيتين ارى كل احلامي .. يجب عليك ان تحفظ كل ما قلته لك في قلبك وان تذكره .. لانني ساحيا في قلبك كلما تلألأت الاحلام في عينيك ..

وارتعش الصوت العذب ثم تلاشى .. وانهارت اليد العملاقة .. واكب الصبي على عنق جده ينشج بمرارة ..

سامي عطفه

الخراتيت والكلمات

وحبلنا نحن رجال القرن العشرين
ذات مساء نحن حبلنا بالكلمات
نمنا مع غول المعنى عانق منا الطين
نسى الشيء الازرق فينا والنسمات
ثم ولدناها بعد الحمل بلحظات
ولهذا نحن ولدنا الكلمات مشوهة الاحرف
ليس لها ارجل
ولدت ميتة ، بل كانت ميتة في الجوف
آه لو كنا في الحمل نساء !
كان اكتمل لها التكوين
كانت ولدت في لون الفل
كانت ولدت ذات رواء واخضر لها في الوجه عيون
لكن ولدت في لون الخوف
نحن ولدناها في السر
ولففناها في الف غطاء
لم نفرح ساعة مولدها
يا ليت دفناها في الصدر !
وخنقنا نبضا في يدها !
.. لكن غول المعنى
ظل هنا معنا
حتى انجبناها في ليل ليس له نجم
وكما عيسى في المهد تكلم
لم تمض سوى لحظات بعد ولادتها الا وتحرك فيها الفم
فأشارت للشمس وقالت : هذا قرص الارض
واشارت للموتى في التابوت وقالت : ما احلى ما فيهم
من نبض !



واشارت للخنزير وقالت : ما اجمله من عصفور !
واشارت لليل وقالت : هذا روح النور
واشارت للرجل الطاووس وقالت : هذا انسان متواضع
واشارت لمحب في جنبيه مواجع :
هذا انسان مسعد
واشارت للمحتال وقالت : يا شيخ المسجد !
واشارت للفحم الاسود قالت: هذا نجم للارض يضيء
واشارت للقاتل قالت : هذا انسان في الارض بريء
ثم اشارت للرجل الثرثار الاجوف
من يسكب في الكلمات رحيق الزيف
قالت : انت حبيبي
ثم تجيء لتستلقي بجوار رجال القرن العشرين
لتمص الثدى بهم تأخذ بعض حليب
حتى تعطى للاحرف فيها بعض رنين
وتنام الكلمات هنا بجوار الناس بريئه
فهنيئا يا أهل القرن العشرين هنيئا
ان لنا طفلا ملعونا
فلماذا لم يمش الواحد منا مجنونا ؟!
ولماذا لم نكسر عنق الكلمات ؟!
ولماذا لم نجهضها قبل تعيث هنا في الارض فسادا ؟!
فيخيم صمت وردى يعطى للناس رمادا !!
اترى الكلمات وقد راحت في الفرش تبيت
قد سرقت منا الشيء الازرق والنسمات
أم انا كنا قبل مجيء الكلمات خراتيت !!

القاهرة — **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

محاولة للتعريف بمسرح « فريش »

بقلم الدكتور يسري خميس

تمثل ظاهرة « فريش - ديرنمات » مسرح الطليعة السويسري المعاصر المكتوب باللغة الالمانية ، بل ان هذه الظاهرة تعتبر تجسيما للثقافة السويسرية في هذه الفترة .

وكما يرى الناقد ايسلن فان ظاهرة « فريش - ديرنمات » تعبر عن روح العصر عامة وعن الموقف الحضاري للقرن العشرين ، بل انها النموذج المثالي « لمسرح المستقبل المتحرر » الذي يتنبأ به ايسلن ، في محاولة التقاء خطى الدراما المعاصرة ، دراما بريخت الملحمية ودراما العبث ، رغم تناقضهما الظاهري في فهم الواقع وتفسيره ، وانه يرى في هذه المحاولة امكانية جديدة ومثيرة لدراما طليعية . وحيث اننا تعرفنا في الفترة الماضية على ملامح مسرح ديرنمات من خلال اعماله المسرحية التي ترجمت الى العربية ، فانه يجب علينا اذن ان نعرف الوجه الاخر لهذه الظاهرة ، ونفتح نصف النافذة على مسرح ماكس فريش Max Frisch . وعند محاولتنا لتفهم هذه الظاهرة لا يمكننا باي حال فصلها عن ازمة الدراما الالمانية بشكل خاص وازمة الدراما عموما في هذه الفترة ، كذلك عن ارضيتها التاريخية .

وكما يؤكد الناقد البروفسور مارتيني ، فان مشكلة الدراما الالمانية ليست مشكلة مؤلفين على اية حال ، لكنها مشكلة الدراما نفسها وازمات تغيرها الشكلية . وانه قد اصبح من الصعب عرض العالم المعاصر على المسرح - وكما قال بريخت بالتحديد عندما سئل عن مدى امكانية عرض عالمنا المعاصر على المسرح انه يمكن عرضه فقط كشيء متغير . وليس هناك شك في ان نظرية بريخت الملحمية التي تعتبر الشكل الملحمي هو الشكل الوحيد الملائم للدراما المعاصرة الذي يمكنه ان يحتوي الوجود البشري كله كجوهر لجميع العلاقات الاجتماعية ، والذي يخدم الدراما كنسيج لصورة العالم العامة - ليس هناك شك ان هذه النظرية - رغم تطرفها - احدثت ثورة في الدراما العالمية المعاصرة ضد الشكل الارسطي ، نرى اثرها حتى الان في المسرح الحديث . بل ان هذا الخط يكون اتجاها اساسيا للدراما المعاصرة وينعكس انعكاسا واضحا في مسرح ديرنمات وفي مسرح ماكس فريش الذي كان صديقا شخصيا لبريخت اثناء فترة اقامته بسويسرة ، حتى ان الناقد بينتسجر Bänziger يعتبر بريخت ابا فريش ومعلمه .

وكنتيجة طبيعية للهزة التي احدثتها نظرية المسرح الملحمي ، تحتم على الكتاب الشبان اعادة النظر في مفاهيم المسرح ، الشيء الذي تمخض عنه ظهور اشكال درامية جديدة . فقد كانت الدراما الكلاسيكية تدور حول الانسان كفرد ، متعرضة له في انتصاراته ومأساته وصراعاته المختلفة ، وكان النسيج الدرامي يتكون من العلاقة الدينامية بين مجموعة من الافراد ، الشيء الذي نفتقده كثيرا في الدراما الحديثة باشكالها المختلفة . فالتفكير والاحساس البشري وحدهما لا يعكسان على المسرح حقيقة الوجود البشري ، بل انه من خلال علاقة الاشياء المعزولة عن بعضها ، تتضح لنا حقائق اخرى . مما جعل الدراما المعاصرة تتخذ شكل المواقف المتراكمة المذكورة التي تنمو في خط افقي ، ملقية الضوء على تناقضات العصر الصلبة . هذه التناقضات التي تكمن في القسوة التي يحركها الفزع وفي الغرابة والقهقهات التي تثيرها - الشيء المفزع يصير مضحكا والشيء المضحك يصير مفزعا - دورة بلا مخرج تكون ملامح التراجيكوميديا العصرية ، وهو الشكل الملائم لعرض تناقض وجود الانسان البائس المضحك .

اما بخصوص الفترة التاريخية التي عاشها فريش ، فقد احرقت الحرب العالمية الثانية كل ما هو طيب وانساني ، وتوقف المسرح الالماني عن التطور كلية نتيجة لتحطم المسارح في المانيا الهتلرية وهروب الكتاب مثل برتولت بريخت وكارل تسوكماير Karl Zuckmayer خارج المانيا . في هذه الفترة المظلمة بالنسبة للدراما الالمانية ، كانت هناك امكانية وحيدة للتنفس على مسرح زيوريخ بسويسرة المحايدة ، هناك عرضت اهم مسرحيات بريخت للمرة الاولى . فرغم فترة الركود النسبية في المسرح السويسري قبل الحرب ، فقد قامت زيوريخ بدور قيادي في تقديم اعمال بريخت ووايلد وكايزر . وكما تقول الناقدة بروك زولتسر ، انه بدون شك لم يكن في تاريخ المسرح السويسري الحماس لولادة شيء جديد مثلما كان في ذلك الوقت ابان الحرب العالمية الثانية .

فكما نرى - رغم حياد سويسرة السياسي في ذلك الحين - فقد عبر المسرح عن التيار الانساني الثوري المعاصر .

وهنا يتساءل بينتسجر : هل هي مجرد مصادفة ، ان يكون في سويسرة المحايدة هذا العدد من المتمردين ؟

ان حياد سويسرة السياسي يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للمثقفين، فهذا الحياد لا يهيىء للكاتب المناخ السليم للتنفس بحرية - كما يظن البعض ، فان اسوأ ما يمكن ان يواجه كاتبا ما لامبالاة العالم الخارجي، الشيء الذي يعمق احساسه بالانفصال عنه ويزيد الهوة اتساعا بينهما. ولكن هذه اللامبالاة تجعل من الكاتب في نفس الوقت - غالبا انسانا متمردا - مما دفع فريش لان يقف موقف اللامنتمي Outsider وان يسمي نفسه « المهاجر » ومما جعله يقول « احب ان اكونسويسريا، في الوقت الذي تراني فيه عيون الاخرين كسويسري رديء » ، وان سويسرة بالنسبة له مجرد مكان هادىء للعمل ، فهي ليست بعالمه الخارجي الوحيد لحسن الحظ - بل ان فريش يحاول ان يستفيد من هذا الانفصام مؤكداً ان العالم الخارجي كعدو يزيد من حدة اسلحة السخرية ، مما جعل بعض النقاد يطلقون عليه لقب «هاملت السويسري» الذي يعتبر كل بلد يعيش فيه سجنا بالنسبة له .

لم يلق هذا الانفصال بفريش في هوة اتجاه العبث - رغم اكتشافه لتناقضات عالمنا المضحكة ، فهو يؤكد : « نحن نمتلك ما لم تمتلكه البلدان المشتركة في الحرب ، الا وهي النظرة ذات الحدين . فالمحارب يمكنه فقط ان يرى المنظر طالما هو مشترك فيه ، اما المتفرج فهو يظل يرى المنظر . » فحين تعرض لمشكلة الحرب في مسرحيته الاولى « الان يعودون للغناء » Nun singen sie wieder » المكتوبة عام ١٩٤٥ - لم يحك لنا اهوال الحرب الهتلرية لكنه حاول فيها - كما يقول - ان يصلي على ارواح الموتى ، وكما سماها بنفسه « محاولة لاقامة قداس » . فالطيارون السبعة ليسوا في صراع حربي ، لكنهم اشكال غافلة للقدر الاعمى . الانسان في مواجهة القوة الغاشمةوالموت، حيث يقول القس لجندي قرر الهرب نتيجة عدم اقتناعه بامر منرئيسه لقتل ذلك القس : « مكاني هنا . لن ابلغ عنك . هربك لن ينقذني ، كذلك لن ينقذك . كل طريق تسلكه على الارض يقودك الى هنا . » وحيث يصرخ في مسرحية « الكونت اودرلاند Graf Oderland » المكتوبة عام ١٩٥١ - بعد ان فقد ايمانه بكل شيء امام بطش القوة :

ـ في عالم بلا اله ، يمثل القوة كل شيء . لكنها ليست بحل ، فهي تقود الى العدم .

وفي الوقت الذي يصر فيه ماكس فريش على اهميةان يكون الكاتب محايدا من الوجهة السياسية ، حتى يتسنى له دائما عرض الانسان بنقاوة وبلا تحيز ، يؤكد ان الكاتب الذي لا يهتم بالسياسة انما يخدم الحزب الحاكم ولا شك في موقفه هذا ، وان على الكاتب تحليل الايديولوجيات المختلفة ، وان السياسة لا يصح عزلها عن الثقافة باي حال . فلا يمكن ان يقال : هذا شعب ذو ثقافة عالية لمجرد امتلاكه سيمفونيات او اشعارا عظيمة ، فمن خبرات جيلنا القاطعة في القرن العشرين ، اتضح أنه في امكان بعض البشر الذين يفهمون باخ وموتسارت ويقرأون جيته وشيللر وشيكسبير ان يكونوا جزارين في نفس الوقت . هذا الثنائي المتناقض داخل الانسان حيث يقول فريش على لسان احد شخصياته في مسرحية « الان يعودون للغناء » :

« ـ لقد عرفت انسانا ، كان يمكنه ان يعزف مثل هذه الموسيقى ببراعة . كان ذلك قبل الحرب ، قبل ان نصبح اعداء . كنا نعتبر نفسينا صديقين . كان يتكلم عن مثل هذه الموسيقى حتى يبهر الجميع ، بذكاء ، واصالة ، باحساس داخلي عميق ، هل تفهم ؟ باحساس داخلي عميق . ومع ذلك فهو نفس الانسان الذي قتل بالرصاص مئات من العجائز وحرق النساء والاطفال ـ بنفس الاحساس كما يلعب على آلة الشيللو الموسيقية ، بنفس الاحساس الداخلي العميق ، هل تفهم ؟ احساس داخلي عميق . »

هذا النوع من الثقافة هو ما يعرف بالثقافة الجمالية . فهي قادرة على الفصل التام بين الثقافة والسياسة ، بين القراءة والحياة ، بين الكونسرت والشارع . والثقافة بهذا المعنى ما هي الا اصنام نكتفي بانتاجنا الفني والعلمي ونلعق في الخفاء دم اخوتنا البشر . لقد اتخذت الثقافة في عصرنا شكل الشيزوفرنيا الاخلاقية . ولكن الثقافة في المقام الاول هي الانتاج البشري الجماعي ، وليس عملا فنيا او علميا عظيما لفرد من الافراد . وهكذا نرى مدى ايجابية وثورية فريش في فهمه الانساني لدور الثقافة وارتباطها بالمسئولية تجاه المجتمع والانسان ككل ـ فنرى فريش يحاكم المثقفين في مسرحية « الحائط الصيني Die Chinesische Mauer » ويحملهم مسئولية وجود هذه الفوضى في عالمنا المعاصر ـ « فالذي يعرف الحقيقة يجب عليه ان يقولها » .

الانا في مسرح فريش :

الاهتمام بالانا او بالذات ظاهرة متكررة في المسرح المعاصر بشكل عام . الاهتمام بها من الداخل ، وتوجيه عدسة كاميرا الفنان الى اللاشعور والحلم والذكريات ، مما ادى لاستعمال المونولوج الداخلي استعمالا رئيسيا الشيء الذي حول الدرما الى مونودراما Monodrama وفي مسرح فريش ، تتضح هذه الظاهرة وضوحا خاصا في مسرحيتي « الكونت أودرلاند » و « دون جوان » ، حيث يصل الى اعماق لاشعور كل منهما مواجها تفسخ ذاته وانفصامها ، واغترابه عنها حتى يصل الى نقطة تفقد فيها « الانا » نفسها كلية . ويعتقد الناقد مارتيني أن هناك دائرة يدور فيها فريش ، دائرة تعكس كل ملامح ظاهرة الانفصام النفسي هذه ، تلك الدائرة هي : « ان الحياة طيف ، بطيء الفهم ـ تكرار هي الحياة . وحينا يخترق الانسان الجدران ، تحل اللعنة ، تكون النهاية ، حيث لا تفيد اية فأس . تكرار ! حتى يستيقظ الانسان على موته ، كما لو ان كل ذلك لم يحدث قط ! مطلقا . ليست كرغبة تتوهج وتظهر ثم تنطفىء ثانية . رغبة في السعادة والحظ . هناك خطأ ، قلق ، عتمة » . دائرة لا مركز لها ، اعطى فيها للموت معنى اعادة تنظيم العالم . وبالنسبة لماكس فريش فان جذور هذا الانفصام مثبتة في ارضية عصرنا المتفككة ، التي يزداد تفككها في عالم فريش الخارجي المحايد اللامبالي . عالم فريش الذي يكون فيه موت الانسان الفرد شيئا ثانويا ، حيث يخبر الضابط مدرسه في مسرحية « الان يعودون للغناء » بعد ان امر برميه



ماكس فريش

***

بالرصاص : ـ « فلتعلم ، انه في نفس اللحظة التي سوف يطلق فيها عليك الرصاص ، يحرث الفلاحون الارض ، وتغني الطيور ، ويأكل الجنود . رجل هام يتكلم في الاذاعة . اما انا فسوف ادخن سيجارة ، اخر يجلس تحت الشمس ويصطاد السمك . الفتيات ترقص ، اخريات يشنفلن التريكو ، او يغسلن الاواني . الفراشات تحوم على الاعشاب . القطار يستمر في السير دون اي تاخير . اخرون يستمعون الى كونسرت ، يصفقون تصفيقا حادا . موتك يا سيدي المدرس شيء ثانوي ، لا يلاحظه انسان على حقيقته . سوف اريك ما لم تدلنا عليه قط : الحقيقة ، الفراغ ، العدم . » ثم يطلق عليه الرصاص . فعدم امكانية الاتصال مع العالم الخارجي التي تتردد بوضوح في ثنايا هذا الحوار التالي في نفس المسرحية السابقة :

ـ اتريد ان تقول انك لا تعرف المسافة حتى القرية التالية ؟ حتى اول انسان يعيش ؟

ـ لا اعرف ذلك .

ـ اخبرني . كيف يمكنك تحمل ذلك ؟

ـ مكاني هنا .

ـ ايمكنك تحمل ذلك ؟

ـ يجب على الانسان ان يتعلم ذلك يا صديقي الصغير . ليس بالصعب ان يعلم الانسان انه لن يصل قط الى القرية التالية .

ـ قط ؟

ـ مكاني هنا .

هذا الانفصال التام عن العالم الخارجي تعمقه وتزيده حدةمشكلة فريش الخاصة وفشله في الزواج ـ حيث تزوج عام ١٩٤٢ في الثلاثين

من عمره ، وهو يعيش وحيدا منذ عام ١٩٥٣ ، منفصلا عن زوجته واطفاله ، بعيدا عن مهنته الرسمية وهي الهندسة المعمارية . هذه الظروف تحدد خطوطا اساسية من ملامح ظاهرة الانفصام النفسي التي يعيشها الفنان فريش .

فالمشكلة في جوهرها هي ازمة الفرد المنفصل ، الذي لا صدى له، والذي يتكلم ((كما لو انه يتكلم خلال قطن)) والذي يكون له العالم الخارجي بمثابة عدو ، لان هذا العالم قد اصدر حكما مسبقا بجعلهذا الفرد صورة معينة . وهنا يصرخ ماكس فريش بصوت عال أنه ((يجب الا يكون لك صور جاهزة)) ، هذه الصرخات الحادة الغضبى التي نسمعها في مسرحية ((عندما انتهت الحرب

« Als der Krieg zu Ende War

التي كتبت عام ١٩٤٩ وفي مسرحية ((اندورا Andorra)) ١٩٥٩ . نفي المسرحية الاولى حيث تغري آجنس الالمانية الجندي الروسي ايفانوف كي تتمكن من انقاذ زوجها الاسير . ويتمخض هذا الموقف الجبري عن علاقة حب حقيقية - عن اتصال حقيقي . وان فريش يعرض هذه المرأة كبطلة ، ليس لتحطيمها مثلا اخلافية تقليدية ، ولكن لمحاولتها الخروج عن الاطار العام ومحاولتها البحث عن الانسان داخل الانسان الروسي بعكس فكرة المجتمع الاوروبي الغربي العامة في هذه الفترة بعد الحرب التي تقف ضد كل ما هو روسي في هذا العالم . هذه المرأة الالمانية التي اعطت نفسها للعدو - بمنطق العالم الخارجي - تمثل اخلاقية جديدة رغم عدم نقاوة موقفها من الناحية الاخلاقية التقليدية . لقد حطم فريش الصور الجاهزة من خلال علاقة الحب . الحب الذي جعل ((دون جوان)) يرفض الارتباط بامرأة واحدة ويهرب من حفل زفافه حين يطلب منه القس الا يكون في حياته حب غير ذلك الحب مع امرأة واحدة . هذه الثقة في الحب كامكانية اتصال حقيقي نسمعها على لسان القس في مسرحية ((الان يعودون للغناء)) :

- لا تحزن يا سيدي الرئيس . سوف نخبز خبزا كثيرا . كل شيء بلا سبب . الموت . الحياة . النجوم في السماء ايضا بلا سبب . هل هناك احتمال اخر ؟

- والحب ؟

- الحب جميل .

- اخبرني ايها الاب ، هل الحب أيضا بلا سبب ؟

- الحب جميل يا صغيري . الحب قبل كل شيء . الحب وحده يعرف انه بلا سبب . الحب وحده لا يشك .

وبكل تأكيد ، فان العلاقة الزوجية ليست كل شيء بالنسبة لماكس فريش ، لكن هذه العلاقة تمثل بالنسبة له وسطا مفقودا خاصا، ينعكس بوضوح في مسرحه وفي قصصه التي تتعرض لمشكلة الحب والمرأة . فالمرأة بالنسبة لدون جوان في مسرحية ((دون جوان)) ليست بدليل على اكتماله ، بل على العكس شاهدة على عدم اكتماله ، ومع ذلك فهو يريد دائما ان ينقذ نفسه من خلالها . وبعد فشله المتكرر في محاولات اتصال حقيقي يهرب في مجردات علم الهندسة المحددة.

فالانفصام الداخلي واضح كل الوضوح في شخصية دون جوان التي تبحث دائما عن الحب فاذا ما وجدته وواجهته مباشرة تتعرف من خلاله على انفصام ذاتها ، فتتركه وتهرب . وقد أكد الفيلسوف كيركيجارد ان ((بين كل مائة شاب يصيبهم الجنون في هذا العالم - يمكن شفاء تسعة وتسعين عن طريق المرأة . والواحد من فضل الله)). ويعتقد الناقد بيننسجر ان فريش من هؤلاء التسعة وتسعين بكل ما في قلبه من قلق واشتياق للجنس الاخر .

تكنيك مسرح فريش :

ليس هناك خصائص مميزة لطريقة ماكس فريش في الكتابة المسرحية ولكنه يمكن القول بانه قد تمثل الكثير من خبرات التراث المسرحي التقليدي والمعاصر المتعددة متأثرا لحد كبير بمسرح بريخت الملحمي مستخدما بشكل خاص طريقة التوليف او المونتاج ، مازجا جزئيات الواقع الخارجي مع جزئيات الواقع النفسي للشخصيات ، محطما وحدة الزمن وجسور الماضي والحاضر والمستقبل وعالم الحقيقة والحلم .

اما بخصوص الشخصية فانه يعكس الدراما التقليدية حيث تعتمد على كونها شخصية مميزة لها ابعادها المختلفة ، نجد شخصيات فريش ((شخصيات موضوعية)) اشبه بالعرائس التي تمثل افكارا معينة ، وحيث يمسك الكاتب بخيوطها في يده ويحركها كيفما شاء . ففي مسرحية ((بيدرمان ومشعلي النيران

Biedermann und die Brandstifter

المكتوبة عام ١٩٥٨ يضع فريش شخصية بيدرمان رمز المواطن البورجوازي المعاصر بكل غبائه ، الذي لا قلب له ، فهو يراقب العالم من خلال نظرته النفعية - هذه النظرة التي تودي به الى الهاوية والتي تفقده عواطفه ومرحه وذكائه وتجعله يعطي الكبريت بيديه للاخرين كي يشعلوا النار في منزله وفي المدينة - مقابل شخصيتي المصارعوالسجين العاطلين (الطبقة العاملة) . ومن خلال هذا التقابل يسخر فريش من الطبقة البورجوازية ويقف جوار الطبقة العاملة ، ويأمر الشبح بانهاء نار الاخرة وغلقها قائلا :

((لا اريد ان ازج بهؤلاء الناس الطيبين الى النار ، الناس الطيبين ، المثقفين ، النشالين ، الذين خانوا زوجاتهم او ازواجهن ، الخادمات اللاتي سرقن جوارب النايلون . انا لا افكر في ذلك قط .))

ويأمر رجال المطافيء - الذين استعملهم فريس في هذه المسرحية ككورس - ان يطفئوا نار الاخرة . فكل شخصية هنا رمز لطبقتها الاجتماعية ، والشخصيات لا تنمو او تتطور بالشكل التقليدي ، لكنها تتطور وتنمو في خط مستقيم ، وتتكشف لنا بالتدريج من خلال الاحداث . ويحدد ماكس فريش مشكلة المسرح بشكل قاطع بالتفسير التالي : ((هل هناك علاقة بين ما اراه وبين ما اسمعه ؟ اذا لم توجد هذه العلاقة ، واذا احتوت الكلمات على كل شيء حتى صار في الامكان ان اغلق عيني واسمع - الشيء الذي لا يجب حدوثه في المسرح - معنى ذلك ان ما اراه على المسرح ليس بموقف مسرحي ولكنه مجرد مشهد عابر ، مجرد مقابلة كلامية لا تعني شيئا . فعلى خشبة المسرح يقف انسان ، بجسمه وملابسه ، تحيط به اشياء ، اشياء واضحة محددة محسوسة ، لا وجود لها اثناء عملية القراءة . زيادة على ذلك هناك ((اللغة)) ، فانا لا اسمع فقط ذبذبات ذات معان حسية، لكن اسمع لغة ، اسمع ما يقوله هذا الانسان ، وهذا يعني ان هناك صورة اخرى ، صورة من نوع اخر . فانا استقبل صورة لغوية زيادة على الصورة اللفظية ، صورة اكونها ليس من خلال اعتقادي بصحتها فقط ، لكن من خلال تخيلي ، خلال وهم ، خلال تصور تثيره الكلمة . فانا اعيش هذين الشيئين في نفس الوقت : الحقيقة والوهم . تأثرهما ببعضهما ، علاقتهما ، مجال التوتر بينهما - هذا هو ما يجب ان يسمى بالمسرحي .)) .

القاهرة **يسري خميس**

الشوق العائد

« عندما قلت لها سنعود مع
ريح الغضب .. تساءلت احقا
تعودون ؟ وخيم صمت متفتح »

عندما القاك في الدار سأبكي
سوف تهتز بعيني الدموع
سأرى وجهك وجهين وعينيك عيون
وسأنسى علقم الشجو واصداء الحنين
واواري في دمي نار عذابي
الندى عائق بابي
وانطفت لهفة روحي واشتياقي
يا شبابي

عد الى قلبي يا لون شبابي
طرز العشب الروابي
ونأت ريح الاسى المر واطياف السراب
وغدا البيت باحداقي جنه
واستعاد الوتر المبحوح لحنه
النهار البض انغام .. وحنه
يتهادى فوق داري

***

عندما تأتي
سأروي قصة العودة للعذراء في ضوء الشموع
سوف اجثو بخشوع
بيدي يورق نذري
ورخام الهيكل الخمري دفء تحت ثغري
صامت يشرب شلال صلاتي
يتلقى امنياتي
في ثنايا صدره المذبوح يطوى ذكرياتي
ويوارى صيحة اللقيا ...
ولكن

فرحتي تفضح سري
نجمة في ليل ذعر
تتغنى فوق داري

***

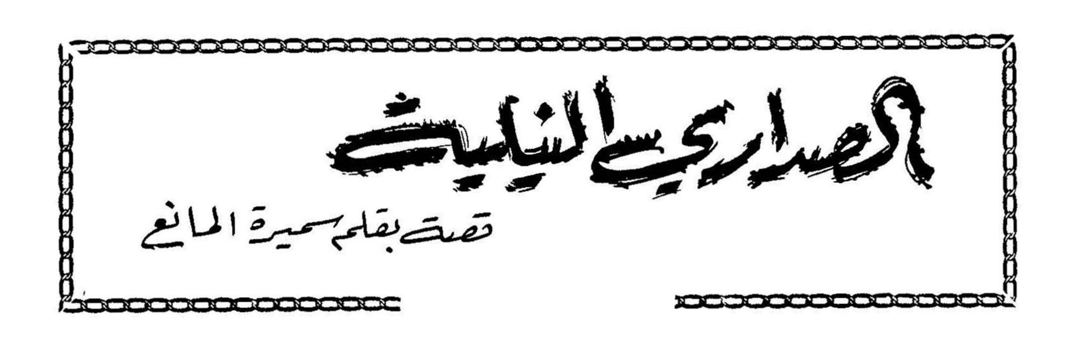
وستأتيك احاديث الصغار
كلمات من سنى الفجر ... تراتيل كناري
نفحات تملأ القلب .. عناقيد محار
ومواويل تدلى الشهد منها
أغرقت وجه النهار
لونت أفق اصطباري
حملت للناس جرح الانتظار
وزعيق الريح في صمت القفار
طاردت ظلم الشياطين
وغنت ... فوق داري

***

هل ستأتى
أمل ناء .. نداء دون صوت
نجمة عمياء لا تعرف بيتي
أتراها تمتطي الريح .. تشق السحب السود
وتأتى
وتجافيني ليالي الرعب والصمت الحزين
وتباريح البعاد الفظ ... والدمع السخين
ومزامير شجوني
يا عيوني ...
ايراني وجهك الاسمر .. يأوى
رأس المتعب في دفء الضلوع
وتناجيني ... تصب الهمس في قلبي
اشواقا ... ورعشات تضوع
وارى لون الربيع
عبر عينيك .. وفي كفيك
اشذاء الربيع
وجناحاي يحومان على ارواحك الخضر
وانفاسي جوع
يشتهي كل الذي تهواه
يا لحن الرجوع

بغداد

الفريد سمعان



كحاجبين رفعا استغرابا ، قيدت هذه العبارة بين قوسين تقول : (اليس عجيبا ان نكون ببلدة كلانا بها عاشق ولا نتكلم) ! لقد وضعت الجملة في صدر الورقة الزرقاء مرسومة بعناية ودقة لتكون واضحة ساعة فتح درج مقعدها . ومن دون اهداء او توقيع ، مقصودة لمن كتبت اليه نشبت الكلمات بعيون (سعاد) وهي تفتح الدرج كي تخرج كتاب الجغرافيا . وثبت المعاني بجسارة كبيرة ، محملة باعمق الابار خزنا واشدها خطرا ، وقبل ان تنصهر عيناها كليا ، خنقت الورقة بقوة فتدعبلت مجموعة من التجعدات في زاوية المقعد متحاشية كتبها وعلبة الاقلام .

من بين رزمة الكتب اخرجت كتابا ، عكازا يخفي عثرات يديها المرتبكتين . وانحنت عليه مفروسة في صفحة منه . وهي لا زالت تتسمع نبضات انسان حي دفنته اللحظة في فعر المقعد الخشبي ، وكأن جميع من في الفصل شهود يلهثون لرؤينه ، فتسري رائحة البرد باطراف ثيابها حتى تبدو عارية . بينما ظلت المعلمة تروح وتجيء متخطية اياها قارعة الاسنان .

ما كانت تجرؤ على الالتفات ، نملة في لب الشتاء ، متصورة عيون الطالبات المفتوحة اصابع وافواههن خراطيم ثلج ، ودوائر كبيرة وكبيرة تتسرب من غطاء المقعد ، ومن فم تلك الورقة الجعداء لتقول حتى تصم الاذان ، وظلت كلمة (عاشق) تبقع المكان كلوثة دم ملتصقة بظهر ثوبها المدرسي تزداد اتساعا وبشاعة بالدقائق والحركات .

قرع الجرس منقطا انفاسها انقاطا ، فهبت الطالبات كتلة من الهائجات يرفعن ويطبقن كتبهن بهوس استقلال لهو حسبن له الحساب، وهن تصغر في مقعدها وتصغر حتى الافلات . كان جمعهن ينهمر في الساحة تاركا الصفوف في مدى دقائق ، محدثا جلبة وضوضاء تكفي وحدها لالاف الفضائح والحكايات مغذية اسوأ ما في اذهانهن الان .

ليتها كانت نجلاء او سهام لعرفت كل شيء عنها . فلن تجد زيا لها ما لم تكن واحدة منهن ، وكل واحدة مصممة وعارضة لزي شنيعتها الساعة، وستدرك بطبيعة الامور من وضع تلك الورقة في المقعد ، بطافة وشاية، وهم صبية ذات اسرار . ولن تنتظر طويلا ، كي تلم بكل هذه الشؤون، فستأنيها الانباء بسخاء من واحدة منهن او من اثنتين او ثلاث . حتى صبيحة تلك العجفاء الصامتة ربما وصلها الخبر الان وهي في الساحة ستقول لها نجلاء ضاحكة : صبيحة اشاهدت سعاد اليوم؟! فتجنها سهام من طرف ردنها ناصحة : دعينا منها ، سعاد في عالم ثان ! سوف تركض خلفهما صبيحة : تعالا ، ما الخبر ؟! فتقصان عليها الحكاية من الاول.. نعم انهما يلتقيان ، كانا في نفس السينما قبل اسبوع ، شاهدتهما عواطف .. طويل ، وشعره اسود ...

منَ خلال خيوط العنكبوت ، كانت تسمع حوارهن ، وثغرات الصمت وترى وجه صبيحة الاملح ينفتح قليلا وهي تسمع الحكاية، ثم تظهر اسنانها الناشفة بضحكة ترتد بّها للخلف وكأنها الملاك الذي يرى الشيطان . لم تفلت واحدة منهن ، كلهن مشبوهات ، ولم تصطد ولا واحدة ، وظلت تسمع القهقهات تأتي من الساحة ثم تسمع الزعيق والعواء.

فتحت درج المقعد متلصصة ، وتشبثت بالورقة كرة اخرى ، وبحذر من ان تراها احداهن فكت تجعداتها فانبطحت العبارة وقد فكت شدقيها بكل وقاحة لتضع قاموسا مختصرا للفضيحة . كان صمت الفصل وصفوف مقاعده المتضايقة هدوء محكمة فضت قبل نطق الحكم . ولا زالت اصداء الكبرياء والشرف والرهبة مترددة مع اصوات الجبن والضعة والاهانات ، وكانت سعاد كلهن جميعا ، مثقلة بالديون والاخطار، ولم تكن بهذا التعقيد اليوم الذي تأبطت فيه ذراع زميلتها ليلى ، خفيفتين كريشتين ، تتمشيان في ساحة المدرسة المضطربة ، ومن بين جموع الطالبات الثرثرات والمناديات شقا لهما طريقا بعيدا عن الضجة،

بالقرب من حائط البناية الخلفي ، كانتا قريبتين تماما ، ومخلصتين ، واللحظة تلك لا تقدر بزمن ، وكأن الدعة والوفاء اشياء لا مفر منها . وكشجرة فائضة الظلال تفيأت ليلى قربها ، تحدثها عن ابن خالها ،وهو واحد منهم ، يكبرها بثلاث سنوات ، يعطيها كتبا للمطالعة ، وعندما تزورهم يصر على مرافقتها في الليل ، وقد عصر لها يدا ليلة ما . هو من درسها الرياضيات في العطلة الصيفية ، وفي الوقت نفسه كان يتأملها ويبدي اعجابه برشاقة اناملها حتى ترتبك ويرتجف القلم، عرفها قبل ان تدرك نفسها وقبل ان تحس به هو بالذات . وهي مطمئنة ان لن يفشي شيئا فهو ابن خالها وان لا زالت تخشاه .

كانتا بعيدتين عن صداري المدرسة النيلية وضفائر الطالبات المشدودة باحكام ، وكأن تلك الفرصة هي الوحيدة من بين المئات لكي تتسامرا وتتصارحا وكطفل يسرق الحلوى لاول مرة تحدثت سعاد عن (فلان) فهي لا تعرف اسمه بالضبط ، قد يكون مثنى او هشام ، وان كان الاسمان لا ينسجمان مع رؤيته تماما ، فالاسماء شخصيات في بعض الاحيان . وهي تراه كل يوم تقريبا ، وتفضل ان تخرج في الثامنة صباحا فهو مجبر على الدوام في تلك الساعة ايضا ، وعندما تعود من المدرسة مساء تجده واقفا امام احد الدكاكين ، متوقعا اياها مع انصراف الطالبات ، لقد شاهدته عدة مرات في السينما . وكانت الافلام تعبر عنهما شخصيا فيتحاوران بلسان كل ابطال الغرام ، ولا يبدو هناك سوء تفاهم او اختلاف . وعندما تضاء الصالة تراه جالسا في زاوية يدخن ، ويلتفت بوقار بعد ان قال كل ما يريد ان يقول .. لقد حفظت الوان ثيابه ، وسرعة مشيته ، الجبهة العالية ، ونظرة الرجاء .

بدت جريئة ، كشفت امورا لم تكن موجودة اصلا بينهما ، قليل من السينما ، وبعض من روايات الغرام المشهورة . كانت الصراحة والكذب اشياء واحدة في تلك اللحظة ، بل شعرت انها مثلت الصدق اكثر من الصدق نفسه . كان هذا طعم السر لاول مرة وطعم البوح . وقد تذوقته بحماس ، بعد ان استخلصتا صناديق الاسرار من بعضهما، والبحار واحدة عند هذه وتلك ، دون ملاحين او سفن حقيقية وان خالتا انهما تبحران . وجميل ان تمتلك سعاد مثل هذه المخاطرة العاطفية ، دون تشويه لسمعتها كفتاة خام . وكانت حريصة على الكتمان كحرصها على الانكار . لم تنشىء وجودا لشيء يمسك ذيلها فيه ملطخا بحب على ابعد احتمال . ولم يتقدم (الرجل) اكثر ، كانت ردود الفعل معتدلة ، فلم يجرؤ ، ولم يجرؤا . وظل هذا الحب الشفهي مكشوفا بين الصديقتين فقط . درسا يوميا تبدآن فيه دروسهما الاعتيادية فتتضاحكان وتتخابثان بعد ان عرفت ليلى ما يدور بين سيارات الطريق واوساخ الطريق وحبه ، وبعد ان نمت فيه سعاد غرورا ورثاء وانتظارا .

* * *

ارادت الملكؤ لو كانت ليلى متريثة عند الانصراف ، فربما اخبرتها بالورقة بعد أن سمعت اللغط بين الاخريات . سترى اضطرابها فتشاركها العزاء . ولكن ، من يدري انها ليلى الواشية . لقد سرقتها اللصة ، وقد ضحكن طويلا عليها قبل ان يضعن الورقة في درج مقعدها. لا تشك في ذلك ، وان شكت في الوقت الذي اخترنه للايقاع . قد يكون في فرصة الدرس الاول ، كانت في الساحة والمجال لهن انذاك.. لم تكترث ليلى ولم تقرب منها ذاك النهار . الانها نادمة ؟! ام لانها منتقمة ؟! انها شامتة على كل حال . اصطفق جناحاها بسرعة . زائغة من بين الواقفات ، ومتبعة ايسر درب كي تصل للبيت ، متوقعة آثارا للورقة الزرقاء في منعطف وامام كل باب دكان . وكان رائحة تنبعث من الرجال ، واصواتهم ، واشكال ثيابهم ، وعيونهم الرخيصة المفضال . تمنت ان يموتوا جميعا بداء . ان يموت واحد على الاقل بالذات .

لاول مرة منذ زمن طويل وجدت غرفتها دافئة ، ممتلكاتها القديمة غير سخيفات ، شرائطها الملونة ، تنوراتها والقمصان . وعلى سريرها كانت المخدة المطرزة بشغل ابرها تضع رأسها باطمئنان ، والوردة المدروزة في زاويتها راضية ، وردية الخيوط والقسمات في مودة تذكر لمن كتبها الشعثة على المنضدة قرب قنينة انيقة لصبغ الاظافر والمشط والدهان . ما احوج كتابها للتجليد ، ستشتري له غلافا جديدا ، وقلم حبر اخر بعد ان سقط قلمها في الطريق قبل بضعة ايام. دخلت تحت اللحاف ، لا ثغرة فيه ، آمنة ، دون اضواء .. لا تريد احدا. تريد ان تنام ، حتى صديقتها ليلى عندما جاءت مساء كانت غير راغبة فيها ، ثقيلة بل ملحاح ، ظلت تحول حول شؤونها ، تريد ان تتبصر عن ما جد من احوالها . بل تراها اكثرت من الحوم الان ، تراودها حول الجديد في ذاك النهار ، ولكنها كتوم متماسكة ، لم تشر للورقة خوفا من هذه النمامة المحتال . وقبل ان تخرج وقفتا بالباب تتودعان . وبابتسامة دهاء وشطارة سألتها ليلى مباشرة :

ـ اوجدت الورقة اليوم ؟

وخافت ان تجيب بشيء حين ردت ليلى نفسها ببداهة وهي تغالب ضحكها :

ـ لقد وضعتها لك . ألم تحزري ذاك ؟!

فتمالكت وهي تقول :

ـ اجل . ولم اعرها الاهتمام .

لندن — سميرة المانع

ينهمر المطر

(١)

لتهطلي على دروبنا
لتهطلي على بيوتنا
لتهطلي غزيرة .. ايتها الامطار !

(٢)

أمس أتت رسالة من والدي
يسب فيها نقمة الامطار
يقول : انها تدفقت ،
فأصبحت شوارع المعسكرات حولنا
انهار
يقول : انبيت جارنا حسين قد هوى
وان حوش دارنا
ترنحت جدرانه ،
والحائط الغربي منه انهار
ويحمد الاله
لانهم كانوا نياما عندما هوى
وأن يكن يدعوه ان يكف « اسرافيل »
عن مزاحه ،
لانه يخشى على بقية البيت الصغير
أن تنهار .

(٣)

سمعت صاحبا يقول :
ـ لن تهمني برودة الصقيع
وبعدها اشار « للبالطو » الذي احتواه
دهشت كيف أدفأته
ملابس أتت بها نيويورك كي تنسيه
رعشته
وغربته !

***

يا صاحبي ! لتخلعه !
حتى وان خلعته ، فلن تحس بالصقيع
فقد تجمدت بك العروق
ولم تعد تحس يا صديق غربتي
بعارك الذي يقيم فوق جبهتك ،
بغيبة الربيع !

(٤)

طفلان كانا يرقدان عاريين
يحتميان بالجدار
رأيت في عينيهما البريئتين رعشة
النهار
سمعت فيهما من يلعن الامطار
قبلته على الجبين قبلتين

***

يا طفلي العزيز !
لا تلعن المطـر
بل العن الانسان
لتلعن الجريمه
ولتلعن اليد التي تجمدت عروقها
ولتلعن الاب الذي قد مرت الاعوام
ولم يحرك ساكنا ،
لكي يرد عنك قسوة المطر !

(٥)

لتهطلي غزيرة ايتها الامطار !
لتهطلي !
لعل طفلك الحبيب يدرك المأساه
لعله اذا ما اشتد ساعده
يغادر الجدار
يحقق الدفء الذي يريده ،
عند خطوط النار !

(٦)

راقدة الى جوار المدفأه
الفحم في كانون ذكرياتك القديم ،
يستحيل كلما خطا الزمان ذرات من
الرماد
وربما يجيء يوم يهبط الصقيع فيه ،
دون ان يكون في يديك ما تبغين من
وقود
ويستمر في عيونك السهاد
وانت في انتظار ان يعود طفلك الذي
مضى بلا وداع
وربما قضيت قبل ان يعود ! !

***

يا جدتي !
لتبحثي عن طفلك الذي فقدته بين
الجنود
فانه يحب دفقة المطر
وقد يكون بعد ان كبر
قد أدرك العار الذي سيلحقه
ان عاد يقضي عمره الباقي جوار المدفأة

(٧)

لتهطلي غزيرة .. ايتها الامطار !
لتهطلي ! لتهطلي !
فقد مضت تكر حولنا الاعوام
ونحن نائمون
وعندما اتى النداء ظل بعضنا نيام !

(٨)

آمنت دائما بهذه الطبيعه
وكنت كلما رأيت حولي الفجيعه
أطل للسماء
أرقب رد فعلها
لذا فهمت ما الذي يريده هذا الشتاء ،
اذ يسوق في معسكراتنا صقيعه !

(٩)

لتهطلي غزيرة ايتها الامطار !
لتهطلي !
لتهطلي !

(١٠)

رأيتهم على دروبنا عراه
رأيت في عيونهم شوقا الى المطر
رأيت في اجسادهم شوقا الى الحياه
رأيتهم على دروب الموت يهزجون
راياتهم مطـر
سلاحهم صقيع
فانهم قد ادركوا حقيقة الصقيع حين
ينفجر
والسيل حين ينهمر
يمزق الصخور
ويطلق الينبوع صافيا ،
في ليلنا المطير !

عبد الرحمن غنيم القاهرة

«يسنين» ... والغربة !

بقلم محمد كامل عارف

لن آسف ، لن أندب ، لن أبكي

فكل شيء سيمضي ،

مثل غيمة فوق أشجار تفاح بيضاء .

***

كثير من الشعراء ادعوا ، انهم يكتبون الشعر بدم قلبهم .. ولكن الوحيد الذي فعل ذلك حقا ، هو الشاعر الروسي الشاب ، الجميل جدا : سيرجي يسنين .

ففي احدى ليالي ديسمبر ، اذ لم يستطع يسنين ان يعثر على حبر للكتابة في غرفة بفندق (أنجليرا) في لينينغراد ، جرح معصم يده ، ليكتب بدمه ثمانية ابيات من الشعر ، كانت هي اخر ما كتبه في حياته . فقد شنق نفسه بعدها بيومين .

ان اسم سيرجي يسنين مجهول تقريبا في بلداننا العربية ، بالرغم من انه يعتبر ارق شعراء روسيا في مطلع هذا القرن . وقد قام الاتحاد السوفياتي هذه السنة احتفالات ضخمة ، بمناسبة مرور ٧٥ عاما على ميلاده . وربما سيستغرب كثير من الذين حضروا اللقاءات والمحاضرات والحفلات الموسيقية ، التي اقيمت لتخليد ذكرى يسنين ، عندما يقرأون السطور التالية ، التي تتصدر مقدمة لطبعة اشعار يسنين ظهرت في موسكو سنة ١٩٣٩ :

(بمقدار ما ستحرز مزارعنا التعاونية من نجاحات اكبر ، سيختفي بسرعة اسم يسنين في طي النسيان . ان روح الجماعية المتلاحمة وفردية اشعار يسنين ، ضدان لا يلتقيان . ولكن اشعار يسنين ما تزال الان طرية ، كندبة طرية على جسدنا الاجتماعي .)

وفي الحقيقة ان اسم يسنين بقي لاعوام طويلة يثير نوعا من الاستهجان عند كثير من الادباء والناس السوفييت . واعتقد اننا لا نستطيع ان نلوم احدا على ذلك . فالانتحار نوع من الانانية ، كما يقول همنغواي نفسه . ثم ان يسنين آثر ان ينتحر عندما كانت روسيا تعيش على كلمات التشجيع بدل الخبز الذي لا تجده . كانت جيوش التدخل العالمية ، التي ارسلها الرأسماليون الانجليز والالمان والاميركان ، لتقضي على اول جمهورية للعمال والفلاحين قد طحنت روسيا من جميع اطرافها ، ودمرت ما ابقته فيها الحرب العالمية الاولى من خير زهيد .

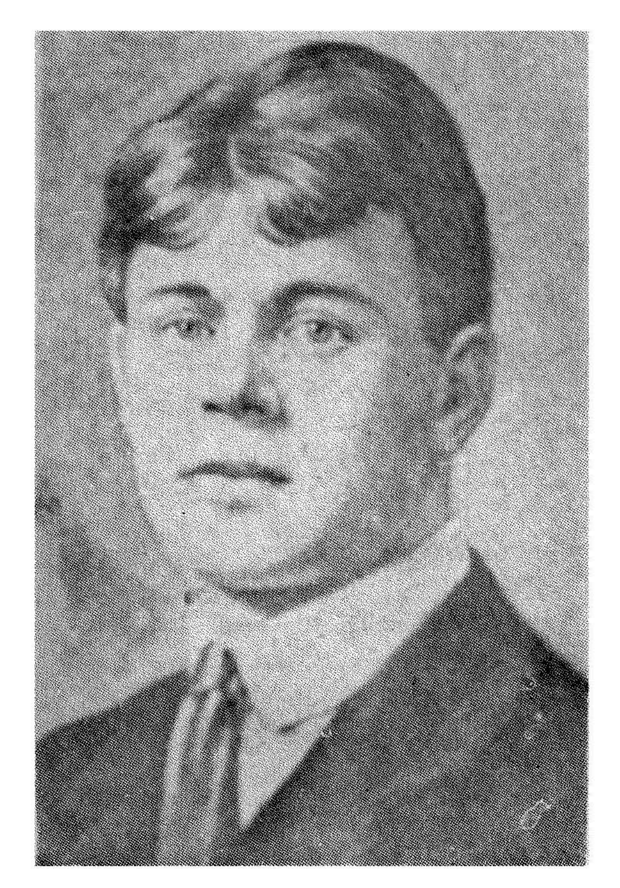
ولم يشأ يسنين ، - ولنقل لم يستطع ، - ان يعطي روسيا الجائعة المحاصرة آنذاك الاغاني - الخبز التي تحتاجها . وربما هنا يكمن سر انتحاره .

***

كان يسنين ، الذي ولد في سنة ١٨٩٥ ، قد جاء الى بيتروغراد ، عاصمة روسيا الامبراطورية من اعماق الريف الروسي . وكتب وقتها الشاعر الروسي المشهور بلوك ، مصورا يسنين في مذكراته : قابلت اليوم يسنين . شاعر فلاح . عمره ١٩ سنة . اشعاره طرية ، نظيفة ، منغمة وغنية .

واستطاع هذا الشاعر الفلاح ، باشعاره الريفية العذبة وبأناقته ووسامته ان يلمع بسرعة في صالونات العاصمة الارستقراطية ، وان يثير في نفس الوقت اهتمام ادباء ماركسيين ، مثل غوركي وبلوك .

ولكن لسوء حظ يسنين انه وصل متأخرا ، او مبكرا اكثر مما ينبغي . (فماذا يفعل الشعراء في زمن المحنة ؟) . لقد حدثت ثورة



سيرجي يسنين

***

اوكتوبر بعد وصوله بيتروغراد بسنتين . وفي زمن الثورة يفقد الشعراء عادة تاج النبوة ويتحولون الى مغنين للشعب . وقد حاول يسنين ان يغني للثورة وللشعب . ولكن يبدو ان تربيته الفلاحية الدينية قد اوقعته في سوء الفهم . فبدلا من ان ينشد مثل ما يبكوفسكي (مواكب القطارات المحملة بالبروق) و (الكهرباء والبخار .. والكلمات الرياضية ذات الاقدام المرنة) ، كان يسنين يكتب قصائد لثورة الطبقة العاملة بعناوين دينية وبتعابير من التوراة : عيد التجلي ، الطبل السماوي ، كتاب الصلوات الريفي ، مروج الاردن .. الخ .. كان يسنين يهتف :

لتعش الثورة ،

في السماء وعلى الارض .

او يكتب : قلبي - شمعة نضاء لعيد قيامة الجماهير وللكومونات

او : السماء مثل جرس كنيسة .

القمر مثل لسان .

الوطن امي .

وانا بولشفيك .

وفي الحقيقة كان يسنين نفسه يعرف انه لا يستطيع ان يكون بولشفيكا ، بالرغم من ادعائه مرة بانه لا يدخل حزب البولشفيك لكونه أكثر يسارية منهم . ولعله لم يبالغ في دعواه هذه . فهو ككثير

من المثقفين البورجوازيين الصغار ما كان ليستطيع الان يقف على يمين البولشفيك أو على يسارهم . وعندما كان يسنين يختار أن يقف على يسارهم ، كان يجد نفسه جالسا يقرأ الشعر للعاهرات .

ويسخن الفودكا مع اللصوص والمشردين .

✶ ✶ ✶

وآثر يسنين مثل كثير من المثقفين البورجوازيين الروس انذاك ان يغادر روسيا . وكان هذا سوء حظ أشد يقع فيه . فقد تزوج (النار الملتهبة) ايزادورا دنكان ، الراقصة الاميركية ، التي كانت تخض رجال ذلك العصر . وغادر معها الى أوروبا ، ثم الى الولايات المتحدة الاميركية. وانه لطريف انتطلع الى صور يسنين الفوتوغرافية في اوروبا . حيث يبدو فيها بانافات رجال العشرينات المفنـــاجة ، الانثوية تقريبا . ولكن يسنين لم يمكث طويلا في (مملكة الضجر) ، كما أطلق على اميركا . وربما صحيح ما قاله احد النقاد الغربيين ، من أن ايزادورا دنكان واميركا حطما هذا الفلاح الروسي . ولعل قصيـــدة يسنين المـــريرة المشهـــورة : « انت لا تحبينني . انت لا تعطفين علي . » موجهة الى ايزادورا :

انت لا تحبينني . انت لا تعطفين علي .
ألست حلوا ولو قليلا ؟
انك تنتفضين رغبة ، ودون ان تتطلعي في وجهي ،
يداك تسترخيان على كتفي .

✶ ✶

ايتها الشابة ذات التكشيرة الشهوانية .
انا لست رقيقا معك ولا فظا .
خبريني ، كم من الرجال داعبت ؟
كم من الايدي والشفاه مسحت ؟

✶ ✶

انا أعرف : لقد مروا جميعا كالظلال ،
دون أن يلمسوا نارك .
لقد جلست في أحضان الكثيرين .
وها أنت تجلسين على ركبتي الان .

✶ ✶

عيناك نصف مغلقتين
وانت تفكرين بشخص اخر
أنا أيضا أشتهيك ،
من دون أن أحبك كثيرا .

✶ ✶

لا نسمي هذا الرماد حظنا .
هذه العلاقة الحمقاء ، السريعة الاحتراق .
فكما التقيت صدفة بك .
سأغادر بهدوء وأنا ابتسم .

✶ ✶

وانت سترحلين أيضا في طريقك ،
بعشرين أيامك البائسة .
ولكن لا تلمسي ، الذين لم يعرفوا القبلات .
لا تغوي ، الذين لم يحترقوا .

✶ ✶

وعندما ستمرين في الطريق ،
تثرثرين مع اخر عن الحب .
ربما سألتقي بك ،
في تجـوالي من جـديد .

✶ ✶

ستشدين نفسك الى كتف الاخر .
وتقولين بصوت منخفض ،
وانت منكسة الراس قليلا : مساء الخير .
وساجيبك : مساء الخير ! I Miss (1)

✶ ✶

ولن تهتز روحي .
لن أرتجف .
فمن أحب مرة ، لن يستطيع بعد أن يحب .
من التهب مرة ، لن تستطيعي أن تحرقيه .

✶ ✶

لقد عاد يسنين الى وطنه اكثر خيبة مما غادره ، والمصيبة انه يتطلع الاونة الى روسيا القديمة ــ الجديدة بعيون اجنبية . كـــان الاميركان قد اوقفوه عند حدود الولايات المتحدة ، باعتباره أحـــد مواطني روسيا الحمراء . لقد ماتت روسيا القديمة على الخريطة . وفي جواز سفره ، وفي نفسه ايضا . أصبح لا يبالي بالحقول ولهب المواقد الروسية ، ولا حتى برنين أجراس الزحافات :

يكفي يا روسيا الحقول .
يكفي جرجرة محاريثك القديمة .
انه ليؤلمني ، كما يؤلم أشجار الحور والبتولا ،
رؤية فقرك .

ان يسنين يرى الاونة :

عبر الصخور والفولاذ ،
تحت ضوء القمر المسلول ،
قوة موطني الحقيقية .

ولكـن :

لست أدري ما الذي سيحدث لي ؟

---

١ ــ كما هي موجودة في النص الاصلي بالانجليزية .

ربما لن أصلح للحياة الجديدة ؟
وسيظل هذا السؤال حتى النهاية .

لقد اختار يسنين ، اخر شعراء القريــة ، ـ كما كان يسمي نفسه ـ ، ان يذهب الى قريته القديمة قبل انتحاره بسنة تقريبا . ولسنا ندري ان كان قد حاول بعودته الى القرية ان يتطلع ، ـ كما يقول احد النقاد الروس ـ الى الحياة الجديدة في وجهها ، ويتفحص نفسه على ضوئها ، أم أنه بعودته الى مكان ميلاده حاول هروبا جديدا، أكثر انواع الهروب استحالة : العودة الى الطفولة . ان علمـــاء النفس يتعرفون عادة انماط هذا الهروب المستحيل في وجوه مرضاهم الذين يبدأون يتلعثمون مثل الاطفال في نطق أحرف الهجاء .

على أية حال ، ومهما كانت دوافع يسنين في عودته الى قريته فقد كانت حصيلتها سلبية جدا . فبدلا من الصورة التي في ذهنـه عن قريته الهادئة ، حيث تجلس امه على دكة سلم بيتها الخشبي لتطعم الفراخ ، وجد يسنين عـالما اخر . بدلا مـن بريق الصلبان النحاسية على الكنائس الروسية البيضاء ، كانت الشرائط الحمر ترفل عـلى قبعات جنود الثورة الفلاحين . وبدلا من (كتاب الصلاة) ، كـانت أخته تقرأ في (رأس المال) ، وبدلا من الايقونة في زاوية البيت ، تقوم صورة لينين . والافظع من ذلك كله كان الفلاحون الشباب يغنون اغاني اخرى لا يعرف يسنين كيف يكتبها ، او ربما لا يريد .

ان يسنين يخاطب نفسه في قصيدته ((روسيا السوفياتية)) :

لقد أخـذت تذبـل قليلا .
الشباب الاخرون يغنون أغاني أخرى .

* *

آه يا وطني لكم أصبحت أنا غريبا .
ان خداي الغائرين يتوردان بخجل يابس ،
فلغة مواطني أصبحت غريبة عني .
وأنا في وطني مثل أجنبي .

لقد تأكد يسنين نهائيا في (روسيا السوفياتية) ان :
شعري ليس ضروري هنا
اجل .. وربما انا نفسي لم أعد ضروريا .

* *

وحتى تكون الكلمة ، ـ كما يقول المسيح ـ . ولكي يصبح الشعر ضروريا ، كان ينبغي ان يتعمد بالدم . ولقد كانت ابيات يسنين الاخيرة مكتوبة بالــــدم :

وداعـا يـا صـديقي .
وداعا بدون كلمات وبدون أن نشد الايدي .
لا تحزن ولا تقطب حاجبيك .
ليس شيئا جديدا في هذه الحياة ان نموت .
وأن نعيش ، بالطبع ليس بالشيء الجديد ايضا .

ولكن روسيا كانت قد وجدت الشيء الجديد الذي ستعيش مـن أجلـه . كانت قد اختارت مشروعها ، الذي ستدافع عنه ضد الموت وفي قلب الموت وحتى الموت . وقد أجابت روسيا السوفياتية على لسان شاعرها ماييكوفسكي ، الذي كان سيكرر نفس المـأساة بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا :

أن نموت في هذه الحياة ،
ليس بالامر الصعب .
الاكثر صعوبـة ،
هو ان نصنع الحياة .

* * *

ان مايثير الدهشة في تاريخ روسيا ، ان أروع شعرائها كـانوا ينتهون في عز شبابهم وفي قمة تفتحهم الشعري ، منتحرين او مقاتلين في معركـة انتحـارية .

محمد كامل عارف

رامبو

رامبو
يا طفل الشيطان الارعن
يا نغما .. دوى يا ارغن ..
منطرح الاوتار على مقصلة الطرقات
يا فصل جحيم .. في عمر الكلمات
يا أغلى ابناء الله الشعراء
يا « سارق نار » (١) الاشياء
سرقتك السكين .. وخانتك عيون الجنيات .!
يا روح القرن المثقل بالبركان
« الموت مغامرة كبرى »
والمطلق عمد في بئر الاشجان
ذرفته لياليك على صدر الشيطانات.
وتناثر نورا ودخان .
نشقته رياح « سفينتك السكرى »
فاندلعت مسكا وبخورا ،
وانتفض جناحك مذعورا ..،
واشتعل اليابس والعشب ..

***

رامبو ..
يا حطبا اشعله الرب
اسند قدميك الى قلبي .. ،
واشدد خيط حذائك قيثاره ..
واحجل بالساق الواحدة .. (٢)
لتلمس اطراف المبهم
لتفك تعاويذ الطلسم ..
املا ان « تعثر بالمفتاح »
ان «ترسل للشيطاناكاليل الشهداء»
يا عبد الله المسلم .. (٣)
عدن .. لم تعرف جرحك يا عراف الارواح
فانغرس صليبك في نحرك والصدع الدرب ..!

***

رامبو ..
كم ناس قبلك قد دبوا ..
عبروا .. ،
وأعتركوا فوق الامواج
لم يركب احدهم وعرا .!
كم شعراء بعدك نزفوا شعرا ..
لم يرشق احدهم سهما « اعلى الابراج .. »
من منهم كتب الصمت .. وسجل « كيمياء الكلمه .. » ؟
وبنيت « قصورا من بللور » ،
من « سكك » لا تلحقها نجمه ..
من عانق شبق المجهول وهز عروش الكلمة ؟
من صنع « اللبنانات الحالمة » (٤) سواك ؟
ورميت عصاك .. ،
هنا وهناك ..
الشرق لارض الحكمة والافيون
وحشوت جيوبك بالاشواق ،
وبالاصداف ،
وبالنجمات ..
وحبوت على قلب الغابات «وهلسنة» (٥) الهتفات
افرغت الجعبة في العشرين ..
لم يرجع احدهم بحصاد مثلك يارامبو
لم يرعش رعشتك الكبرى قلب !.

***

رامبو ..
يا حطبا أشعله الرب
« يا اوبرا اسطورية .. »
يا مخترع الكلمات حروفا صوتيه (٦)
يا فجر صباح اخضر
انسكب رؤى بللوريه
يا اعظم صعلوك في وادى عبقر ..
اصطبغت بدماه الاشياء .. ،
فج جبين الابديه . !
وسقطت .. وقد شف الثوب ..

***

رامبو .. رامبو
يا عبق الشرق ويا انفاس اللبنانات
صرختك تدمدم ما زالت .. فوق الورقات :
« لسنا في هذا العالم .. »
يا نوام العالم ويحكمو هبوا .!

***

رامبو رامبو
يا دمعة قيثار صوفي الايقاعات
يا رب الاشراقات
يا اغلى ابناء الله الشعراء
يا اخر عنقود الغرباء ..
« لسنا في هذا العالم .! »
في صحة غربتنا التحب ..
رامبو رامبو رامبو ..

القاهرة — **فتحي سعيد**

تضمنت القصيدة اشارات الى دواوين رامبو : موسم في الجحيم ، والاشراقات ، وانشودة اعلى الابراج ، وقصائده السفينة السكرى ، وبوهيميتي وكلمات له ذكرت بين قوسين .

(١) وصف رامبو الشاعر في رسالة لصديقه ايزامبار .. بأنه سارق نار .

(٢) قطعت ساق رامبو بسبب المرض اثناء طوافه بعدن وقبرص وهرار والحبشة بعد ان هجر الشعر في العشرين .

(٣) عثر في تركة رامبو على طابع شمعي اكتشف المستشرق ماسينيون عليه أسم «عبده رامبو ، تاجر لبان وبخور ، وعبارة الحمد لله»

(٤) اللبنانات الحالمة وقصور من بللور من كلمات رامبو عن الشرق .

(٥) اشارة الى قوله « لقد تعودت الهلسنة فكنت ارى مركبات على دروب السماء ، وصالة في قعر بحيرة وجنا وعفاريت » .

(٦) يقول رامبو : لقد اصبحت اوبرا اسطورية ولقد عبرت عن الصمت ، وسجلت كيمياء الكلمة واخترعت للاحرف الصوبية الوانا فالـ A سوداء ، والـ E بيضاء و ...



كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل
شعر ادونيس
منشورات المكتبة العصرية في بيروت

***

لست ادري كيف ابدأ الكلام على شعر ادونيس، فقد رافقت تطور شعره وتخطيه، ورافقت تحولاته مرحلة اثر مرحلة . وكنت في هذه المراحل جميعا انظر الى شعره من الداخل، حتى ليصعب علي ان ادرسه دراسة موضوعية، اذا كان ثمة موضوعية في محاولة نقد الشعر، لا سيما الشعر الذي نقرأه اليوم .

كلامي هنا على مجموعة ادونيس الاخيرة، كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل . اما التحول في القصيدة الادونيسية فهو عمل مستمر، ويظهر بوضوح في كتاب « اوراق في الريح » : البعث والرماد، وقصيدتان للمستقبل . ولم يزل الشاعر يتخطى ويتحول، وينجلي تخطيه وتحوله في « اغاني مهيار الدمشقي » و « كتاب التحولات »، ولكن هناك خطا شاملا ينتظم شعره، من قصيدة «دليلة» (١٩٥٠) حتى القصيدة الاخيرة، وهذا الخط الجامع هو ما يدعى النفس الشعري . فالتخطي لا يعني ان يتخلى الشاعر عن شخصيته ليكتسب شخصية غيرها، انما هو التحول الدائم نحو الاجمل .

في تحوله الاخير يصل الشاعر الى موقف صوفي حاسم : انحلال الثنائيه بينه وبين العالم انحلالا تاما، و « السفر في فارات الداخل» كما تقول خالدة سعيد في المقدمة . وهذا التوحد الرهيب بين الانسان والاشياء يقابله شعور رهيب في القارىء : شعور باستبطان حياة الشاعر واكتشافها، في احاسيسها الحلوة والمرة وفي معاناتها الوجودية . ففي قصائد ادونيس الجديدة قدرة على حمل القارىء، في تيار الرؤيا او ما يشبه الرؤيا، الى عوالم واسعة، الى اقاليم النهار والليل . هنا تصبح اللغة كل شيء، تهز وتأسر وتوحي، تصبح الغاية والوسيلة معا ... اللغة في شعر ادونيس ظاهرة بارزة، لعلها من ابرز ظواهر شعره على الاطلاق . هنا تصبح اللغة الينبوع الحي الذي يتدفق منه كل شيء : الكآبة والفرح، السقوط والانتصار، الشعر والطفولة ... وتصبح الكآبة والفرح شيئا واحدا، والشعر والطفولة شيئا واحدا، ويصبح السقوط حافزاً على الانتصار وطريقاً اليه، طريقا لا تنتهي .

يقودني هذا الكلام الى الطريق في شعر ادونيس ... « كل شيء طريق » — يقول ادونيس . اجل، كل شيء طريق، لان الانسان الخلاق، الذي ننادي له بملكوت الارض، لا يتوقف . الارض كلها طريق له، اما التوقف فهو الموت . اسمع ادونيس يقول في الطريق :

وكلما قلت لدربي ترى
الى متى عبء السرى، والسرى،
متى ارى المشتهى
وابلغ المنتهى، واهدا
قالت لي الدرب : هنا ابدا .

هذه طريقه في « قصائد اولى » . اما طريقه الجديدة، وهي كل شيء هنا ايضا، فيقول فيها :

اعرف ان الطريق
لغة في شعوري، لا في المكان
لغة في العروق وفي نبضها، لغة في السريره
حيث تأتي المسافات من اول الطريق موصولة بالبريق
ببريق الفتوحات والكشف والعابرين
في التخوم الاخيره .

فهو يستشرف غيب القدر، ويبصر كل شيء في الخطوة الاولى من المسافه . هنا تبدأ طريقه من الداخل، من « اول الروح »، وتنطبع على جبهته دفترا « عربي الكتابة »، فاذا به اول المكان، والرياح البقية، يجوب الافاق ولا يصل ... هكذا العظمة الحقيقية : لا تحد ولا تنتهي، وكلما وصل طالبها الى قمة تكشفت له القمم .

ونراه، وهو في طريقه، يعود الى الينبوع — الى « الطفولة القديمة الشيخوخة القديمة » . عندئذ يصير المرآة، ويعكس كل شيء، يعكس حتى ذاته، ويرى نفسه اثنين : ادونيس الحاضر، الذي يحمل معه الماضي، وادونيس الذي سيجيء : « اللؤلؤ السابح » في عينيه .

هنا تدخل النار في رحم الارض وطقس الخليقة، نار الصفاء والنقاء والنضارة . نار الحياة . نار التمرد والتجدد . نار الفينيق، التي تطهر وتمحو وتخلق الشيء من جديد . نار البكارة الدائمة .

وفي صراعه مع الموت يتغلب عليه، لان الخضر شفيعه، الخضر دائما معه، يمشي واياه على الهواء، ويقتحمان اسوار المدينة — الافعى المسبعة الرؤوس، ويطعنان الافعى الضارية : الحضارة القشورية الزائفه، ويلبسان المدينة قناعها الاصيل : قناعا من وجوه الاطفال ... وينتصر الخضر على التنين . ويموت الموت . من هنا كانت الطفولة امل الارض . من هنا كانت الطفولة هي الصداقة، الطفولة التي يراها في طفلته الوحيدة وفي صديقته الوحيدة .. وما همه بعد هذا اذا بقي الصديق الذي يرجى منه الكثير فارسا « في الضفاف القريبة لكنه لا يجيء » . وما همه لو بقي « العالم صحراء الغربة »، فهو يعرف البشر كلهم، لان سريرته الصافية حولت الصحراء الى واحة، فقابل البشر جميعا ... هذه هي المحبة الشاملة . المحبة العظيمة التي « لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق ... »

اين الواقع في هذا الشعر ؟ الواقع، مجسدا، يظهر هنا : في الطريق والطفولة، في الخيبة والكآبة، في كل شيء . والواقع هو الفاجعة : تحجر الروح في عصر المادة، موت القيم، موت الانسانية في الانسان . من هنا تنقلب المقاييس، ويحلم الشاعر بجمعية جديدة هي

« جمعية الحيوانات الميتة والحية للرفق بالانسان » . ويلاقي الشاعر، هذا الرجل الفارس ، هذا الخضر الجبار ، اليأس والكآبة والسقوط، ويتصارع معها ، ولكنه يتغلب عليها جميعا بالرجاء والايمان والمحبة ، واعظم هذه الثلاثة المحبة ، التي تحول صحراء البشر الى واحة .

بقي ان اتحدث عن شيئين في كتاب التحولات، هما الصقر واللغة. ولو اردت دراسة الكتاب بالتفصيل لتحتم علي ان اتناول شعر ادونيس برمته ، وهذا ما اتركه للمستقبل . وهناك اشياء كثيرة في كتاب التحولات يجب ان نتناولها لتكون الدراسة وافية ، مثل شكل القصيدة والوزن والرؤيا الشعرية .

اما الصقر فهو صقر قريش ، عبد الرحمن الداخل ، البطل الاموي الذي فتح الاندلس . واستخدام الشاعر لحكاية هذا البطل يدلنا على ان في مصادرنا العربية القديمة طاقات كثيرة يمكن ان نفجرها ، ولكن لا تفجر هذه القوى الكامنة سوى عبقرية مثل عبقرية ادونيس . الا ان قيمة الصقر هنا ليست قيمة تاريخية ، بل فنية بحتة . فالصقر هو الشاعر ، هو ذاته التي ذابت فيها ذوات الاخرين . وفي قصيدة الصقر شبه كبير بقصيدة البعث والرماد ، من حيث استخدام القصة التاريخية او الاسطورة ، وشبه من حيث التجربة . ولكن الشاعر لا يكرر ما قاله، لان الزمن يحمل معه التجربة الجديدة والتعبير الجديد . وعلينا الا ننظر الى التجربة الشعرية من حيث كليتها وحسب ، ولكن من حيث تفاصيلها ودقائقها ايضا . لان النظر في الكليات والنتائج الاخيرة اعتساف يخرج بالشعر عن طبيعته التي تنظر الى الكلي بعين المحسوس. من هنا اختلاف الشعر عن الفلسفة وتفوقه عليها .

اما لغة ادونيس فهي قصيدة في قلب قصيدة . لغة ادونيس هي القصيدة . هي لغة القبيلة . لغة لم نألفها من قبل ، ولكن اصالة الشاعر تجعلها لغة اليفة . فهو فارس الكلمات ، وكلماته تذهب الى ما وراء الحروف والمقاطع ، الى ما وراء التراكيب والاصوات . واذا سلمنا بأن قارىء الشعر الحديث غير موجود ، فادونيس نجح في خلق قارئه. وانا ارى ان قصائد التحولات هذه اكثر بلاغة من جميع قصائد ادونيس السابقة . فهو لم يكن في « قالت الارض » او في قصيدة « تموز » اشد بلاغة واسرا واكثر تدفقا وخطابية مما هو هنا ... فاذا كانت البلاغة مخاطبة الاخرين وايصال صوت الشاعر الى اسماعهم ، فان في التحولات بلاغة تفوق البلاغة ، لان مفعولها لا يقتصر على الاسماع، بل يتعداها الى الداخل : يهز القارىء هزا عنيفا حتى يبلغ حد المرض . وهذا ما حصل لي لدى قراءتي « كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل » ، لا سيما عندما وصلت الى القصيدتين النثريتين : « تحولات العاشق » و « اقاليم النهار والليل » . فكأن الشاعر ، في استبطانه الاشياء ، ترك الاشياء تكلمنا ... وهذا ما اعتقد انه حصل بالفعل ، وهو اقصى درجات الصوفية ، تتجلى في شعر ادونيس كما لم تتجل في شعر غيره . هنا تصبح اللغة كل شيء ...

ويقولون بعد هذا ان الشعر قاصر عن ادراك الحقيقة وتصوير الواقع ، وانه يعيش في عالم وهمي من نسج المخيلة المريضة. والحقيقة ان شعرا كهذا الشعر ينقل الينا الواقع في مرارته ، ويتخطى هذه المرارة الى الفرح والانتصار ... يقنع المدينة بقناعها الاصيل: الطفولة. يعيد الينا الغابة . يبعث القبيلة ولغة القبيلة من جديد . هذا هو الشعر : المرآة والمنارة .

وهكذا لم تعد القصيدة العربية مع ادونيس بحاجة الى منبر (جماهير - تصفيق) او مسرح (انسان يتأمل العالم الخارجي ويصفه). وقد اكد لنا ، في تجربته الاخيرة هذه ، ان الشعر العربي الحديث يقف امام اي شعر حديث وينافسه . اكد لنا من جديد ان ملكوت الانسان، ملكوت الارض ، ملكوت الطفولة ، ملكوت الابدية - لن يضيع . انه معنا. وها نحن ، بعد كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل ، ننتظر ان تشرق علينا تحولات جديدة .

الجامعة الاميركية — **اديب صعب**

النكبة والبناء

تأليف الدكتور وليد قمحاوي

نشر دار العلم للملايين - بيروت

***

بالحب والامل والثقة بمستقبل الوطن العربي خاض بنا الدكتور وليد قمحاوي رحلة طويلة من الزمن عبر مئات السنين منذ الثورة الاسلامية الى ما بعد نكبة فلسطين الى الستينيات الحالية من القرن العشرين . فسرح في اكثر من ثمانمائة صفحة قضايا الوطن العربي في مؤلفه العظيم « النكبة والبناء » المكون من جزءين . فلم يدع صغيرة ولا كبيرة الا وتحدث عنها حديث الباحث المدقق ، واندفاع العربي المكتوي بنار النكبة في فلسطين، وايمان الاشتراكي العربي بقوة الجمهورية العربية المتحدة كقاعدة للنضال العربي ، وقيادتها الطليعية المبدعة برئاسة القائد العربي المناضل الرئيس جمال عبد الناصر . فهو يتحدث عن عصور الاسلام الاولى الزاهية بنفس القدر الذي يذكر فيه باسى نكبة فلسطين ، الى ان يصل الى حد رسم صورة باسمة للمستقبل العربي، صورة دقيقة لم ينس خلالها حتى الحديث عن ضرورة ايجاد توازن بين الغلة الزراعية والنتاج الحيواني ، وتحسين النتاج الحيواني وتكثيره .. الخ.. (الجزء الثاني ص ٣٠٧) .

وبادىء ذي بدء ، ينبغي لنا ان نحيي جهد الدكتور وليد قمحاوي، الذي ظهر جليا في سطور كل صفحة من صفحات هذا السفر الرائع. كما ينبغي لنا ايضا ان نشهد له ايضا بوضوح الرؤيا الثورية، والشجاعة الفائقة التي جعلته يواجه نكبة الانفصال الرجعي في سوريا ، بمزيد من الايمان بالجمهورية العربية المتحدة وبثورتها وبقائدها فيقول : « وكان جمال عبد الناصر يعبر اصدق تعبير عن وجدان شعبه العربي ، وهو يتصرف في اقسى فترة من حياته ، تصرف نبي دولة لا حاكم دولة . فيؤكد عروبة مصر وحرصها عليها ، ويتحدى القوى الشريرة - الداخلية والعربية والاجنبية - التي تحاول عزلها وتحطيم ثورتها وعرقلة امال الامة العربية ، ويكتسب من تجربة الانفصال تعرفا الى الاخطاء ، ومسارعة في بناء المجتمع الاشتراكي ، ووعيا لاهمية تنظيم القوى الشعبية وتعبئتها .. ووقف قائد الثورة يؤكد للامة العربية انه : ستبقى هذه الجمهورية العربية المتحدة رافعة اعلامها مرددة نشيدها مندفعة بكل قواها الى بناء نفسها ، لتكون سندا لكل كفاح عربي ولكل حق عربي ولكل امل عربي » . واكد المؤلف ايمانه بالوحدة مع رئيسنا « وستبقى الجمهورية العربية المتحدة قاعدة الثورة العربية الناصرية ، وطليعة للثورة العربية الاشتراكية في الوطن العربي كافة . » (الجزء الثاني ، ص ٨٦ و ٨٧) .

« في منتصف سنة ١٩٤٨ ... استيقظ العرب من اوهامهم اللذيذة المهدهدة فزعين مضطربين ... فلسطين امست اسرائيل ، وقد تشرد عربها ، بعد ان خذلت الدول الاسلامية في منظمة الامم ، وتخاذلت الحكومات العربية في ميدان السياسة والاقتصاد ، وهزمت جيوشها في ساحة الوغى ، وظهر ان المتقين الذين وعدوا بالظفر غير المتقين الذين ابتلوا بالمذلة ! » (الجزء الاول ص ٨) .

بهذه الكلمات الحزينة المؤلمة لكل نفس عربية ، يفتتح المؤلف دراسته الضخمة في نكبة العرب ، اسبابها وبواعثها وحلولها . وكلما اجال الطرف في انحاء الوطن العربي سنة ١٩٤٨ ، وجد استعمار يمزق وحدته ويجثم على ارضه ويستعين بقوى الاقطاع الاستبدادية - التي اسماها بالقشرة الاجتماعية تمييزا لها عن باطن المجتمع العربي المنعزل - ووجد تأخرا وتعفنا وجهلا وفقرا ومرضا . فراح ينقب ويدرس ويحلل جذور النكبة والتأخر العربي .

في نهاية القرن الثامن عشر كانت الصورة كالاتي : الامبراطورية العثمانية تسدل ظلاما على الوطن العربي ، ولم تكن هناك وحدة عربية في ظلها ، كانت الدولة عبارة عن ولايات يحكمها ولاة نيابة عن السلطان، يعدونها اقطاعيات مملوكة لهم ، ما ظلوا يدفعون مقدارا معينا من المال

للسلطان ، وعندما ضعفت الامبراطورية العثمانية ، انقطعت كل صلة للسلطان بالولايات والولاة ، وظلت الدولة تحتضر حتى انتهت . بينما تمكن الاستعمار من احتلال اجزاء الوطن العربي الممزقة اشلاء . وقامت الثورات والهبات في ارجاء الوطن العربي . ويذكر المؤلف ان اولى محاولات الوحدة العربية بين مصر وسوريا تمت على يد محمد علي ولكنها فشلت . (الجزء الاول ص ٢١) ونود ان نذكر بأن هذه لم تكن وحدة بارادة شعبين ، انما كانت عملية ضم يقوم بها حاكم اجنبي هو محمد علي لتكوين امبراطورية ينزع ملكيتها ويلصقها باسمه .

ويستطرد الدكتور وليد قمحاوي فيتابع - خطأ - المرحوم شهدي عطية في كتابه « تطور الحركة الوطنية في مصر » في قوله عن حركة مصطفى كامل « استمرت الحركة الوطنية حركة مثقفين اساسية ، فلم تنجح في تكوين جذور قوية لها بين الطبقة العاملة .. » ونقول خطأ ، اذ ينبغي للمؤلف ان يعرف ان الطبقة العاملة المصرية لم يكن لها وجود واسع في تلك الفترة ، بعد اضمحلال حركة التصنيع بوفاة محمد علي.

وبينما الوطن العربي يسيطر عليه المستعمرون ، تمكن الصهيونيون من الحصول على وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، الذي حقق احلامهم في دولة الشعب المختار بعد تحررهم من العزلة والجمود الفكري ، ابان الثورة الفرنسية ، فتحقق لليهود تطور فكري وعلمي ، جعل منهم العلماء والمفكرين والفلاسفة ، وتزايدت حركة اضطهاد اليهود في روسيا ، فازدادت عقدة صهيون وتمسكهم بالوطن القومي . وتكونت في اوروبا فئات يهودية مثقفة متمكنة من كافة اطراف العلم الحديث والتكنولوجيا. وما انتهت الحرب العالمية الاولى وانعقد مؤتمر الصلح في سنة ١٩١٩ حتى بدأت الصهيونية تشتري الاراضي بكل قرش تجمعه من اثرياء اليهود وتؤسس المستعمرات الزراعية على احدث طراز علمي ، وتستجلب لهــا اليهود يفلحون الارض بالوسائل العلمية ويصنعون المنتجات ، ويديرون الاراضي بلا اقطاعية . بينما كان وضع العرب في فلسطين منتهى التأخر علميا ، فالارض تزرع بنفس الطرق البدائية العقيمة ، وخيراتها تذهب الى الاقطاعيين المقيمين في المدن المنغمسين في الملذات. والانسان العربي في فلسطين يهلك فواه بلا جدوى من اجل افراد معدودين . وحتى عندما انعقد اول مؤتمر عربي في دمشق سنة ١٩١٩، وثان في سنة ١٩٢٠ ومؤتمرات اخرى ، اتخذ المؤتمرون عدة قرارات حماسية برفض فكرة الوطن القومي الصهيوني وانتهى الامر . العرب يقومون بالمظاهرات واليهود يشترون الاراضي ويؤسسون المستعمرات ويحققون الاكتفاء الذاتي بداخلها . وعندما تسلم هتلر زمام الحكم سنة ١٩٣٣ وبدأ اضطهاده لليهود ، زحف علماؤهم ومفكروهم باحدث الوان الحضارة الاوروبية الى فلسطين ، فاضافوا امتيازا جديدا لليهود في مقابل التأخر العربي . « وخلال فترة امتدت ثلاث سنوات دخل فلسطين ١٤٠،٠٠٠ مهاجر معظمهم من هذا الصنف الراقي واشترت الصهيونية من العرب ٦٠٠،٠٠٠ دونم بخمسة عشر مليون جنيه ،واخذت منهم امتياز تجفيف اراضي الحولة البالغة مساحتها ٣٥٠،٠٠٠ دونم واصبحت تملك نصف الاراضي المشجرة . » (الجزء الاول ص ٥٩).

بينما ظل العرب في تناحرهم وحزبيتهم وضجيجهم . وزادت الحرب العالمية الثانية واضطهاد النازية لليهود من هجرتهم الى فلسطين. وبين الهتافات العربية والتأخر العربي قسمت فلسطين الى دولتين عربية واسرائيلية ، ووضع الاستعمار صنائعه من الولاة على كراسي الحكم في الدول العربية ، وازداد التمزق العربي والرعب العربي ازاء المذابح الصهيونية ، حتى اذا جاء يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ لم يعد ينقص اليهود سوى اعلان كيانهم دوليا ففعلوا دون مقاومة تذكر . ثم عندما خاضت الجيوش المعركة تحت العيون الانجليزية لسبب اخر غير تحرير فلسطين ، كضم اجزاء منها قبل ان يضمها حاكم عربي اخر ، وتلهية الشعوب العربية عن واقعها الاجتماعي المظلم . وبينما كان الفريق الصهيوني يؤمن ان « الحرب الحديثة هي حرب الشعب بطاقته الكاملة وحياته العامة .. فكل واحد يعتبر في الجبهة ، طوعا او كرها ، وسيان أكان رجلا ام امرأة ، كبيرا ام صغيرا . » كان الوسيط الدولي يحكي عن المنافسة الحادة بين ملك مصر وملك شرق الاردن ... فقد اخبره فاروق انه استلم عدة شكاوى من حكومة شرقي الاردن وقيادتها ، مفادها ان العلم المصري المرفوع في فلسطين اكبر بعشرة سنتيمترات من العلم الاردني ، مما اثار عدة مشاكل خطيرة يجب تسويتها ! » (الجزء الاول ص ١٣٠) . وهكذا انتهت الحرب في فلسطين لصالح الصهيونيين. وكان من نتيجة الغزوة الصهيونية للوطن العربي ان تجمع الاشقاء ، والهبت النكبة فيهم روح الثورة ، فقامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ومن اهم اسبابها نكبة فلسطين . « وهكذا غدت اسرائيل رحى البلاد العربية .. ولكننا نراها كارثة اكبر ان يضيع الوطن العربي وقته وتفكيره وجهوده على مظهر الغزوة الصهيونية السياسي او العسكري، ويغفل ما في طياتها من عوامل اجتماعية واقتصادية وعلمية ، وعن كونها قاعدة ارتكاز للاستعمار وشتى الغزاة ... فينصرف عن العمل الانشائي في كل ميدان وعلى اوسع نطاق وباستمرار ، الى التفكير في مآسي النازحين العرب ، او البحث في مقدار التعويضات المطلوبة من اسرائيل او تكريس الجهود لمغامرة حزبية فيها . وهذا لا ينفي - وانما هو دليل على - تقديرنا العميق لما يعنيه وجود اسرائيل من نكبة ليس التشرد او العبودية او الفناء اهم مظاهرها ، لانها التشرد والعبودية والفناء جميعا ... » (الجزء الاول ص ١٤٩ و ١٥٠) .

ثم يرجع المؤلف نكبة فلسطين الى الجذور العميقة للتخلف بعد عصر الثورة الاسلامية الخالدة ، التي اعقبت مقتل عثمان بن عفان وقيام الدولة الاموية - وبعدها الدولة العباسية والامبراطورية العثمانية - وضياع الاشتراكية الاسلامية « وبعد ان كان الفلاحون يؤمنون في ارضهم ، وكانت الاراضي توزع على القادرين على اعمارها واستثمارها زمن عمر بن الخطاب ، غدت مصادر الخراج المرهق ايام الامويين والعباسيين ، ثم أمسى الحكام يوزعونها كاقطاعيات واسعة للاتابكة وغيرهم من الدخلاء . واخذت بالظهور والنمو طبقة من الاقطاعيين يتقاسم افرادها اجود الاراضي في الوطن العربي ويستغلون خيراتها وجهود فلاحيها ، وكان ان تأخرت الزراعة وخربت وسائل الري ، وازداد الفقراء فقرا ، لان الاغنياء اصروا على ان يزدادوا غنى . بل ان كل اصلاح زراعي او تقدم صناعي عرفه حديثا وطننا العربي قد احتكره الحكام والاقطاعيون لمصالحهم الخاصة . فمحمد علي اعتبر اراضي مصر ملكا له ، وانتشرت زراعة القطن فيها لمنفعة اشخاص معدودين . واسهم شركة القناة باعها اسماعيل لينفق على ملذاته ... وهذا الاستغلال الاقتصادي مما جعل الشعب ينقم على الامويين وعلى العباسيين وعلى الحكام في كل بلد في الوطن العربي . (الجزء الاول ص ٢١٩) ويتهم المؤلف الحكام العرب بانهم لحفظ اوضاعهم الطبقية وامتيازاتهم، حاربوا كل فكر جديد ، وحطموا كل حرية فكرية ، وحاربوا المعتزلة واخوان الصفاء وابن عربي وابن رشد وغيرهم من المفكرين العرب . « لذلك كانت النكبة نتاج حكام تعاقبوا على وطننا الفا وثلاثمائة من السنين .». (الجزء الاول ص ٢٤٠) .

ويمضي المؤلف في اندفاعه الى غايته يفكر كل تقدم عربي وكل هبة عربية وكل علم عربي وكل فكر عربي ، كقوله « وخلال مئات السنين كان كل عربي احد اثنين : اما شاكرا للحكام حامدا لنعمائهم ، او غاضبا عليهم صابرا على بلوائهم .. » (الجزء الاول ص ٢٦٨) ولسنا بحاجة الى ذكر تاريخ الثورات والهبات في طول الوطن العربي وعرضه ، اذ ان معظمها وارد في المراجع الكثيرة التي ذكرها المؤلف في نهاية الجزء الثاني من مؤلفه الضخم . ومع اعترافنا بالتأخر العربي وفساد الاجهزة الحاكمة قبل نكبة فلسطين ، الا اننا لا يمكن ان نقر المؤلف على هجومه السافر ضد الشخصية العربية والشعوب العربية واتهامها « باستخذاء النفسية العربية وتخليها عن مسئولياتها وتصورها انها الات مسيرة في ايدي الفئات المتسلطة .. » (الجزء الاول ص ٢٧٠ و ٢٧١) فبدون خوض في بطون كتب التاريخ ، لا نحسب ان المؤلف يغفل عن الاشادة بثورة ٢٣ يوليو المجيدة في مصر ، وثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق ، وثورة الجزائر ، وثورة اليمن ، والثورات المتعددة في كافة ارجاء الوطن

العربي ضد الاستعمار والرجعية والتخلف والنكبة . كما لا يمكن ان نقره على ان « النكبة الحانقة بالوطن العربي استمرت ثلاثة عشر قرنا.» (الجزء الاول ص ٢٨٦) لاننا بذلك نلغي الصفحات المجيدة في التاريخ العربي ، بل نلغي القومية العربية ذاتها ، لان القومية العربية لم تشهد اقصى حالات ازدهارها الا بعد ظهور الاسلام وامتداد الفتوحات الاسلامية مع مسيرة الزمن . بل لا بد ان نشيد بتاثير الازدهار العربي بعد الاسلام في تقدم البشرية جمعاء .

وفي فصلين متتاليين نجد المؤلف كوطني عربي معتز بقوميته ، بمخاطر الانغماس في كلتا الحضارتين الغربية والسوفييتية كمظهر من مظاهر النكبة ، رغم اشادته بالثورة الصناعية في غرب اوروبا،وبالفلسفة الماركسية ونتاجها في شرق اوروبا .

واذا ما اتم الدكتور وليد قمحاوي الجزء الاول من الكتاب (٢٥٥ صفحة) ، بعد ان عرض لنا في ثلاثة اقسام كبيرة ، النكبة عبر التاريخ، وعناصر الغزوة الصهيونية ، وتأثير الغزوة الصهيونية وتأثارها بالوطن العربي ، وفلسفة النكبة واخطارها في الفترة الانتقالية بين النكبة والبناء حتى قيام الثورة العربية الناصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يقودنا الى الجزء الثاني والاكبر من الكتاب في حديث طويل ممتع عن البناء ، بناء الوطن العربي وخلاصه من النكبة . فيستهل حديثه في الجزء الثاني من الكتاب بهذه الكلمات للرئيس جمال عبد الناصر : «ان القومية ليست فقط حركة سياسية ، وانما هي فلسفة اجتماعية .. انها نداء عاطفي ومصلحة مشتركة .. وكما هي شعار ، لا بد ان تكون تخطيطا اجتماعيا . وكما هي جموع وحشود ، لا بد ان تكون ايضا تعبئة اقتصادية كاملة . وكما هي طاقة حماس ، لا بد ان تكون ايضا جهدا وعرقا . وكما هي حلم ، لا بد ان تترجم الى مستوى معيشة لائق لجميع العرب . تلك هي الحماية الحقيقية للقومية العربية . ذلك انه لا كرامة لجائع ولا قوة لمريض ولا طمأنينة لمن لا بيت له ، ولا مقاومة ولا صمود لمن لا يطمئن الى غده ولمن لا يشعر ان من حوله مجتمعا يكفله ويرعاه، ولا يسلبه حقه ولا يستغله ، ومن ثم لا يهدد حريته . وسينتصر شعبنا ما بقيت لنا ارادة الحياة وارادة النصر . »

ومن هنا يتضح لنا على الفور مدى الايمان العميق الذي يكنه المؤلف للقومية العربية وللوحدة العربية وللاشتراكية ، ومدى تمسكه بالقيادة المبدعة للثورة العربية الاشتراكية . هو يؤمن ويؤكد ان لا نجاح الا بالحرية والاشتراكية والوحدة ، لا خلاص من النكبة ، الا اذا تحرر كل جزء عربي من المحيط الى الخليج ، لتعود الى الوجود الدولة العربية المتحدة ، حرة اشتراكية ، بلا استعمار ولا رجعية ، ولهذا فان الثورة العربية الناصرية الاشتراكية هي المنطلق الوحيد للثورة العربية الاشتراكية الكبرى . وهو يؤمن بجمال عبد الناصر لانه « لم ينزل من السماء ، ولم ينحدر من صلب غاز او مليك ، وانما كان واحدا منا ــ من الشعب العربي ــ ترعرع وهو يحس باحاسيسنا ، ويتكلم لغتنا ، ويؤلمه ما يؤلمنا ، ويهتف كما هتفنا ، ويحلم كما حلمنا ، ويأمل كما املنا .. انه بشر مثلنا ــ يخطىء مثلما نخطىء ، ويجرب مثلما نجرب،ويندفع مثلما اندفعنا .. انه لا يعتمد على فرمان الهي او جاه موروث او عصبية قبلية وانما علينا نحن الشعب .. » (الجزء الثاني ص ١٠ و ١١) والمؤلف يشيد في وعي تام بانتصارات الجمهورية العربية المتحدة وثورتها وقيادتها ، لان هذه القيادة تمثل ابداعا حقيقيا بكشفها عن الطاقات العربية المبدعة وتحقيق اماني الامة العربية ، بابعادها العميقة ونظرتها الشمولية للوطن العربي وللعالم باسره. ويسرد المؤلف بالتمجيد المكاسب الاشتراكية العديدة التي حققتها الثورة للمواطن العربي : التاميم ، قوانين يوليو الاشتراكية ، ٢٥ بالمئة من الارباح للعمال ، اشتراك العمال في مجالس الادارة ، السد العالي ، الموقف العربي الصلب النابع من ارضنا .. الى غير ذلك . ويؤمن المؤلف بالوحدة والاشتراكية كخط وحيد واساسي للتغلب على النكبة وانشاء وطن عربي قومي من المحيط الى الخليج « تكون الثورة العربية الناصرية المنطلق الرئيسي نحو الثورة العربية الاشتراكية ، وتكون بالتالي اعظم واروع حركة شهدها الوطن العربي طوال ثلاثة عشر قرنا . » (الجزء الثاني ص ٨٤) .

ثم حدثنا المؤلف عن ثورة عربية اخرى ، هي ثورة الجزائر التي اعادت العروبة الى ذلك الجزء الذي عزله الاستعمار عن الوطن العربي وعن القومية العربية ، التي تعد خطوة كبرى في طريق الثورة العربية الاشتراكية الكبرى . ثم حدثنا حديث العربي المسلم المؤمن بأن الاسلام لم يكن دينا عظيما فحسب انما هو ثورة اجتماعية شاملة من اجل تنظيم المجتمع العربي وتحريره ومنع الظلم الاجتماعي عنه واتاحة كافة الحريات له . « وبين ثورة محمد المبدعة لتحرير الوطن العربي من الغزاة وتحقيق وحدته وتخليص الانسان من الظلم والاستغلال والجمود .. وبين قيادة عمر العبقرية للمضي قدما بهذه جميعا تحت شعاره الجميل : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » .. عاش الوطن العربي اروع ايامه واكثرها اشراقا ، وادرك سكانه ان هذه الثورة هي الرد الصحيح على التحديات ــ الرد المعبر عما في وجدانهم ، والمتفاعل مع واقعهم والمحقق لامالهم ومثلهم . » (الجزء الثاني ص١٤٨).

ثم قلب المؤلف النظر في حاضر الوطن العربي فوجده اشلاء مبعثرة ، ودويلات يقوم عليها حكام يمجدون الحدود الوهمية التي فرضها الاستعمار منذ زمن قريب لتمزيق الوطن العربي ، وفوضى وخضوع فكري للحضارات الاوروبية رأسمالية وماركسية . لولا قيام نكبة فلسطين التي ايقظت الروح العربية الموحدة وجمعتها في سخط واحد والم واحد وامل واحد . فاحس الليبي باحساس السوداني، باحساس الفلسطيني تجاه اسرائيل قاعدة الاستعمار وركيزته في وطننا . ويثير هذا الكيان الصهيوني الاستعماري ، التهديد العنيف للكيان العربي ذاته لاغراض اسرائيل التوسعية في اراضي الوطن العربي ، بحيث اصبح واضحا « اننا نحن ابناء الوطن العربي المعاصرين للنصف الاخر من القرن العشرين ، نجد انفسنا في اشد المواقف حراجة ، لاننا على مفترق طريقين : البناء او الفناء .. » (الجزء الثاني ص ١٥٦) .

هذه هي القضية الحقيقية التي وضع المؤلف عليها يديه وفكره ، وواصل بحثها وشرحها من خلال صفحات الجزء الثاني من مؤلفه العظيم الذي قاربت صفحاته الخمسمائة عدا . ولا طريق للبناء غير طريق الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن يجب ان تشارك الشعوب العربية قائدها جمال عبد الناصر العمل من اجل البناء ، يجب ان يطرح شعبنا العربي الاتكالية جانبا « اذ اصبحت اكثرية الجماهير وحتى الطلائع الواعية في عدة اقطار عربية متكلة على الجمهورية العربية المتحدة وقيادتها ، ومنتظرة من جمال عبد الناصر ان يأتيها بالحرية والوحدة والاشتراكية ويحقق لها كل امانيها ، بينما هي تغط في سباتها . » (الجزء الثاني ص ١٧٢) . ثم يؤكد بضرورة قيام الحركة العربية الواحدة لكافة التنظيمات الطليعية في الوطن العربي وتنسيق النشاط والحركة فيما بينها لصالح التقدم العربي . ثم يؤكد ان على كل مواطن دورا اساسيا في المعركة ، معركة البناء ومواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية والرجعية ، كل مواطن له دور في الطليعة او في القاعدة. وتنمية المواطن العربي وتوعيته هي اول واجبات الطليعة العربية لوضع الاشتراكية العربية كأمل يضيء للجماهير سبيل كفاحها لانه نابع من ذاتها ومن وجدانها . فالمواطن العربي هو قاعدة البناء العربي ، واركانه الاربعة ، الاجتماعي بالقضاء على الطائفية التي تمزق الوطن العربي ، والرجعية التي تقتل نشاط المراة نصف المجتمع ، والتاميم ، والتأمين ... والركن الثاني هو الاقتصادي ، يجب الاستفادة من كافة الثروات المعدنية والنفط ومشتقاته وتصنيعها،توزيع الارض على من يزرعها وزرعها بطرق علمية واستصلاح الاراضي وزرع الصحارى ، وايجاد التوازن التجاري في الميزان التجاري والتخطيط ، والاقتصاد الموجه . فاذا ما اتينا الى الركن الثالث ، الفكري ، فيجب ان تمحي الامية ويجب تقديس الوقت واستغلاله للصالح العربي الفردي والاجتماعي. ويجب منح فرص متكافئة في الثقافة والتعليم ، ويجب تخطيط التعليم بحيث

يصبح تربية للنشء العربي ، وتطوير اللغة العربية والثقافة العربية وتحريرها من الجمود ، واطلاق كافة الحريات الشخصية والسياسية. الثقافة العلمية المخططة هي سبيل البناء العربي ... الركن الرابع ، السياسي[1]، التحرر الكامل من الاستعمار القديم والجديد ، من كافة اشكاله والوانه سواء كانت قواعد عسكرية او معاهدات وتحالفات عسكرية ، وتحرير المواطن اجتماعيا سيحرره سياسيا ويؤمن حرية الانتخابات ، وسلطة المواطن ورقابته على الاجهزة التنفيذية والتشريعية، ثم الوحدة العربية الاشتراكية التي يجب ان تبنى على ارادة شعبية قوية ، يجب ان تكون وحدة قوية متينة لا اتحادا فيدراليا او شبه فيدرالي . واتخاذ سياسة تحررية استقلالية تقوم على الحياد الايجابي وعدم الانحياز والسلام العالمي . وسقف البناء العربي هو الرسالة الانسانية ، يجب ان تكون لنا رسالتنا النابعة من تاريخنا ووجداننا وتراثنا الاصيل ، مع استفادتنا بكافة الانجاهات الفكرية التي اثرت الفكر الانساني ، على الا نقتصر على الاشادة بالماضي العربي التليد ومحاولة الجمود عنده .

هذا هو السبيل لليقظة العربية والبناء العربي وللقضاء على النكبة وتلافي اي نكبة اخرى . وخلال كل ذلك تبنى المؤلف وجهة نظر الطليعة العربية في الجمهورية العربية المتحدة تبنيا كاملا « وما دمنا قد اعتبرنا الجمهورية العربية المتحدة نواة نموذجية فاننا نستطيع القول بأن مستقبل هذه المنطقة يعتمد على التناسب الديناميكي بين الجمهورية العربية المتحدة واسرائيل . وقد جاءت صفة الديناميكية عمدا ، لتدل على اننا لا نقصد بهذا العدد والكمية ، وانما الكيفية والثورية . » (الجزء الثاني ص ٤٣٢) . ولم يغفل المؤلف اشياء كثيرة كضرورة قيام الكيان الفلسطيني ، والجيش العربي القوي .. الخ. وانما نحن الذين اغفلناها عمدا لضيق المجال وقصوره عن استيعاب هذا العمل الضخم العظيم الذي يثلج صدر كل عربي ، ويملأه بالثقة والبهجة والامل .

على ان لنا بعض العتاب على ما نعدّه هنات كان اجدر بالمؤلف ان يترفع عنها ويتنبه لها ، وهو الكاتب العربي التقدمي الواعي بقضايا وطنه ، المحيط احاطة شمولية بالفكر الانساني في حركة تقدمه وتطوره . ففي صفحات الجزء الاول من صفحة ٩٤ الى ١٠٠ ، يتحدث عن الشعب العربي في مصر فيزعم أن ثورته سنة ١٩١٩ لم تؤمن بها عناصر كثيرة منه ، ويؤكد ان كفاح الجماهير في مصر انتهى بتسلم سعد زغلول مقاليد الحكم فيها ، ثم يسير في طريق المغالطة التاريخية عندما يؤكد أن معاهدة ١٩٣٦ تعد منطلقا للشرف والاستقلال لو اخلصت الجماهير في السير على هديها ولم تمض «في نومها اللذيذ» (ص٩٨) بل والى ابعد من ذلك يذهب الدكتور قمحاوي فيصف فترة الهجوم على العلمين في اواخر الحرب العالمية الثانية بان مصر « كانت اشبه بامرأة » ، « والحرب سجال في ارض مصر ، بينما سكانها - بفضل فادتهم - في غفلة سادرون .. » (ص ٩٩) وفيما بعد نكبة فلسطين « كان الشعب منفسما على نفسه » (ص ١٠٠) .

لا يا دكتور قمحاوي ، هذا ليس حديث نقدمي عربي ابدا ، كيف تتهم ثورة الشعب المصري العارمة سنة ١٩١٩ بانها لم تمثل الا عناصر قليلة ، الثورة التي شارك فيها كل مصري بروحه ودمه ، والتي اغفلت قيادتها البورجوازية المضمون الاجتماعي الحقيقي لها ؟ اما وصف معاهدة ١٩٣٦ بالشرف والاستقلال فذلك ما ذهبت اليه قيادة البورجوازية المصرية ممثلة في الوفد المصري . ولكن الشعب ظل في ثورة دائما ضد هذه المعاهدة التي اعتبرها صك العبودية ، لانها بنصوصها كانت تكبل كل حرية واستقلال لمصر ، وما محاولات الراسمالية المصرية بقيادة اسماعيل صدقي لاستبدالها بمعاهدة صدقي - بيفن ، وتمزيق شعبنا الواعي لها الا دليل على عنف المقاومة الشعبية لمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد قدمت جماهير شعبنا الواعية من الدماء ما ينفي عنها صفة النوم، ولم يكف شعبنا عن الثورة وتقديم الشهداء حتى قامت طليعته الواعية بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولم يمل شعبنا وجيشنا من المحاولات الهادفة لاستغلال الصراع الاستعماري الدائر على اطراف حدودنا في شمال افريقيا - لصالح التحرر ، وما محاولات الفقيد عزيز المصري وطليعة الضباط الاحرار ابان تلك الفترة الا احد الامثلة لكفاح شعبنا الصلب.

كما لا نستطيع أن نقر المؤلف على اندفاعه في اتهام الشعوب العربية بأنها كانت « غارقة في جهلها وغفلتها .. » (ص ١٢٧) فما هكذا يكون الحديث عن الشعوب المكافحة بل يجب القول ان حكام الشعوب كانوا نياما بينما الجماهير تغلي بالثورة وتعمل لها . بل انه يتجاهل حتى الفترة التاريخية الهامة بين الغاء معاهدة ١٩٣٦ في ٨ اوكتوبر ١٩٥١ وقيام الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وما تخللها من ثورة الغضب التي قام بها الشعب المصري في ٢٦ يناير ١٩٥٢ واحراق الرجعية والاستعمار للقاهرة ، وكفاح الفدائيين والبوليس المصري في منطقة قناة السويس. وعشرات المعتقلات التي غصت بالمئات من شبابنا المكافح . فهو يصف هذه الفترة بأن « مصر في طور انتحاري شنيع » (الجزء الاول ص٣١.) قمة اليقظة في شعبنا يعتبرها انتحارا . ويعمد المؤلف الى استخدام كثير من التعميمات الخاطئة باتهامه كل المثقفين ، كل النشاط الثقافي، بالتضليل والتسلية الفارغة . وبالزعم بان الاستعمار ادخل بعض التغييرات الحضارية في البلاد العربية المستعمرة ...

هذه وغيرها من الهنات التي تناثرت خطأ في الكتاب ، لا تضعف من كون الكتاب اثراء حقيقيا للمكتبة العربية وللنضال العربي ، وما اكثر ما يجب ان يكتب عن كتاب « النكبة والبناء » ، ولكن مهما كان نوع الكتابة ، فانها لن تغني اطلاقا عن قراءة هذا المؤلف الفريد الرائع.

القاهرة — **احمد محمد عطية**

العائد

« ان ما سيأتي هو الصمت » .
شكسبير في ـ هاملت ـ

... ونبحث في الحروف السود عن نأمه
صلاة : أمنا الكلمه
لان البدء من ينبوع اشراقك
وان العرش يغذو نسغ اوراقك
هبينا وجهنا الاصفى
فانا قد اتيناك ..
خطانا اثقلت نزفا
وكل حامل اثمه ..
وما اثمي ؟
سؤال طاف ظمآنا
فمدي من طيوب الحرف غدرانا
ـ « ايا امي ؟
لماذا الصمت دوما سوف يأتينا
اخيرا سوف يلقانا ..؟
وان كنا ملايينا .
لماذا سوف يلقانا
عراة سوف يلقانا .. بلا كلمه ؟؟

***

مسحنا من يديك جروح ماضينا
وما جفت على كفيك من آهه
هنا غصت حروف قبلنا مره
ومدت في يد السياف أسواط
ولكنا اتينـاك ..
عبرنا نظرة السياف .. جزنا حزن ماضينا
.. ـ « أحقا كأسنا تنضب
ويطوي شمسنا مغرب ؟؟
أجيبينا ..
وهل ينضب ...
معين الكلمة الحره ؟؟
وهل نمسي الى الظلمه ؟
فداء امنا الكلمه

***

... ونبحث في الحروف السود عن حكمه
هنا سفر .. لقد خطوه بالادمع
ومدوا جسره الاضلع
فأعيتهم كنوز الكلمة الجهمه
فصدوا عن سنى ضوئك
وها ان الحروف السود ترتجف
وذاك السيف من عيني يرتشف ..
رؤى حلمي
فهل يرضيك يا أمي ؟
ونحن في دجى نبكي .. ولا بسمه ؟؟
جوابا : أمنـا الكلمه .

***

... ونبحث في الحروف السود عن ملجأ
تطاردنا عيون الشر .. لا تفتأ ..
فنرتجف
ومن دمي ..
ارى الغيلان تغترف
وصمتا كانت الكلمه
عراة في جليد الليل نرتجف
ويلعن ذلك السياف اعماقي .. بلا تهمه
وداعا : امنا الكلمه

***

... ومدت جفنها الكلمه
لتبذر في صميمي زهرة الظلمه
ـ « الا فاصمت
فهذا الليل جلاد
وحرفي امتد اعوادا
الا فليخف كل في الدجى اثمه ..
بلا بسمه ... »

***

خواء أنت يا امي
وزيف غاص في دمي
فتطفأ شمعة الحكمه
وتورق في جبيني زهرة الظلمه ..
فأرتد
وكل حامل اثمه ..
وما كلمه !!؟
.. تمد الحب غدرانا
فحرفي بات ظمآنا ..
... وغابت أمنا الكلمه ..
بلا وجه

جامعة بغداد
حاتم محمد الصكر

ندوة الاداب

الماركسية او باسم الاسلام او باسم المسيحية . انما على الافل باسمي. ولا بد من سؤال اوجهه الى الدكتور صعب : يبدو لي من قراءة الكتاب ان الدكتور صعب ، وكما اكد ذلك ايضا ، يحس بأن هناك ضرورة لاجتهادات جديدة في نطاق الاسلام . واريد ان اسأله من اين اتاكهذا الاحساس لضرورة الاجتهادات الجديدة ؟ طبعا انا شخصيا وجه الي هذا السؤال مرارا . هل تعتقد ان الاسلام يمكن ان يتسع للمدنية الحديثة ؟ كنت اقول انه لم يقدر لي ان اكون مسلما . لاني اعتقد ان قضية الدين في الحقيقة مهما حاول الانسان ان ينكر الواقع في قضية دينه تتأثر الى عمق عميق بقضية الاسرة . على انني احب الاسلام وانظر بكثير من الشغف والعمق للتراث وللثقافة الاسلامية ، وكنت دائما اقول انني لا ارى في جوهر الاسلام وصميمه ما يمكن ان يتعارض واي شيء تطرحه اي حركة تجديدية في العالم . اما موقف المسلمين فذلك شيء اخر . فيجب دائما التفريق ما بين العقيدة واتباع العقيدة. لان هناك في الحقيقة فرقا بالنسبة للاسلام وانما يصح ايضا بالنسبة للمسيحية ويصح ايضا بالنسبة للماركسية . بعد هذه المقدمة اقول : الواقع ان الماركسية تنطلق من كونها نظرية علمية تدرس المجتمع البشري في اضواء فلسفية ومنهجية خاصة بها ، وتعين سير هذا المجتمع نحو مصير معين له ، وتحاول بتوجيهاتها ان تسهم اسهاما فعليا بدفع هذا المجتمع نحو هذا المصير الذي ترى ان المجتمع البشري صائر اليه ، وسواء اسعد الانسان فيه ام لم يسعد . باعتبار ان ماركس نفسه ما تحدث عن شيء اسمه سعادة الانسان . الدين وعد الانسان بسعادة في عالم اخر أما فكرة الفردوس الارضي وان الفكرة الماركسية لم تعد بالسعادة . فكل هذا اعتقد انه من تخيلات دارسي الماركسية .الماركسية لا تدخل في هذه القضية وانما هي تعتقد ان التاريخ ، ان المجتمع البشري له بنية وله حركة تسمى هذه الحركة ديالكتيكية وان التاريخ يسير وفقا لهذه الدوافع الاساسية التي فيه ومن جملتها ارادة الانسان ايضا تلعب دورا كبيرا . والدين نفسه احد المؤثرات باعتبار انه يؤثر عبر الارادة الانسانية . ولقد لخص ماركس قوله هذا بأن الناس يصنعون تاريخهم ولكن في ظروف معينة اعطيت لهم . بمعنى ان عنصر الارادة البشرية فعال كما ان عنصر الظروف المكيفة للارادة البشرية ايضا عنصر فعال . والبشرية صائرة نحو المصير الذي تسميه الشيوعية زوال الطبقات . وكل ما تعده ما هو بالسعادة . انها تقول فلسفيا اننا الان ما زلنا في عالم الضرورة . فاذا تم للشيوعية الخروج من عالم الضرورة توصلت الى عالم الحرية . فالماركسية بالنتيجة المثل الاعلى عندها الحرية . وليس السعادة . هذا هو المثال الاعلى الماركسي .

الدكتور صعب ـ على اعتبار ان الحرية مرادفة للسعادة ...

رئيف خوري ـ هذا اجتهاد منك . ولا اقول ذلك انا . انني اصور الوقائع كما قالته هذه النظرية الماركسية . نخرج من عالم الضرورة الى عالم الحرية . نخرج من عالم الارادة الانسانية فيه مكبلة بالحاجة الى اللقمة ، بالحاجة الى مواد كثيرة ، الى عالم تؤمن فيه جميع الحاجات ويصبح الانسان حرا في ان ينعم بالاعمال العادية . يبقى عودة الى السؤال الذي وجهته الى الدكتور صعب . في رأيي ان الاسلام عندما انطلق في القرن السابع كان هو بذاته تحديا عظيما ورادعا لوضع قام بذاك الوقت ، وطرح اشياء تحدى بها الحالة التي كانت معروفة في ذلك الوقت على اساس انه كان انطلاقا نسميه الان بتعبيرنا ثورة بالنسبة للاوضاع القديمة . ثم لا اقول ان الاسلام نفسه انطلق انطلاقا ديناميكيا ، وهذه نظرية الدكتور صعب ان الاسلام يحافظ على هذه الانطلاقة الديناميكية ، وانما هم المسلمون فقدوا كثيرا من هذا الفهم الديناميكي المتحرك للاسلام والتطور مع ضرورات العصر . يبقى اننا الان بدأنا نحس هذا من اين ؟ من اننا نحن سواء كنا عربا مسيحيين او عربا مسلمين او لبنانيين او عراقيين او من اي بلد يسمى مثلا بلدا ناميا اصبحنا نحس بهذا التحدي . بأي تأثير ؟ لا بتأثير الديانة المسيحية ولا حتى بتأثير الاسلام وانما هو اطلاعنا على الثقافة الغربية وعلى ما طرحه تطور تحدي العصر بنفسه هو بالذات الذي حملنا على ان نحاول تفسير مذاهبنا الدينية ومذاهبنا تفسيرا اخر لكي يلائم العصر . وهنا اظن انني بالرغم من تلاقي مع الدكتور حسن صعببكثير من الاشياء اختلف معه اختلافا جذريا . انا اقول انه هو يريد الانطلاق من الاسلام ، ان يواجه تحديات العصر الحديث ، اقول له ولكنك انت لم تحس بهذه الضرورة ان الاسلام يجب ان يتنبه لتحديات العصر الحديث الا بفعل التحديات نفسها . انت لم تستمد هذا الموقف الخلاق من الاسلام نفسه انما انت استمددته من ثقافة اخرى وعدت تنظر في الاسلام وتحمله الطاقة لمواجهة الوضع القائم . وعلى اي حال فهذا لا ينفي اننا يجب ان نفتش ونحن نسير في موكب الفكر عن كل طاقة وقوة ممكن ان نستمدها سواء من الدين او من الموقف العلماني لكي نسير في موكب التقدم . اما ان نعتقد اننا انطلاقا من دين سواء أكان الاسلام او كل دين اخر اعتقد انه وضع النتيجة في موضع السبب ، يعني الاسلام كان سببا في عصر معين ، والان ليس فيه ما يعارض الاضطراد في التقدم في عصرنا الحديث . لكن هذا يتوقف على المسلمين . ماذا يصنعون بالاسلام . أما الاسلام نفسه اذا ترك نصوصا فان كل شخص سيفهم على طريقته هذه النصوص كما كان الواقع حتى الان ، ومن هنا وجدنا الموقف الغريب ان هناك ماركسيين يعودون الى نصوص اسلامية يستشهدون بها ، وهناك دينيون يأتون بنصوص دينية وماركسية ومسيحية ايضا ، فيؤيدون مواقفهم وهناك التزاميون ايضا يعودون الى التراث العربي والاسلامي ويأتون بما يؤيد مواقفهم. ومعنى ذلك بالطبع ان هذا التراث غني وفيه اشياء كثيرة تساعدنا في مضينا بالركب الحضاري . اما ان يكون هذا هو المقول الاول في الانتفاع بهذا الركب الحضاري العتيد ، فيصعب جدا في رأيي ولا يمكن لا للاسلام

ولا لاي دين اخر ان يكون هو هذا المنطلق وبالنتيجة التقدم سيكون هو نتيجة التفاعل بين الفكر الحديث المتحرر وبين الفكر العلمي العلماني ايضا ، بمعنى ان التفاعل بينهما هو الذي يعطي الانسان هذه الحيوية الخلاقة التي تمضي به في التقدم . وفي رأيي ان الذي قاله الدكتور عن التحدي ان الاسلام يقول الحقيقة من عند الله كما يقول كل دين وليس الاسلام وحده ، وان العلم يقول ان الحقيقة من العقل الانساني وفي الواقع هو قول الشيء نفسه بعبارتين مختلفتين لان العقل الانساني هو ايضا من عند الله في رأيي والله ذاته كما اتصوره في روعته وعظمته كثير قد كان ايضا عطاء ابداع الانبياء وابداع المفكرين والبشر ايضا والا لولا العقل الانساني ايضا لما كان يتجلى الله . فهو قول الشيء نفسه الدين لازم كما ان العلم لازم وليس فقط هذا وانا اعتقد ان العقل البشري ما مس فيه شيء سواء اكان يتعلق بالله او بالعقول الانسانية او بالغيب الا بالنتيجة اذا فهمناه بعمقه وبمغزاه كان ينطوي على شيء من الحق .

عائدة ادريس :

الحل النهائي لوضعنا هو انه لا يمكن ان نتخلص من الماضي ومن تراثه وروحيته ، وفي الوقت ذاته لا يمكن تجاهل التحديات الجديدة. يجب اذن ان نفهم القديم فهما جديدا . وهذا ما حاوله الدكتور صعب. اليس كذلك ؟

رئيف خوري :

ان ما صنعه الدكتور صعب يهنأ عليه من صميم القلب مهما كان رأينا بالتفاصيل . لقد حاول بعمق وبثقافة غنية وباضواء بهية سخية ايضا ان يفهم القديم فهما جديدا تماما . يعني ان يعيد اليه رحابته وروحيته . هذه هي قيمة الكتاب في رأيي ، وقد كانت قراءته متعة بالرغم من اني كنت اتمنى عليه ان يقف اطول عند كثير من القضايا لانه ألم بقضايا كثيرة . كل قضية فيها لا تحتمل كتابا بل مجلدا . انني احب ان احس باننا قد كسبنا كسبا فكريا في العالم العربي ، كسبا فكريا جديدا هو اننا اصبحنا نستطيع انّ نحاول فهم التراث حتى المقدسات فهما جديدا متغذيا بمفهومات العصر (حتى لا يستاء الدكتور صبحي الصالح من قولنا بمفاهيم !) لانيّ انا من الذين يؤمنون بأن الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور .

الدكتور حسن صعب :

انا اشكر الاخ الاستاذ رئيف خوري على ما قاله في المقدمة والخاتمة معا ، والجواب على السؤال هو ان الانسان يعي ذاته وعيا جديدا تحت وطأة التحديات ، فيعود الى اكتشاف ذاته اكتشافا جديدا ومن خلال هذا الاكتشاف الجديد للذات الاسلامية تحت وطأة التحديات سواء اكان منها الغربية او الماركسية او التي نسميها التحديات الشرقية. هؤلاء المسلمون الذين فهموا الاسلام وفهموا التاريخ على انه قدرية غيبية ضلوا عن سبيل الله وعن سبيل الاسلام ولذلك عدت الى تذكير نفسي وتذكيرهم (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) بان الله نفسه جعل التغير قانونا من قوانين هذا الوجود . فالاسلام نفسه قد اخذ بهذا القانون . نادى بان الحقيقة الاولى والاخيرة هي وجود الله . ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك . فاذن هذا التحدي هو في الاصل كما نفضل تحد خارجي ولكن بعد ان عدت لفهم الاسلام وجدت ايضا انه تحد اسلامي وتحد قرآني . ان القرآن يتحدى المسلمين في كل لحظة بان يفهموه فهما جديدا وحينما كان المسلمون يعون كل هذا كان للمسلمين الشافعي وابو حنيفة وابن رشد وابن خلدون ، هؤلاء الذين تفتخر بهم الانسانية . وحينما وقف المسلمون عند هذا الحد لم يعد بين علماء المسلمين مسلم يذكر . واريد اليوم ان يعود العالم الاسلامي الى انبات عبقري جديد كل يوم من الايام ، واعتقد ان الشرط الرئيسي لذلك هو العودة الى فهم الاسلام بحقيقته القرآنية التي تتحدانا كل يوم بفهم جديد واجتهاد جديد .

رئيف خوري :

ولكن ذلك لن يتم الا ان يعي المسلم الثقافات العالمية وانت فهمت ما فهمت وصرت ترى القرآن هذه الرؤيا الجديدة بأثر من الثقافة العالمية .

الدكتور صعب :

موافق ، الفلسفة الغربية ، والديانة المسيحية الى حد ما والهندوكية .

رئيف خوري :

لي اقتراح ان الانطلاق الاساسي في ادراك مدى ما مثل الاسلام من انطلاقة تحررية في العصر السابع والثامن هو حجر زاوية لهذه المحاولة التي يحاولها الدكتور وجميع احرار الفكر والمجددين من المفكرين . ولذلك تجب كتابة التاريخ كتابة جديدة وفي رأيي ان محمد والقرآن هما في الحقيقة يمثلان اكثر من الفارابي وحتى من ابن خلدون نفسه وهذه الفروع او الروافد ، وفي القرآن مواقف ملخصة رائعة لكن ليس اي كان يفهمها . يجب ان يكون قد اغتذى من الثقافات العالمية . انت تلوت الاية « والعصر ان الانسان لفي خسر » لماذا فهمتها هذا الفهم ؟ لقد فهمتها بصفتك ابن الثقافة الحديثة .

الدكتور صعب ـ موافق .

عايدة ادريس :

احب ان اسأل الاب الدكتور فريد جبر باعتباره من رجال الدين الذين يتفاعلون مع الطلاب اي مع الجيل الجديد ، هل تلاحظ بالفعل ان تلك التحديات التي يتحدث عنها الدكتور صعب تواجه الجيل الجديد ؟ وهل يستطيع الدين سواء اكان الدين اسلاميا ام مسيحيا ان يواجه ذاك الصراع الذي يعانيه هذا الجيل بين الجديد والقديم وخاصة بين فكرة الالحاد او فكرة « ترك الله جانبا » والاقبال على واقع الحياة ؟

الدكتور فريد جبر :

لو سمحت ان اباشر بحديثي على ما تسألين بأن اهنيء الدكتور صعب على هذه الناحية التي حاول ان يبرزها . وهي مهمة في رأيي . وهي اننا لا نستطيع ان نستغني عن الفلسفة في حياتنا العصرية .وكل موقف من مواقف حياتنا انما يعتمد على مواقف فلسفية . والرأي العام وما يقال اننا اصبحنا اليوم بغنى عن الفلسفة وان العلوم الاجتماعية التي تعتمد وترتكز على معلومات او مفهومات نسبية فقط انما هذه العلوم فقط تكفينا وتغنينا ان نكون بغنى عن الفلسفة . واريد ان اهنيء الدكتور حسن صعب على انه لفت انتباه قرائه والناس الى هذه الناحية المهمة . فالفلسفة لا بد منها ومهما فعلنا نركز عملنا فقط على مبادىء فلسفية عفوية كانت او معروفة حاضرة للذهن . اما فيما يختص بموقف الشبيبة اليوم من حيث الدين او من حيث الالحاد فالدكتور حسن صعب في جوابه على الدكتور صبحي الصالح على حق في قوله ان تحديات اليوم قائمة على طرفين : طرف الحقيقة التي تأتي من الله وطرف ما استطيع ان اسميه النسبية او معلومات العقل التي تأتي فقط من العلم . فهل هناك تناقض بين العلم من ناحية ، وبين الحقيقة التي ينشدها العلم من الناحية الاخرى ؟ الرأي الراجح في هذه الناحية هو ان الحق من ناحية العلم ، وليس من ناحية الحقيقة التي تأتينا من الله . والدكتور حسن صعب يحاول ان يثبت ما هو عكس ذلك . انما فيما يختص بالاسلام وبصفتي استاذا في الجامعة اللبنانية لتاريخ الفكر الاسلامي اريد ان استفهم من الدكتور حسن صعب كيف يمكن ان يقال في الاسلام انه دين وليس دولة . مع ان تاريخ الاسلام من اوله حتى يومنا هذا يدلنا على ان المسلمين لم يفصلوا يوما بين هذين الطرفين. وكنت احب من زميلي الدكتور صعب ان يبين لي ذلك : كيف ان الاسلام حقيقة من الله ومع ذلك يستطيع ان يبقى دائما على ما هو في ذاته وان يجاري ويماشي تيارات العصر المختلفة والتغييرات التي تطرأ على امور هذه الدنيا ؟ لقد حاول في فصله عن الفارابي ان يبين كيف ان مسلما من المسلمين وهو الفارابي مشهور من اصحاب الفكر الانساني حاول ان يبين ذلك ويثبت ان الدين الاسلامي يستطيع ان يتبلور ويماشي العصر في كل تغييراته وتقلباته . ولكن الفارابي لا اظن انه يمثل الاسلام حقا

لقد ذكر الدكتور حسن صعب الغزالي في جوابه ايضا على الدكتور صبحي الصالح . هنا كنت احب من الدكتور صعب ان يزيدنا من العلم في ذلك ، لان الغزالي شيخي ، وقد عاشرته مدة سنوات وسنوات حتى اني احفظ بعض المقاطع من نصوصه غيبا ، الغزالي اول مفكر في الاسلام حاول ان يميز كما يقول بين الدنيويات والاخرويات وله في ذلك نصوص رائعة ولا سيما في احياء يوم الدين ولو سمحتم ولو لم اكن مسلما ، ان اشير على المسلمين في هذه الناحية وان يعودوا الى الغزالي لانه سمي وعرف بانه حجة الاسلام وحين اعلم انه كان عبقرية من عباقرة الاسلام لماذا لانه بمؤلفاته وبتفكيره فرض الاسلام دينا وايمانا على عقول الناس بدون اعتماد على القوة والعنف . وهذا يدل على انه كان صاحب فكر عميق يستطيع ان ينال من نفس الانسان اعماقها بحيث يوصل اليها الاقناع في العمق . هذا ما كنت اتمناه عندما كنت اطالع هذا الكتاب كيف يستطيع المسلمون اليوم باخلاصهم لقرآنهم وحديثهم ولسنتهم ان يميزوا بين الزمنيات والاخرويات لان هذا التمييز قائم تقوم عليه كل حياتنا العصرية . الفصل بين الدين والدولة الذي كان الغزالي سبق واشار اليه بقوله الفصل بين الدنيويات والاخرويات وبين الزمنيات والابديات . لو عالج الدكتور حسن صعب موضوعا من هذه الناحية لا شك كان قديرا وهذا امر لا شك فيه . كان بوسعه ان يتحفنا بشيء جديد من هذه الناحية . لو سمحتم انا اقول ذلك بيقين تام اننا لا نزال في انتظار حل مقنع مع هذه الناحية . الغزالي وجد الحل المقنع لمجتمعه في هذا التمييز بين الدنيويات والاخرويات ولكن العصر الذي عاش فيه كان عصرا يؤمن ايمانا ثابتا ليس فقط في الشرق ولكن ايضا في الغرب . ان الدين قائم على الدولة والواقع هذا هو ويشهد له التاريخ . والغزالي استطاع ان يفصل بين ما يمكن للدولة ان تتدخل فيه وبين ما لا يمكن ان تناله . ولو سمح لي زميلي الدكتور حسن صعب ان ارجوه ان يعود الى هذا الموضوع فيطلعنا على شيء وضعي ويرينا بالنصوص كما فعل الغزالي وبالجمع بين النصوص التي تتناول الروحانيات وبالنصوص التي تتناول الدنيويات ، نصوص اسلامية محضة لا يبدل فيها ولا يغير فقد يستخرج ويستنبط روحه وهذه الروح تبرز لنا في اسمى معانيها واجلاها ويرينا بعد ذلك كيف ان المسلم المعاصر يستطيع فعلا ان يعيش في دنياه في مجتمع قائم على الفصل بين الدين والدولة ويكون حينذاك فعلا مطمئنا الى اسلامه كما تدل عليه نصوصه وقرآنه . واعود واقول انني بصفتي استاذ تاريخ الفكر الاسلامي اتتبع كل تطورات الاسلام لمختلف العصور لا ازال اتوقع عملا من هذا النوع واظن انه سيكون ، ان تم ان اشاء الله ، عملا منتجا ونافعا يرمي الطمانينة في النفوس ويبعد عنها القلق. ونستطيع بعد ذلك. (الدكتور صعب : ان نشهد ظهور غزالي جديد ! ..) .

الدكتور جبر : على كل الله كريم . نستطيع بعد ذلك ان ننتقل الى تلك الناحية التي يشير اليها الدكتور صعب واهنئه على انه تناولها وتناولها بشجاعة وهي العلاقات بين افراد تضمهم عائلة واحدة واسرة واحدة نسميها وطنا واحدا الافراد يكونون متصلين فيما بينهم والعلاقات بينهم قائمة على الحب ، حب قائم على تسامح وتساهل ليس تجاهلا يعرف كل شخص منا ما عند اخيه وان ليس عند اخيه اغراض ضده ويحترم هذا الذي عند اخيه كما انه يستطيع ايضا ان يطالب اخاه بنفس الاحترام الذي يريده عند اخيه . وكل ذلك قائم على مفهوم ما الفنا ان نسميه باللغة العربية الشخص الانساني والدكتور صبحي الصالح يشهد على اني لا ازال بمساعدته ابحث باللغة العربية عن لفظة تدل على ما تدل عليه لفظة Personne باللغة الفرنسية . هذه اللفظة لا تدل على شبح او اطار مادي ولكنها تدل على معنى ، والمعنى هنا ما كان يتخذه العرب في قديمهم عندما كانوا يشعرون شعورا مبهما بلغتهم العربية . المعنى اعني الشيء الروحاني القائم بنفسه ، هذا هو ما تدل عليه كلمة او لفظة « برسون » . وانا اطلب من الدكتور صعب ان يحاول ان يدلنا على الحل المرضي في هاتين المشكلتين : مشكلة فصل الدنيويات عن الاخرويات ثم مشكلة علاقة الفرد الانساني باخيه الفرد الانساني الاخر كل منهما يقف من اخيه موقف الحب والاحترام الخالص الذي لا يبت شيئا ثم بعد ذلك كل منهما يعرف ما عند اخيه ومع ذلك يبقى هو في موقفه ويدع اخاه في موقفه ايضا ويتركان الامر لله .

الدكتور صعب :

انا شاكر كل هذه الملاحظات القيمة ، وانا اول من يقول بكل تواضع وبكل اخلاص بان كل موضوع من الموضوعات التي عولجت في الكتاب ما تزال بحاجة الى المزيد والتعمق خاصة هذا الموضوع المتعلق بالدين والدولة في الاسلام ولذلك ابدي ملاحظات سريعة حول الموضوع . الملاحظة الاولى هي اننا نحن المسلمين قد خلطنا حتى الان بين الدولة كوسيلة والدولة كغاية . الدولة كغاية ليس لها وجود في الاسلام لانه لا في القرآن ولا في الحديث ولا في نصوص حتى الائمة الذين تحدثوا في الخلافة ، الائمة الذين استندوا الى اجتماع الصحابة على اقامة الخلافة اعتبروا الخلافة اي الدولة ضرورية لتنفيذ الشرع .. فالاصل في الاسلام هو الشرع لا الدولة ، الدولة هي وسيلة عارضة والدولة بامكاناتها المتغيرة كل يوم من صنع الانسان وهي وليدة ارادة الانسان والدليل على ذلك اغلب الفقهاء الذين تحدثوا في الدولة انما استندوا في القول بوجوبها لاجماع الصحابة بعد الرسول على اقامة الخلافة . فما دام الصحابة باجماعهم اقاموا الخلافة واعطوا هذا الشكل للدولة وهم من الجماعة المسلمين ، فالجماعة المسلمة حرة اليوم وغدا بأن تجمع ايضا على شكل جديد للدولة . وحينما تجمع الجماعة او تعقد ارادتها على شكل جديد للدولة لا تتعارض تعارضا اساسيا مع ما يسميه الغزالي العقائد او الاخرويات او الاصول في الاسلام . فنحن لنا مثل حرية الصحابة بعد الرسول في تكوين الدولة وتشكيلها وتنظيمها اي انني اعتقد ان الاسلام من خلال القرآن ومن خلال الحديث ترك قضية الدولة واصولها وتنظيمها وشكلها لارادة الانسان ، وهذه من الامور التي انعم الله بها على الانسان . وحينما نرجع الى اركان الاسلام واركان الايمان لا نجد بينها الدولة . وحينما نقرأ النصوص التي فسرها احسن ما فسرها ابن خلدون من الائمة نجده يقول لو نفذ الشرع بدون الدولة لكان هذا افضل . لماذا ؟ لانه يقول « ان غاية الشرع ان يصبح الوازع وازعا ذاتيا في نفس الانسان » اي ان يصبح سلوك الانسان فاضلا لا تحت ضغط الدولة ولكن نتيجة لاقتناعه وايمانه بالخير الداخلي وهذا اروع ما تعطيه اليوم النظريات الاجتماعية السياسية لقضية تطور الانسان من دولة الاكراه الى دولة الاقناع . فالدولة بنظر الاسلام بمبدأها وشكلها شيء عارض وشيء شكله الارادة الانسانية . ولذلك يمكننا ان نجتهد حولها ما دام هذا الاجتهاد لا يؤدي بنا بالنتيجة للتنكر لما هو سائد اي اركان الاسلام وما يسميه الامام الغزالي الاخرويات وطبعا هذا البحث بحاجة الى المزيد من التوسع ولكن الخطأ الاكبر ان الوسيلة جعلناها غاية وان العرض جعلناه جوهرا. الجوهر بالنسبة للاسلام ليس الدولة بل الانسان ولذلك تساؤلك الثاني تساؤل انساني . وحينما نقرأ جوهر ما يقوله الائمة والمجتهدون نجدهم يقولون انما المقصود به هو كلمة صيانة هي ابلغ بكثير من كلمة سعادة وهنا نلتقي مع احدث ما صدر عن قداسة البابا حينما قال في اختتام المجمع المسكوني « ونحن ايضا نمجد الانسان » . ويعتبر الدولة وسيلة من اجل الاسلام بحيث انه اذا استغنى عن الانسان فلا داعي لها والآيات الموجودة في القرآن من حيث تمجيد الانسان واعزاز الانسان واكرام الانسان وافرة . وابلغ آية من هذه الآيات حينما ينص القرآن على ان الله جعل الانسان خليفة له في الارض وهذا اكرم ما يمكن ان يرفع اليه الانسان . واما من ناحية التعبير فالغالب في القرآن الانسان اما تحديد الشخص او الفرد فلا شك ان هذا بحاجة الى مجهودات اضافية حتى نستطيع ان نتلمس الالتقاء بين المفهوم المسيحي او المفاهيم الفلسفية او المفهوم الماركسي والمفهوم الاسلامي . لكن جعل الانسان خليفة الله في الارض هو في نظري ارفع شكل من اشكال الانسانية «الاومانيسم» الذي يمكن ان يعرف باي زمان او مكان .

الاب فريد جبر :

دكتور صعب – احب ان اوجه اليه سؤالا فقط فاقول : تقول حضرتكم ان الشرع ذاته في خدمة الانسان ، وان الدولة تساعد على اقناع الانسان بالشرع ولكن عندما نعود الى معنى الدولة من دال يدول، نجده شيئا يفيد معنى التقلب ، والدولة تتناول المجتمع في تنظيماتها كلها ولكن هذا المجتمع كما تدلنا عليه ايضا العلوم الاجتماعية هو ايضا في تقلب وتغير مستمرين . وما هو وارد في الآيات القرآنية غايته تنظيم المجتمع فهل نستطيع ان نوفق بين تنظيم المجتمع هذا الذي هو خاضع للتغيير والتقديم وبين ابدية الشرع او ازليته التي لا يمكن ان تتغير او تتبدل ؟

الدكتور حسن صعب :

تغير الاحكام قاعدة اصولية اخرى « لا ضرر ولا ضرار » حتى في الآيات واول من ابتدأ في الاجتهاد في القرآن الكريم الخليفة العظيم عمر بن الخطاب والقرآن الكريم نفسه . ويذهب الخليفة عمر في هذا وهو قدوتنا الى حد انه في عام من اعوام المجاعة اوقف حد السرقة لانه اعتبر ان الغاية من هذا الحد الذي اراده الله هو اصلاح الانسان وهؤلاء الناس ليسوا بوارد أصلاح بل بوارد اكل ، فلذلك اوقف الحد . وهل يمكن ان نكون نحن اغير على الاسلام من عمر بن الخطاب ؟ فليكن اذا عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء والائمة الذين فهموا هذه النصوص فهما جديدا واستطاعوا ان يميزوا تمييزا واضحا بين ما هو ابدي وما هو متغير ولولا ذلك لما صدر عنه شأن ولتكن لنا قدوة به .

الاب فريد جبر :

فاذن أتعود الى ما يقوله الغزالي في « فيصل التفرقة عن الاسلام والزندقة » حين يميز بين الاصول والفروع يذكر من الاصول فقط الايمان بالله وباليوم الاخر والنبوة ليس اكثر .

الدكتور حسن صعب :

لا بد من هذا التمييز بين الاصول والفروع سواء اوصلنا الى نتائج الغزالي او الى نتائج غيره لانني شخصيا لا اوافق الغزالي في كثير من النواحي وخصوصا ان الغزالي نفسه استخدم لغير ما اراده . فمع الاسف بدل ان يكون حجة الاسلام احتج به لايقاف الاسلام عن النمو والتطور . ولذلك تراني متحفظا جدا بالاقتراب من الامام الغزالي، وكما ان الاثينيين صلبوا سقراط واعدموه كذلك المسلمون اعدموا الغزالي . وانا اوافقك على اننا بحاجة الى فهم الغزالي نفسه من جديد حتى لا يبقى عنصر ايقاف للعقل الاسلامي كما حصل هذا في ازمنة التأخر .

رئيف خوري :

اعتقد ان الذي احسسته من الكتاب لا ادري ان كنت انا حملت الكتاب اكثر مما اردته انت يا دكتور صعب . الموقف الذي تحدث عنه الاب جبر هو لا يزال الموقف موقف تخصيص الصلاحيات ، فصل القطاعات ، اظن ان هذا الموقف قديم وما عاد يغني في العصر ان نفصل هذا قطاع دنيوي وهذا قطاع اخروي . لماذا ؟ لان الفكر العصري اثبت العلاقة الجذرية بين الدنيا والاخرة . واثبت ان كثيرا من الافكار التي نصف بها السماء على انها حقا افكار انسانية ، ولذلك الذي يقوم الان في رأيي والذي حاولت ربما انت – ولا ادري اذا قصدت الى ذلك – ان نحل محل التوفيق ما يسمى الدمج Synthèse اي ان يكون الله فاعلا في الطبيعة موجودا قائما . والانسان في الان نفسه متفاعلا بذاته. بمعنى انه ينتج من هذا انه قد يجيئك من يقول انا منكر لوجود الله لكنه يسعى الى ان يحقق للانسان خلافة الله في الارض او رسالته ، وفي رأيي أن هذا الانسان ليس ملحدا ولو قال عن نفسه انه ملحد . وربما هو ملحد لله بصورة من الصور قدمها اليه بعض الاخرين لمن صوروا الله لاننا ايضا يجب ان لا ننسى ان هناك تاريخا لهذا المفهوم الذي نسميه الله ، وقد تغير هذا التاريخ بتغير الناس الذين صوروه وهناك صور متعددة للخالق بحسب مفهومات البشر عبر الاجيال،فالذي اردته انا والذي اثير في الكتاب هو قضية الانسان لن يكون ارضيا ترابيا علميا علمانيا ساعيا الى تحقيق اكثر ما يتحمله مجهود الانسان على الارض وفي الكواكب الاخرى وفي الوقت نفسه في اعماق نفسه يعرف ان هذا الامر ليس سدا وان هناك حكمة هي الخالق وهي التي عبرت عن نفسها بهذا الكائن الارضي المضيء لهذا التطور والنمو . اني اعتقد ان الاسلام كالدين المسيحي يحاول ان يصوره وهما يتحملان هذا غاية التحمل بمعنى انه في الواقع العملي نجد اناسا ملحدين يقفون مواقف اخلاقية وفي ادق مقاييس الاسلام ومقاييس المسيحية . من اين جاء هذا ؟ جاء من ان هذا في الحقيقة شكلي او هو رد على صورة لله كانت غير صحيحة بينما في اعماق النفس اعتقاد بان هذا الكون ليس عبثا وبان هناك قدرة اوجدت الانسان مطيقا لكل هذا التطور والنمو وهذان يجتمعان في الانسان نفسه . اذن اعتقد انه بلا الانسان لا اله .

الدكتور جبر : يمكن ان يكون ثمة الحاد مبدئي اعني الحاد اساسي.

الدكتور صعب : الايمان بالله والانسان متلازمان ، ولا يستقيم الايمان بالله بدون الايمان بالانسان ابدا .

عايدة ادريس :

سألت الاب جبر سؤالا ولا اراه قد رد عليه مباشرة ، هل يمكن ان يقتنع الجيل الجديد بضرورة الانصراف الى الدين لحل مشكلاته الدنيوية ؟

الاب جبر :

لا شك ان الدين يثير مشاكل عديدة ويدعو الشباب الى أن يعودوا الى انفسهم فيتبينوا فيما اذا كانوا فعلا على صواب في مواقفهم من الدين . هل يستطيعون ان يستغنوا في حياتهم عن الدين ام لا . واظن ان الاستاذ الدكتور حسن صعب يثير فيهم هذا السؤال ويساعدهم على ان يجد كل منهم الحل لنفسه . في الكتاب موعظة لكل شاب من هذه الناحية .

عايدة ادريس :

دكتور مكي لاحظت ان التحديات التي عرضها الدكتور صعب كثيرة في وجه الاسلام وخاصة في وجه الجيل العربي سواء اكان مسلما ام مسيحيا . هل تعتقد ان ما جاء في هذا الكتاب يمكن ان يكون نقطة انطلاق لتكوين حضارة عربية جديدة مشاركة فعالة في تطوير هذا المجتمع والانسانية بوجه عام ؟ وهل ما قدمه الدكتور صعب يمكن ان يكون حلا لهذه المشكلة ، لهذا الصراع ؟

الدكتور احمد مكي :

في الحقيقة للاجابة على هذا السؤال يقتضي وضع كتاب بحجم كتاب الدكتور صعب عشر مرات . في الواقع انا بعد ان جاء الاخوان على القريب والبعيد والظاهر والباطن لم يعد عندي اشياء كثيرة اقولها ولكن كما قيل لا بد مما ليس منه بد . لقد كان لي والاخ حسن جلسات طويلة تداولنا فيها مثل هذه الاراء من قريب ومن بعيد ، صعدا ونزلا ، شرقا وغربا ، ولكن هنا لاحظنا ان هذا الكتاب بالحقيقة ليس كتابا بالمعنى العلمي وانما هو مجموعة تساؤلات وهو مجموعة ملاحظات منها ما هو في منتهى العمق بحيث ان الملاحظة الواحدة تكفي لان يتوسع فيها الانسان ويسير فيها شوطا بعيدا . ولذلك – سنتكلم عن بعض هذه الملاحظات – نلاحظ ان السلك الذي ينتظم كل هذه الافكار هو في

الحقيقة سلك خفي جدا ، بحيث اننا لا نستطيع الا اذا احببنا أن نتابع المشاهد بخيالنا وفكرنا ان ننتقل من موضوع الى موضوع لان الكتاب لم يصمم على ان يكون معالجة في اساسها لتحديات الحياة العصرية للاسلام وانما كانت هذه الظاهرة خلاصة هذه الحالات التي مر فيها المفكر عندما عالج مجموعة من الموضوعات . مثلا هناك مشكلة انا أعتقد انها مشكلة مزمنة ، مشكلة التوفيق بين الدين والدنيا في الاسلام ، هذه المشكلة ، بحسب اطلاعي ودراستي للتاريخ الاسلامي ، لم تحل ولن تحل لاننا عندما ندرس سيرة الرسل نجد كُل هذا الذي تفضلتم واشرتم اليه من القابليات المتعددة للتطور والاستعدادات الطيبة للتغير لعالم الانسان . ولكن كلما درسنا الواقع ورأينا الاحداث التاريخية رأينا انكارا لكل هذا وتفسيرا سيئا له وتركيزا للاشياء اصطلح عليها فريق في وقت من الاوقات أو في مكان من الامكنة . فمثلا عندما نتساءل الان ان صح الحديث الذي روي عن النبي انه قال « انتم اعلم بامور دنياكم مني » هل صح الحديث الذي قال أن الله ليبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الامة امور دينها ودنياها؟ اذا كان هذان الحديثان قد صحا عند رجال العلم فمعنى ذلك ان هذا الفاصل المبدئي قائم بين ما هو عقيدة وسلوك وتصرف ، ولكن عندما ننظر الى التاريخ نرى ان الصراع كان دائما لعدم فصلهما . الان وفي الوقت الذي ثار فيه هذه المشكلة ، وفي الوقت الذي يقول فيه حسن صعب ان الاسلام يقف وجها لوجه أمام تحديات الحياة العصرية في هذا الوقت بالذات تستمر الازمة المزمنة بالاسلام فنرى في مصر حيث تجرب الجمهورية العربية المتحدة ان تضع اسس الدولة الحديثة كما نراها هي نرى ان الصراع على اشده بين الدولة وبين الاخوان المسلمين الذين يقولون بأنه لا يمكن ان يفصل الدين عن الدولة ، تجاه هذا ما هو الموقف الذي يجب ان نقفه من هذه القضية ؟ كيف اذن يمكن أن نخرج من هذا المأزق الذي وقع الاسلام فيه ولا يزال يعانيه حتى الان ؟ المشكل هو اننا ما دام المسلمون كما اشار الى ذلك الاستاذ رئيف خوري ، ما زال المسلمون بعيدين عن تلقي التيارات الفكرية العالمية ، يشعرون بان ما عندهم يكفيهم لا يمكن لهذه المشكلة ان تتخذ مداها الابعد . ستظل هذه المشكلة محصورة بعدد من الشباب المفكر الذين انفتحت عيونهم على عوالم غير العولم التي يعيش فيها عامة المسلمين . عندما نرى ان فكرة الدولة للاسلام هي في الحقيقة ليست فكرة الدولة ككيان سياسي ولكن فكرة الدولة في الاسلام هي فكرة وحدة عضوية تعتبر الفرد جزءا من كل وهذا الكل منتما لشيء اخر وهو الحياة الاخرى . هذا الصراع الفكري الذي عاشه المسلمون من تاريخهم لا يزالون مع الاسف يعيشونه اليوم مع الفارق لانهم غير مزودين بمعرفة دينهم من جهة وغير مستعدين لتقبل ما يأتي به العلم والمدنية الحديثة بروح طيبة ولكن هذه المشكلة تثار اليوم ، واثارتها على هذا الشكل دليل على ان هذا الموضوع لن يكون في المستقبل وقفا على طبقة معينة دائما ، سيكون مجالا رحبا فسيحا لكل من تثقف وكل من اطلع على العلم الصحيح وتثقف ثقافة صحيحة. هذا فيما يتعلق بهذه النقطة ، ولكن تبقى النقطة الاخرى وهي هل يستطيع الاسلام ان يؤمن للمسلم ما تصبو اليه نفسه من طمأنينة وسعادة ومصير آمن ؟ في ملاحظاتي الخاصة اعتقد ان هذا الشيء الذي يصبو اليه المسلمون لم يعد في الحقيقة متفقا مع واقع حياتهم .عندما نتكلم مثلا عن السعادة الدنيوية : الاسلام لم يعتبر السعادة الدنيوية منفصلة عن السعادة الاخروية . الاسلام اعتبر الجنة في الارض كما اعتبرها في السماء . « ولمن خاف مقام ربه جنتان » « هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين » . ولم يستطع الاسلام او لم يشأ الاسلام ان يفرق بين حياة الانسان هنا وحياته هناك ، ولذلك ما دامت هذه الموجة العارمة من الماديات تكتسح العالم الاسلامي دون ان يكون محصنا بروحية فان الهوة تتسع بين الاسلام كاعتقاد والاسلام كسلوك ، وما دامت هذه الهوة فاغرة فاها فيعني ذلك ان العالم الاسلامي يعيش في قلق دائم ، ويعني ذلك أن الازمة تظل مستمرة ولا اظن انه بالامكان ان نتخلص منها الى حل فهناك حلول عديدة ، ولكن الذي يمكن ان يفكر فيه بطريقة جدية وعملية هو أن نتجه دائما في مثل هذا الاتجاه الذي لا يقطع الصلة بالماضي ويظل عائشا في الحاضر ومتطلعا الى المستقبل . انا اعتقد ان كتاب « الاسلام تجاه تحديات الحياة العصريه » هو من الكتب التي تطرح مشكلة تاريخية في الفكر الاسلامي ، تطرح هذه المشكلة ولا تضع الحلول . ومن حسنات الكتاب انه لا يضع الحلول وانما يثير تساؤلات في النفوس ، وبالتالي يخطط بطريقة واضحة الطرق العديدة للاتجاهات نحو تحقيق قريب او بعيد لهذا التوافق بين الحياة الدينية والحياة الحديثة . انا اعتبر ان هذا الكتاب ينبغي ان يوسع وأن يتحد صفة الكتاب العلمي بالرجوع الى حواشيه والى مصادره لانه لا يجوز ان يوضع هذا الكتاب الا وفيه الصفات التي تجعل الكتاب في متناول الطبقة المثقفة فضلا عن الطبقة المتعلمة .

الدكتور حسن صعب :

اود ان اشكر الاخ احمد على ملاحظاته واوضح مفهومي الشخصي للكتابي . فمفهومي للكتابي العلمي ان هذا الكتاب يمكن ان يكون كتابا حول موضوع واحد من اوله الى اخره . ويمكن أن يكون كتابا حول موضوعات متنوعة يملي معالجتها موقف علمي واحد او موقف مبدئي واحد او موقف عقلاني واحد ، على ان يكون المنهج العلمي البحت السبيل لمعالجة جميع هذه الاسس . فاذا سلمنا او قبلنا هذا المفهوم العلمي للكتاب فاستطيع أن اقول بكل تواضع واخلاص انني من اول كلمة الى اخر كلمة التزمت المنهج العلمي في البحث ايا كان الموضوع الذي كنت انا بصدده . اما المراجع فيمكن اضافتها . ولكن هذا الكتاب في نظري كتاب علمي من حيث التزامي المنهج العلمي . اما ان اكون توصلت الى نتائج خاطئة او مصيبة فهنا ايضا اذكر بالقاعدة الاصولية : من اجتهد واصاب فله اجران ومن اجتهد واخطأ فله اجر وانا مكتف بالاجر الواحد .

الدكتور مكي :

عندك مثلا الفصل الثامن بعنوان « الثورة المنشودة في العلاقات المسيحية الاسلامية » وقد اتيح لي ان اقرأ هذا البحث باللغة الانكليزية وفي الواقع استغربت ان الحواشي والهوامش الموضوعة بالنص الانكليزي غير موجودة . وعلى مستوى الجامعة يمكن للقارىء العادي ان لا يهتم بهذا ولكن هناك بعض كتب ومراجع واشارات يصعب علينا ان نراها اذا رددنا الى مظانها اعتقد ان الدكتور صعب فضل ان ينسق بين الجميع .

الدكتور صبحي الصالح :

ان ما اود ان انبه اليه ان بعض الامور التي فانني ان اذكرها اثناء حديثي الاول سمعت معظمها من الزملاء الكرام وقد أغناني بوجه خاص الدكتور مكي عن قضية المنهجية في كتاب يصار الى اصداره ونشره بين طبقة معينة معروفة للكاتب قبل ان يشرع في كتابة تأليفه ، فانا لا اتوقع مثلا ان يسرف احدنا في مظاهر هذه الكتب فيما نسميه احيانا مبالقين ومتطرفين « الموضوعية » وان كانت الموضوعية في مثل هذه الابحاث قاسما مشتركا لا يمكن احدنا تجنبه . وانما الذي اوده هو مدلول الرصانة الكاملة التي تعول على ثقل في التعبير يحمل مفهومات دقيقة واضحة وتحمل مثل هذه المفهومات الواضحة لا يتأتى في نظري على الاقل وربما كنت مخطئا في كتاب ينقسم الى شعبتين : قسمة واضحة جدا . ويكاد الناقد مهما يكن حصينا يتعذر عليه بل يستحيل ان يضم الشعبتين كلتيهما مرة واحدة الا بعناء شديد . فهنا اسلام في جانب ومفهومات عصرية تشكل تحديات للاسلام في جانب اخر .ولكي نجيب عن هذه التحديات لا بد ان نقرر بعض المقررات المسلمة ومثلها لا يجوز ان نضعه موضع نقاش ، فلقد سبقني علماء مجتهدون سواء اخطأوا في اجتهادهم ام اصابوا (فان لهم اجرهم كما تقول يا دكتور حسن) سبقونا ثم اعطونا مقررات مسلما بها . منها ما جاء عمليا عبر التاريخ مؤيدا الفكرة القائلة بأنه على اقل تعديل كان بين الدين والدولة تنسيق في الاسلام ان لم نصل الى مفروض التوحيد وانا معك يا دكتور حسن فيما يتعلق بغائية الدولة فالاسلام لم يقصد قط الى دولة

تكون غاية له لان هذا يمسي مع تعاقب الايام وثنا يعبد . والاسلام الذي كره للناس ان يحمى فيكون دمية بين الاغنياء فقط يكره كذلك لطبقة ما مهما تكن مفهوميتها الفكرية واسعة دقيقة ان تحتكر اسلوبا من اساليب الحكم لم يعرف بعد ايه افضل وايه اسلم وايه اقرب توازنا مع الفطرة البشرية ومع الاندفاع في التطورية ومع عقلية الانسان التي نود ان ترى كل يوم شيئا جديدا . فالذي اعتقده ان الاسلام تعمد ان لا يعطي صورة للحكم وانا في هذا لا ارى ضيرا في ان اصرح وانا مسؤول عما اقول بان الاسلام اشتمل على نصوص كثيـرة تنظيمية اجتماعية حضارية ، ولكنه اغفل اغفالا مقصودا متعمدا الحديث عن مثاليات ليس لها نصيب من حياة الناس الواقعية . فحين يتكلم النبي عن الحكم وحين يتكلم عن اسلوب الخلافة الم يكن الاجدى كما نرى فعلا وكما قام فعلا وكما تطور فعلا للاجماع الذي ذكرته في جوابي لك عن الدكتور الاب فريد جبر فهذا الاجماع الذي انعقد بعيد وفاة النبي لا يمنع مانع عقلي ان ينعقد بلون او باخر في عصرنا او قبيل عصرنا او بعيد عصرنا . وايضا فقد كان من الضروري أن لا تركز بحثك منذ البداية حول فكرة اقتنعت بها اقتناعا نعتقد انه ليس بدقيق كل الدقة من كونه الاسلام ليس من الاسلام فيه من الضروري ان يتحدث فيه عن الدولة . تحدثوا فيه عن الدولة ولكن بمفهوم معين ونختلف مدلولاتنا ونحن نتحدث بيد اننا في النهاية نصدر عن فكرة واحدة ونبلغ نتيجة واحدة وهي ان صيغة الاسلام بالشؤون الحيوية ليست بمنقطعة ولا يجوز ان تنقطع ابدا . في المقابل ان هذا يقتضي مني انا شخصيا كما اطلعت على الجانب المنصوص عليه دينيا ان اطلع على ما اطلعت انت عليه بوفرة بالغة من الشؤون المتعلقة بالحياة العصرية ، واعترف ان نصيبي منها قليل ولكني انا اعترف بهذا وارى انك اذ لم تذكر مراجعك في هذه الموضوعات الحساسة الدقيقة فكانك لم تدل لنا بأي رأي جديد. فان مثل هذه المفهومات العامة قضايا باتت معروفة للكثيرين ان تقول للناس ان من الواجب على الناس ان يواجه قضايا الساعة هذا يقوله الشيخ في الجامع ويقوله رجل سياسي يريد ان يكسب عطف الجماهير ويقوله كثيرون هنا وهناك ويقوله بعض من نسميهم من الاخوان المسلمين وربما كانوا اقل ايمانا في الاسلام الحقيقي من سواهم من الناس . ولكن الامر لا يعدو انهم يدورون حول نصوص وحول نقاط ثم لا يعرفون محتواها العميق . فانا في الواقع اتمنى عندما يدور الحديث حول فكرة عملية تطبيقية تبلغ حدا واقعيا وحدا للتحدي للشؤون الواقعية اتمنى لا ان نهرب من الفلسفة ، فان الفلسفة شيء مطلوب من كل منا ولا يمكننا ان نعالج حتى فكرة الدين الا من خلال زاوية فلسفية متجردة ولكن الا نجعل معولنا الاساسي على الشؤون الفلسفية . كنت قد ذكرت الفارابي وودت ان اذكر نصه الذي قلت له فيه ان فارابيك نفسه وانت به معجب اعجابا جما يتحدث عن الامام المتقدم للدولة . ولكني اذ اقرأ هذا النص اذكر بأن كلمات الفارابي ظلت فيها نداوة الفلسفة بل ظلت خيالية . ما اقصد الفارابي يقصد منها من ان يجدل مع نفسه ويجدل مع قارئه لان الجدل طبيعة هذا النفر من الفلاسفة . فههنا اسمح لنفسي بان اختلف قليلا مع الاب فريد جبر في مدى تعويل الرجال الدينيين والمشتغلين بهذه الابحاث الدينية لايقافها على مدى تعويلهم على الفلسفة فاننا نعول عليها بقدر لاننا نعترف ما بها من امور . وحسنا فعلت باختيارك الغزالي لانه اقرب ولا ريب في تمثيل الاسلام الصحيح من الفلاسفة الذين يطلقون ويعيدون في بعض القضايا من غير ان يبلغوا الا النتيجة الفلسفية البحتة . لم تذكر فقيها واحدا لم تذكر واحدا كابن تيمية وابن عبد السلام من هؤلاء الخالدين وانما اكتفيت بذكر بعض المحدثين امثال الكواكبي والشيخ محمد عبدو . ولننتهز هذه الفرصة لأؤكد اني خلافا لما ذكرت قد قرأت كتابك كلمة كلمة وعلقت على كل صفحة فيه واكاد اقول علقت على كل سطر وورقة واوراقي هذه الموضوعة في كل صفحة اكبر دليل . واود أن انهي كلمتي هذه بقولي : قليل من الكتب هزني ، وأؤكد لك انه رغم نقدي اياه هزني هزا عنيفا واني عندما قرأت بعض المداخل ولا سيما الفصل الثاني او الاول ، بالاحرى الذي حددت به منطلق الاتجاه لتحدي الاسلام للحياة العصرية اعتززت بك كثيرا ورأيتك في نفسي ، فقد رأيت مسلما يود ان يتحرك وان يتقدم وانا ذاك الرجل الذي تبحث عنه ولكن في الوقت نفسه كنت اود عملا علميا منهجيا باعتبار ان ما تقوم به له شكل زيادة باعتبارك رائدا لهذه الفكرة المجددة . ان ما كنت اوده هو التصميم والتحقيق والدقة والمنهجية والعرض الاحسن ثم الحلو من بعض هذه الشكليات التي مسستك بها مسا رفيقا ولكن مس المحب الصديق .

الدكتور حسن صعب :

اشكر الدكتور صبحي على ما مسني به وما لم يمسني به واني اخذت جميع ارائه اخذا أخويا واذا كانت بعض كلماته مثيرة كالحديث عن الرصانة – فاسامحه عليها واود هنا ايضا ان ارى الاسلام حكما بينه وبيني ، وانني لست اكثر من مؤمن يحاول ان يفهم دينه فهما جيدا واذا كنت استشهد بما يقال عن الائمة فذلك هنا ايضا على سبيل الاقتداء بهم فحسب لا الادعاء بأننا بلغنا منزلتهم . يقال عن الائمة ان اختلافهم رحمة واختلاف الدكتور صبحي صالح وحسن صعب كمؤمنين ايضا رحمة للقراء وللافراد وللجالسين معنا ولدار الاداب ...

عايدة ادريس :

يمكن ان اضيف الى هذه الاصوات من الاجيال التي سبقت جيلي رأيي الخاص فلعله هو رأي الجيل الذي انتمي اليه . انني بعد ان اعدت قراءة هذا الكتاب هزتني تلك الصورة الرائعة التي استطاع الدكتور حسن صعب ان يستخلصها في كتابه من خلال القرآن . واذكر انه من الصعب جدا ان نجدها كلها في فلسفة حديثة . فالانسان الذي يؤمن بالله ، يؤمن بالله ايمانا عميقا ، والانسان الذي يؤمن بالحقيقة ويبحث عنها ، والانسان الذي تغمر المحبة علاقته بالكون وبكل انسان اخر ، الانسان الذي يؤمن بالحرية ، بحرية كل انسان ويصون كرامته وكرامة الانسان ، الانسان الذي يؤمن بالعقل ايمانه بالله ، الانسان الذي يؤمن بمسؤولية الانسان في اكتشاف قومه وتنظيم مجتمعه ، الانسان الذي يؤمن بحرمة الذات الانسانية ، الانسان الذي يؤمن بان الانسانية يجب ان تكون كلها ديمقراطية واجتماعية ، تلك البنود الثانية التي وجدها الانسان من خلال القرآن نجد كل بند منها في فلسفة واحدة معاصرة وقد لا نجد سوى بند واحد منها في فلسفة . اما ان يستطيع الدكتور حسن صعب ان يستخلصها كلها بهذا الشكل الرائع ويعطينا مقابلها صورة مريعة للعالم الذي نعيش فيه ، العالم الذي يعيش على شفة هاوية عشوائية ، العالم يحتاج اليوم بطريقة اعنف مما كانت من قبل الى الفلسفة والى الاخلاق بنوع خاص ، وقد تقدم العلم بصورة مريعة ولكنه يحتاج الى الاخلاق . والعلم مهدد الانهيار كما وصفه الدكتور حسن صعب . شيء واحد استطيع ان استخلصه ، هو ان يعود الى ذاته ويكتشف حقيقته الروحية مع تمسكه بذاته . وهذا الكتاب قد بحث تلك المشكلة ففيه الكثير من التساؤلات وليس من الضروري ان يعطي حلا فهو يؤمن بالحرية والاجتهاد .

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

من خليل أحمد خليل ـ ليون

***

١ ـ بين التجارب والحدود

حينما يتحدث فيليب سولير عن تجربة الحدود فانه يربط بارنو بطريقة مختلفة : الا ان انسان المشكلة واحد عند الاثنين . ففي صميم هذه التجربة الكاملة نجد التوجه الاخر للانسان المفقود السائر في اتجاه المغامرة في عالمنا المنتظم ـ الفوضوي هذا ، حيث ارادته رفيقه الوحيد والاخير ، محاولا ان يعيد للكائن قوته ووحدته الشخصية مكرسا لذلك حكمته وطاقته . وكما أن ظهور نيتشه في القرن الماضي كان علامة تحول فكري ، فان الثقافة الغربية عرفت بعده انواعا كثيرة من الثقافات والمفاهيم الادبية والفنية ونخطتها كلا أو أجزاء ، بطرق مختلفة . أما المشكلة الراهنة فتنحصر في الادعاء التالي : هل وصل الانسان الى نهاية تجربته العلمية الممكنة لامكانياته العقلية ؟ بلغة أخرى : هل نضب الانسان ؟ ـ هل وصلت الفلسفة مثلا الى نهايتها بسبب نضوب الفكر البشري كما يعتقد هيدجر ومداوبونتي ؟ مهما تكن النتيجة الحالية فان الطريق لا تزال ، كما يبدو ، مفتوحة أمام الانسان وما زال عليه واجب البحث الابدي في عالم الزمان والارادة والتقهقر.

وفيليب سولير ينهم الرواية مثلا ، بالخطأ وباستخدامها له : وهذان العاملان سيؤديان الى موت الرواية . فهو يبحث عن أدب بدائي كميرلوبونتي في فلسفته الاخيرة ، وعن انسان بدائي سابق للاصناف البشرية الموجودة . فالروائي يعيش قبل كل شيء في عالم حي ـ عالم الاحداث والازمات والاضطرابات والحروب ، واتصاله بالبشرية وأشلائها من أوائل الامور الضرورية في عصرنا هذا . فهو لا يستطيع ان ينسى مثلا الحرب في الفيتنام ، ذلك ان حضوره في العالم وارتباطه بحركته وتطوره دعامة رئيسية من دعامات البناء الادبي . ولربما رأى سارتر أنه لا يحق لكاتب حقيقي يعيش في أيامنا هذه ان لا يتكلم عن الفيتنام او عن الحرب . وسولير لا ينكر التاريخ الذي لا يتحدث عنه ، وانما يحاول ان ينفذ اليه بطريقته الخاصة . وهو ممن يرفضون الاحداث التي تغذي الرواية ـ للرواية ، لانه يرفض طريقة حياة الكتاب لها .

فحين طلب بعض العلماء الفرنسيين ـ البروفسور مونو مثلا ـ اثر نيلهم لجائزة نوبل للبيولوجيا مساعدة خاصة من الحكومة ، اجابتهم هذه الاخيرة : ستمنحون المساعدات اللازمة شريطة ان تضمنوا لنا نجاح تجاربكم ومداها التطبيقي . والواضح ان التجربة العلمية الصميمة لا تخدم الحكومة بهذا المعنى ، لكنها تنفع العلم : فهي حينما تفشل تكون قد دفعت العالم الى مجابهة الصعوبات بدلا من تجاهلها والسكوت عنها ، وحينما تنجح تفسح المجال امام العلم لكي يتقدم ، وكل تقدم علمي يؤثر على تغيير البنى الحياتية ، ولربما غير العالم حياتنا . وهكذا يرى سولير ان مشكلة الابحاث الادبية الجوهرية مماثلة لمشكلة التجارب العلمية . والرواية هي طريقة المجتمع في الكلام وطريقة الفرد الاجتماعية في الحياة . هكذا نجد الاصناف الروائية مكانها في هذا النظام الثقافي والاجتماعي والتكنيكي حيث تلعب الطليعة دورها الفعال . ان كل شيء منظم ومصنف في فرنسا لدرجة انه يجلب الكآبة ـ أو الامل ـ الالكتروني .

وهناك من يزعم ان الآلة ستبتكر ذات يوم روايات انسانية مشوقة تمثل أعمق ما يستطيع أن يتوصل اليه الخيال ـ هذا الخيال سيبلغ ذروة نفاذه .. وسيطلب الناس من الآله ان تنتج لهم روايات حتى ينسوا الآلة . ولربما صار المثل الاعلى عند الانسان هو الحياة بطريقة روائية . وهذا النوع من التخيل يجعلنا نتساءل : ما هو الحد الاقصى للاستغراق الانساني المتأرجح بين الحرية والتعويض النفسي ؟ ان الادب الميكانيكي هو انحطاط حقيقي بالنسبة لثورات القرن الاخير الادبية التي سمحت للادب ككل وكخط أن يبرز الى الوجود . ومن الملاحظ ان الروائيين الثوريين في عصرنا يعيشون على النتاج الحاضر من كتابات بروست وجويس وكافكا الذين مثلوا فاصلة تاريخية مهمة في سلسلة التجارب والحدود ـ الحدود التي لا نرغب في رؤيتها . لكن ما هي تلك الحدود ؟ كيف يستطيع تعبير « رواية » مثلا أن يشير اليها ؟ الرواية هي حديث الافراد الذي لا ينقطع ، الحديث اللاواعي والاسطوري . وهذا الحديث قابل للاستنباط بالمعنى الفرويدي لانه يميل الى اظهار لاوعي المتكلم . اذن ليس هناك رواية « حقيقية » أو « واقعية » كمسلمة ، مهما تكن درجات اعتبارنا للحقيقة والواقع ، ومهما يكن الاعتبار سطحيا أو عميقا .

واللغة تصير عاملا ثانويا بالنسبة الينا . فاما أن نقرر ان نعيش حياتنا بأنفسنا مهما كلفنا تخيل ذلك ـ فيحدث انقلاب مثير ، يبعث بفضل طبيعته الفريدة عالم التجربة الادبية . فماذا يمثل الادب ان لم يبلغ ذلك الانقلاب الداخلي ؟ ـ . واما ان نصف الاشياء بلغة غير لغتنا الشخصية ، وأن نتوهم عالما غير عالمنا ـ فتموت بذرة التجربة والحساسية . ويبدو أن مهمة الادب الحديثة هي اكتشاف الفراغ . وذلك يعني أننا نطرح مشكلة الاتصال الانساني والتبادل الفكري . لذا يحسن بنا ان نذكر ان الكاتب هو نتيجة ما يكتب ـ النتيجة التي لا تكتمل .

نموذجان تجريبيان

فاز جاك بوريل بجائزة غونكور ١٩٦٥ . وهو شاعر وقصاص . كتب « الهيام » التي فازت بالجائزة خلال مدة طويلة على شكل مذكرات وبالمناسبة نشرت له « الآداب الفرنسية » القصيدتين الجديدتين :

أ ـ الطريق

هل أدري لماذا أتردد أيضا
وأرتعش بين حلمين ؟
آه يا راية الحركات التي ترتج
على الافق الثلجي !
باطلة كل خطوة
لا تؤدي الا الى الخارج
فالطريق ثابتة
بين المصباح والموت

ب ـ فقاعة السلام

تاليس هي منزل الحب
وكلبي قرب قدمي
يلاعب ظلي
أوه يا فقاعة السلام
التي تولد في برية الاعشاب
الشمس الغريبة تشرف

على التهــامك أيضـا
فمن يعري الاموات
في الجـوارير المظلمـة ؟

التجربة وازمة البحث

ودعت فرنسا في ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩٦٥ أحد علمائها الكبار : جورج دافيديتش غيرفيتش ، ثاني مؤسسي المدرسة الاجتماعية الفرنسيـة الحديثة . ويعتبر غيرفيتش ان المجتمع في ثورة متواصلة وان بناه في حالة انتظام وتهدم فعودة الى الانتظام . علم الاجتماع وهو يكلم الحرية. وثالوث عالم الاجتماع الحقيقي هو : التجربة والنسبية والديالكتيك . حاول ان يتخطى كل المفاهيم القديمة في علم الاجتماع فخلق لغة جديدة يعرفها العاملون في هذا الحقل . أهم تهمة وجهت اليه هي ابتعـاده عن العالم التجريبي وتجنبه لازمات البحث وانكماشه في عالم نظـري خاص . الا ان غيرفيتش بنظرنا قد طور علم الاجتماع بتعميق المفهـوم الديالكتيكي ـ وان كان سارتر غير مقتنع كثيرا بهذه الديالكتيكية ـ . وفتح الطريق الواسعة أمام البحاثين . وهذا يكفيه . وقد عرف بموقفه المشرف ازاء الشعب العربي المناضل في الجزائر مما عرضه لنقمة منظمة الجيش السرية . له عدة مؤلفات وهو مؤسس ومدير « دفاتر عـلم الاجتماع » الشهيرة . وفي مقابلة معه عام ١٩٥٩ حول أزمة عـلم الاجتمـاع قـال :

« انني اميز بين اتجاهين كانا في أساس هذه الازمة . الاتجـاه الاول هو ابحاث علم الاجتماع « الصناعي » والاتجاه الثاني هو الابحاث الاحصائية وسبر الرأي العام او « علم النفس الاجتماعي » . فاذا كان الناس الذين يديرون هذه الابحاث سائرين نحو الانتصـار فان عـلم الاجتماع الفرنسي سينذثر . ان الامر خطر جدا ، ذاك ان لدينا عـددا محدودا من الجامعات . وان الامر أقل خطورة في الولايات المتحـدة الاميركية التي تملك ١٢٠٠ جامعة . ان سيطرة ميول كهذه تؤدي الى عقيدة أبوية السيطرة والى توضيح الامر التالي : كيف يمكن استخدام البشر ؟ وقد قالوا بأن العمل وحدة اقتصادية ـ وهو ليس كذلك ـ بدلا من اعتباره كوحدة صناعية فقط . ان علم الاجتماع في نطاق الصناعـة الذي يرمي ، كما يقولون ، الى تحسين التكنيك والوصول الى أفضـل شروط للعمل ، انما يتجه في الحقيقة نحو أفضل مردود (وهذا يعني تجاهل العوامل الانسانية والعائلية والتربوية في الانتاج الصنـاعي) . وأخيرا يبدو انهم تجاهلوا الامور الرئيسية التالية : ان المجتمع الفرنسي مجتمع رأسمالي وان وسائل الانتاج بيد أجهزة خاصة . ان علم الاجتماع الاقتصادي يؤدي الى حرب نفسية ضد وعي الطبقات والنقابات مـن جهة والى انتروبولوجيا خاطئة ودعية من جهة أخرى ـ مبدئية بكاملها » .

الاتحاد السوفياتي

ميخائيل شولوخوف
الفائز بجائزة نوبل ١٩٦٥

***

قبل سنوات الحرب الخمس ، خرجت على العالم أشهر روايـات شولوخوف : « الدون الهادىء » و « استصلاح الارض العذراء » .

وشولوخوف واحد من اشهر وأحب الكتاب في الاتحاد السوفياتي، ومؤلفاته تتمتع بشهرة واسعة ، سواء في داخل البلاد ، او فيما وراء حدود الاتحاد السوفياتي .

ورواياته منشورة بخمس وخمسين لغة ، وقد ظهر منها اربعمائـة طبعة ، تبلغ نسخها عددا هائلا يقدر بحوالي عشرين مليونا .

ولد ميخائيل الكسندروفيتش شولوخوف في ٢٤ مايو ١٩٠٥ ، في وادي الدون ، بمزرعة كروجلين ، من أسرة كادحة ، وتعلم في بـادىء الامر في مدرسة الكنيسة ، ثم من عام ١٩١٨ التحق بالمدرسة الثانوية .

وفي سنوات الحرب الاهلية اقام شولوخوف في الدون ، وخـدم في فرقة الامداد والتموين ، واشترك في النضال ضد عصابات الجيش الابيض ، وفي عام ١٩٢٠ نظم خلية شيوعية في أحد المراكز .

وبعد انتهاء الحرب الاهلية اشتغل شولوخوف بناء ، وعاملا عاديا، وعدادا ، وأقام بعض الوقت في موسكو .

أما النشاط الادبي للكاتب ، فقد بدأ عام ١٩٢٣ ، وفي عـام 1925 أخرج أول كتبه « أقاصيص الدون » .

وشولوخوف ينتمي الى هذا الجيل من الكتاب السوفييت الذي خلق ثورة أكتوبر والحرب الاهليـة ، والبناء الاشتراكي ، والحـزب الشيـوعي .

ولقد وصف فادييف في احدى خطبه عن صورة المستقبل ـ طريق الحياة لهؤلاء الكتاب أمثال شولوخوف :

« عند انتهاء الحرب الاهلية ، كنا نجتمع من مختلف انحاء وطننا المترامي الاطراف ، ولقد دهشنا من التشابه العام لتاريخ حياتنا ، مع اختلاف حظوظنا الفردية ، وهكذا كان طريق فورمانوف ، مؤلف كتاب « تشابابيف » ، وكذلك كان طريق اكثر الشباب ، ومن الجائز ان يكون أكثرنا موهبة هو شولوخوف .

لقد دخلنا الى الادب موجة اثر موجة ، وكنا كثيرين ، حملنـا من الحياة تجربتها ، وخصائصها ، وتوحد احساسنا بالعالم الجـديد ، وحبنـا لـه » .

وبعد ظهور أقاصيصه الاولى عاد شولوخوف الى الدون ، الى المركز الاصلي : « وأحببت أن أكتب عن الشعب الذي ولدت في وسطه ، والذي عرفته » ـ هكذا يقول شولوخوف .

وفي عام ١٩٢٦ بدأ شولوخوف يعمل في « الدون الهادىء » وظهر الكتاب الاول من هذه الرواية عام ١٩٢٨ ، والثاني عام ١٩٢٩ ، والثالث عام ١٩٣٣ ، والرابع عام ١٩٤٠ .

وقد تطلب العمل في « الدون الهادىء » من الكاتب معارف عديدة الجوانب ، وجهودا كبيرة ، فلقد قرأ كثيرا ، وعمل في محفوظات موسكو، وروستوف ، وجال في أنحاء الاقليم ، مسجلا روايات الشيوخ ، والاغاني الشعبية . وفصول الرواية كل على حدة ، بدلها شولوخوف عدة مرات.

وقد عاش شولوخوف في السنوات الاولى من عمله في الروايـة حياة قاسية ، وقد استقبل الاقارب والاصدقاء الانتاج الادبي لشولوخوف أسوأ استقبال ، ونصحوه بالحاح ان يشتغل بأي عمل اخر ، وقد قال هو عن هذه الفترة : « لقد كتبت بصعوبة ، وعاشت بصعوبة ، ولكنها كتبت على أي حـال » .

و « الدون الهادىء » أول كتاب جعل شولوخوف واحدا من أشهر الكتاب السوفييت ، فالتطورات السريعة لاعادة التنظيم الاشتراكي في

القرى التي استقبلتها الثلاثينيات استرعت انتباه الكاتب .

وفي عام ١٩٣٢ نشر شولوخوف الكتاب الاول من روايته الجديدة : « استصلاح الارض العذراء » ومن أجل ان يكتب مؤلفه الجديد متأثرا بحرارة الاحداث كان يقطع الوقت بالعمل في « الدون الهادىء » .

والمساهمة الحية في المصير الادبي لشولوخوف قدمها جوركي وسيرافيموفيتش ، فقد كتب سيرافيموفيتش مقدمة « لاقاصيص الدون » وهو أول من أشاد بالمواهب البارزة عند الكاتب الشاب ، ومعرفته بالحياة والقوة الابداعية الكبيرة ، وجمال التعبير اللغوي الناصع .

كما أعانه جوركي على طبع الكتاب الثالث من « الدون الهادىء » الذي حاول بعض النقاد ان يحطوا من قدره .

وعلى قدر نمو النشاط الادبي لشولوخوف ، كان يتطور في عمله الاجتماعي . ففي عام ١٩٣٧ انتخب ممثلا في المجلس الاعلى للاتحاد السوفييتي ، وفي عام ١٩٣٩ انتخب عضوا عاملا في أكاديمية العلوم .

وفي سني الحرب العالمية الكبرى نال شولوخوف شرف المساهمة في نضال الشعب السوفييتي ضد الغزاة الفاشيست ، وكتب سلسلة من الموضوعات والقصص بعنوان « علم الكراهية » عام ١٩٤٢ ، فضح فيها بكل قواه القداسة الاكيدة للجيش الهتلري ، ودعا الشعب السوفييتي للنضال بلا هوادة ، والى الفدائية ، وانكار الذات ، والاستشهاد ضد الحشود الفاشستية ، في سبيل الحزب ، واستقلال الوطن .

وفي نفس الوقت أقدم شولوخوف على كتابة رواية عن الحرب العظمى ، بعنوان : « الذين حاربوا في سبيل الوطن » ، وقد كتبت فصول الرواية كل على حدة في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . والفصول التي نشرت في الصحف عام ١٩٤٩ تصور المعارك البطولية العنيفة التي خاضها الجيش السوفييتي عام ١٩٤٢ في المشارف البعيدة لنهرالفولجا .

الملامح الرئيسية لانتاج شولوخوف

كل حياة شولوخوف ، ونشاطه الادبي مرتبط بالدون ، والكاتب يحب مسقط رأسه حبا حارا ، ومن حياة قوزاق الدون يستمد الموضوعات والصور ، ومادة مؤلفاته الفنية .

وقد نوه بذلك شولوخوف نفسه ، فقال : « ولدت في الدون ، وهناك تعلمت ، وتكونت كانسان وككاتب ، وتربيت كعضو في حزبنا العظيم ، وظهرت كمواطن لوطني القدير ، ومع ذلك فانني أقول بفخر واعتزاز ، انني برزت كمواطن لوطني باقليم الدون » .

انه رائع في وضوحه وقوة ابداعه التي وهو يصور حياة قوزاق الدون ، وتلك من الخصائص الهامة في العمل الابداعي لشولوخوف .

وهذا التحديد لا يعني ان شولوخوف كاتب محلي محض « اقليمي » الموضوع ، بل على العكس ، فانه بمادة الحياة ، واسلوب قوزاق الدون، استطاع ان يكتشف المغزى العميق للتطور التاريخي الكبير .

وهنا يجب ان نشير الى الخاصية الثانية الهامة لابداعه ، وهي طبع هذه الفترات المرحلية المتحولة من حياة البلاد بالطابع الفني ، حينما كان نضال العالم الاشتراكي الجديد ضد العالم القديم ، والبورجوازية ينطلق باقصى حدته ، وبالشكل الدرامي الصارم .

فالحرب الاهلية في « الدون الهادىء » ، وتعميم الوسائل التعاونية في « استصلاح الارض العذراء » ، والحرب العالمية الكبرى في « الذين حاربوا في سبيل الوطن » ـ هذه الفترات الثلاث من حياة الشعب يتركز فيها اهتمام الفنان !

ومن هذه المجموعة تبرز ثلاثة معالم لموهبة شولوخوف ، هي : اتساع البطولة ، والميل الى الصور الفنية الاثرية الضخمة ، والميل الى تعميم النتائج الاجتماعية العميقة .

وأبطال روايات شولوخوف أناس كادحون بسطاء ، أفكارهم الحزينة والفرحة ، وطموحهم الى السعادة والعدالة ، ونضالهم من أجل حياة جديدة تسترعي انتباه الفنان على الدوام .

ومن الضروري ان نشير في النهاية الى الخصيصة الجوهرية لطريقة ابداع الكاتب ، وهي عداوته لاي عمل غير مثالي ، فمن الثابت انه يتتبع حقيقة الحياة القاسية ، ويكتشف عملها بجميع تناقضاته وجميع تعقيداته ، وجميع جوانبه المتعددة ، وجميع تبايناتها ، وما فيها من حدة الصراع الناشبة عن القضايا الصعبة المعقدة لميلاد عالم جديد.

وهذه هي القاعدة الفنية المصيرية التي تمسك بها شولوخوف في أصرار كأعظم نموذج للواقعية الاشتراكية .

اقاصيص الدون

الموضوع الرئيسي لهذه الاقاصيص المبكرة لشولوخوف هو صراع الطبقة المناضلة في الدون .

وليست العلاقة بين أفرادها منحصرة في الوطن او المشاعر ، بل ان موقع الناس من الصراع الطبقي العنيف هو الذي يحدد العلاقةبينهم.

وليس من النادر ان يصير الاباء والابناء والاخوة الد الاعداء في سبيل الوطن .

ففي قصة « كولوفيرت » نرى القوزاقي العجوز كرامسكوف ، وولده ـ من المنضمين الى الحمر ـ يقعان في أسر الحرس الابيض ، فيعدمهما الابن الاصفر ميخائيل ـ الضابط الابيض ـ رميا بالرصاص

وفي قصة « مزرعة البطيخ » نرى الاب ـ رئيس المحكمة العسكرية لفرق الحرس الابيض ، والجلاد الجهنمي ، وابنه فيدور ـ الجندي في الجيش الاحمر ، وترى البيض يطاردون فيدور الجريح القدم ، ويكشفه الاب في مزرعة البطيخ ، فيتاهب للتنكيل به ، وحينئذ يغتال الابن الاصفر مينيا أباه من أجل ان يخلص أخاه .

وفي قصة « ثقب الدودة » يبغض ستيبل عضو اتحاد الشبيبة الشيوعية أباه يعقوب أليكسيفيتش المالك بغضا شديدا ، ومن أجل ذلك نرى يعقوب اليكسيفيتش وابنه الاكبر يذبحان ستيبل عضو الاتحاد.

ويوضح شولوخوف ـ وهو يقص عن الحقد الهائل لاعداء الثورة واعمالهم الدموية ـ انه على العكس ، في البيئة القوزاقية الثورية التي كانت مجبرة في صراعها القاسي العنيف على أن تتخلف عن ركب الحياة الجديدة ، قد ظهرت فيها صفات عالية ونبيلة ، كالاستعداد للتضحية، والشجاعة البطولية ، والانسانية الاصيلة .

ومن الاهمية ان تنبه الى ان شولوخوف رسم في « أقاصيص الدون » صورة لينين التي مثلت « الحارث بالمحراث » ، وأيقظت الشعب للنضال من أجل حياة أفضل .

واذا كان الصراع الطبقي في « أقاصيص الدون » قد أنتج الصور الرئيسية في الحدود الضيقة للاسر القوزاقية ، فانه قد أضاف عملا اخر مختلفا تماما لهذا الموضوع في « الدون الهادىء » وهو الانتاج الرئيسي للكاتب .

الدون الهادىء

و « الدون الهادىء » ينتمي الى مجموعة من أبرز الانتاج الفني المشهور جدا في النثر السوفييتي .

يقول كالينين في حديثه الى الكتاب الشبان في عام ١٩٣٤ :

« .. « الدون الهادىء » أنا أعتبره أروع انتاجنا الفني ، فهو في بعض المواضع مكتوب بقوة خارقة للعادة » .

وماكسيم جوركي يعتبر « الدون الهادىء » من تلك الكتب التي « أعطتني صورة واسعة حقيقية وعبقرية للحرب الاهلية » .

واعتمادا على نجاح الادب السوفييتي في رسم أفضل صورة للحرب الاهلية ، فان شولوخوف فكر في ان ينتج عملا ابداعيا عميقا وأصيلا .

في « الدون الهادىء » يبرز شولوخوف أمامنا كفنان خبير في القصص البطولي قبل كل شيء ، وبافاضة وحرية ، يعرض الفنان صورة تاريخية ضخمة للاحداث الدرامية العاصفة التي يتضمنها « الدون الهادىء » في مدى عشر سنوات بين عام ١٩١٢ و عام ١٩٢٢ .

والعمل في « الدون الهادىء » يبرز في مخططين ، أحدهما

تاريخي ، والاخر شخصي ، ولكن كلا هذين المخططين معطى في وحـدة غير منفصـلة .

والنموذج البطريركي للشاب ميليخوف ينهار في المخطط الشخصي – في حبه لاكسينيا ، وفي المخطط الاجتماعي – باصدام جرايجـور بالتدفقات العنيفة للحقيقة التاريخية الملائمة جدا مع عقدة الرواية .

في المخطط الشخصي – موت أكسينيا ، وفي المخطط التاريخي – هزيمة حركة القوزاق البيض ، والفوز النهائي للحكم السوفييتي في الـدون .

في كلا المجلدين سطور موضوعية – للمخططين الشخصي والتاريخي – يظهران فيها متكاملين تماما . والفشل الفاجع للبطـل منطقي طبيعـي ومنجـز .

في الكتاب الاول عمل يبدأ في فترة ما قبل الحرب ، وينتهي في السنة السادسة عشرة ، ويتحدث فيه عن الحياة ، وعن ظروف المركز وعن شباب جريجوري ميليخوف ، وعن أحداث الحرب الاستعمارية .

أما الكتاب الثاني فيضم الفترة من اكتوبر عام ١٩١٦ الى ربيع ١٩١٨ ، وأيام فبراير ، واكتوبر العظيم عام ١٩١٧ ، وابتداء الحرب في الدون – هذا ما يحتل مركز الكتاب .

وأما الحدود الزمنية للكتاب الثالث ، فمن ربيع عام ١٩١٨ الى مايو ١٩١٩ ، ويصور فيه النضال العنيف للشعب السوفييتي ضـد الحرس الابيض المناوىء للثورة في الجنوب .

وفي النهاية يحتوي الكتاب الرابع على الفترة من ربيع ١٩١٩ الى عام ١٩٢٢ ، ويحكي عن الهزيمة الساحقة لحركات القوزاق البيض ، والنصر النهائي لسيطرة الحكم السوفييتي على الدون .

وعلى هذه الصورة ، فالحرب الاستعمارية ، والثورة ، والحرب الاهلية ، وأمثال هذه الاحداث التاريخية ، لها انعكاساتها الفنيـة في « الدون الهادىء » .

والاحداث في الرواية تجري في الجبهة الغربية ، من بطرسبرج وموسكو ، الا ان الاماكن الرئيسية للاحداث كانت في مركز القوزاق .

والمصائر التاريخية لقوزاقية الدون – ابان الحرب والثروة – أساسية جدا في محتويات الرواية التاريخية البطولية لشولوخوف .

فقد أعطى شولوخوف مزيدا من الاهمية والمغزى الكبير للمسـألة الاجتماعية عن طريق الثورة والاشتراكية لجماهير الشعب الواسعة .

وتحول جماهير الشعب الى الاتجاه الثوري والاشتراكي يتكشف في مصائر القوزاق ، وهذا يبرز المميزات الخاصة لتصوير الصـراع الطبقي في « الدون الهادىء » .

وقد امتاز القوزاق بعدد كبير من الخصائص الاشتراكية الفريـدة في نوعها ، ففي مجرى السنوات القيصرية الطويلة شاهد القوزاق كيف ان الخدام المخلصين ليسوا بمقدار ما يناضلون ضد العدو الخـارجي بل بمقدار نضالهم ضد الشعب الثائر ، وضد الحركات التحررية .

فالقوزاق كانوا موضوعين تحت ظروف خاصة متميزة ، انهم في الغالب لم يعرفوا هذا البؤس والضيق اللذين صبر عليهما الانسـان الروسي الكادح ،وقد اشتعلت نار العداوة بينهم وبين الاقلية الوطنية، وغير القوزاق جميعا « الغرباء » ، وقد قوى ذلك من شعور القـوزاق بالتفوق الطبقي الذي يجعل من الصعب تغلغل المبادىء الثورية بينهم ، والذي جعل مجموعة من القوزاق في سنوات الحرب الاهلية اداة طيعة في يد الحرس الابيض المناوىء للثورة ، ولكن لما كان في الدون بطبيعته نظام طبقي ، فان نضال القوزاق الكادحين قد اتسع ضد الملاك والمستغلين على ان المرشدين والموجهين في الظروف السالفة قد أضافوا الى الحرب الاهلية في الدون حدة خاصة ، وخشونة قاسية .

وميزة « الدون الهادىء » ان شولوخوف حاول بكل قواه انيكشف عن الحدة غير العادية ، والعنف الذي لم يسبق له مثيل في بيئـة القوزاق ابان المعارك الطبقية .

لم تكن الحرب الاهلية من أجل الحياة ، ولكنها كانت حرب الفناء بين اثنين من المعسكرات الرئيسية ، معسكر الشعب الثائر بزعـامة الشيوعية ، والمعسكر المناوىء للثورة ، المعزز من الملاك والبورجوازية والاستغلالية ، وهاتان الصورتان الرئيسيتان المتعادلتان نجد انعكاسهما في « الـدون الهـادىء » .

فنرى هناك من ممثلي الاتجاه الاول ، المالـك ليستينتسكي ، والمستغلين اخوان كورشونوف ، والتاجر موخوف ، وقواد الحـرس الابيض وضباطه الاشرار ، والجلادين والقتالين ، أعـداء الشعب السوفييتي ، المحرومين الشرفاء من ذوي الضمائر ، وخطتهم واضحـة جلية ، فهم يريدون ان يغرقوا في الدماء الشعب الثائر ، وان يعيـدوا نظام الحكم القيصري العتيق ، وان يمتلكوا الفرصة من جديد ليستفيدوا بجميع خيرات الحياة ، ويستغلوا العمال والفلاحين بلا رحمة .

وقد خاض الشعب الثائر ضدهم حرب الموت بحماسة الشجعـان، وعبر عن مصالح الثوار بودتيلكوف ، وبونتشـول ، وشتوكمـان ، وكوتليااروف ، وميخائيل كوشيفوي ، وبوجودكا .

لكن السمة الفريدة للدون الهادىء تبدو في انه لا يضع في بؤرة اهتمام الكاتب ممثلي هذين المعسكرين الطبقيين الاساسيين المتعارضين ولكن يضع في هذه البؤرة البطل المعبر عـن المزاج النفسي للمترددين المتقلبين بين القوى الاجتماعية جريجوري ميليخوف .

فحياة ميليخوف في سنوات شبابه ، وقصة زواجه من ناتاليـا ، وحبه لاكسينيا واشتراكه في حرب الاستعمار ، ثم في الحرب الاهلية ، واخيرا موته الادبي – هذا هو ما يرسم الاساس الموضوعي للرواية .

وجريجوري ميليخوف لم يوضع في المركز من « الدون الهادىء » بمعنى انه منح عناية أكبر من الجميع فحسب ، بل لان كل احـداث الرواية تقريبا ، اما صادرة عن ميليخوف ذاته ، واما أنها هكذا بصورة أو بأخرى مرتبطة به .

ماذا اذن يمثل جريجوي ميليخوف نفسه ؟

جريجوري ميليخوف

ميليخوف مرسوم في هذه الرواية بشكل غير مألوف من جوانبه المتعـددة .

فسنوات شبابه شواهد على أساس الحياة والظروف المحيطـة بمركز القوزاق ، وشولوخوف يصور بصدق نظام الحياة البطريركيـة للمركـــز .

ويبرز بوضوح أمام القارىء خصائص الحياة القوزاقية ، كروح الاقدام ، وحب الحرية ، والمفاهيم العليا لشرف المحارب ، وبجـانب ذلك القسوة الوحشية ، والظلم ، والحقد الاعمى على الدخيل والاجنبي.

ففي الفصول الافتتاحية للرواية ، التي ينتظمها التمهيد المنقطع النظير « للدون الهادىء » تصوير للمشهد الوحشي البشع للتنكيـل بجدة جريجوري التي ارتاب القوزاق في اشتغـالها بالسحـر .

وملامح الظلم والوحشية يعبر عنها مشهد المعارك الدموية عنـد الطاحونة بين القوزاق والفلاحين الاوكرانيين الوافدين عليها .

وصورة جريجوري ميليخوف تتشكل تحت تأثير هذه الانطبـاعات المتناقضة . فمركز القوزاق يربى فيه – منذ السنوات المبكرة – روح الاقدام ، والاستقامة ، والشجاعة ، والى جانب ذلك يوحي اليه بكثير من الاراء التقليدية الخاصة المتداول من جيل الى جيل .

وجريجوري ميليخوف ماهر ، وهو بطبيعته مخلص ، ومن الملامح التي تحدد صفاته ، طموحه المتحمس الى الحقيقة والى العدالة .

وهذا الانسان الصريح الخطير ذو مشاعر مضطربة ومعقدة ، ومـع كل هذا فان شولوخوف يلوم جريجوري بشدة وبطريقة سافرة عـلى كل من سلوكه المنهار ، وافلاسـه ، وطريقته في الحياة .

ومأساة ميليخوف تنحصر في انه انفصل عن الشعب ، ولم يستطع ان يمتزج بالثورة ، بل وقع بقوة الظروف القهرية في معسكر اعدائهـا الاشرار ، وكان وقوعه في المأزق الذي وقع فيه ، والفشل الخـاص الخانق الذي حاق به – جزاء عادلا للانشقاق على الشعب ، وعلى الثورة الحقيقيـة العظيمـة .

وجريجوري ميليخوف بوضعه الاجتماعي فلاح متوسط الحال ، وهو في نفس الوقت مالك ، وعامل دروب ، ولذا فشعور المالك يفصله عن الثورة ، ويربطه بعالم البورجوازية . وشعور عامل الدروب ، على العكس ، يقربه من البروليتاريا الثائرة ، ويسلحه ضد المستغـلين والطفيليين .

وهذه النزعات المتعارضة تقوى وتبتعد بالاراء التقليدية الطبقيـة الخاطئة ، والمذبذبة بين القطب الطبقي غير المسالم ، وبين المناضلين للمعسكرات المعادية ، والبحث عن « الطريق الثالث » الخيالي الموهوم في الثورة ، الذي ليس مع الحمر ولا مع البيض ـ هو ما يميز خط سير ميليخوف .

وفي الفصول النهائية للرواية يفضح شولوخوف التخريب المزعج لبطله ، جريجوري ميليخوف ، الذي فقد أحب انسان اليه ـ أكسينيا ، ففقدت الحياة في نظرة جميع أفكارها ، وجميع معانيها ، وهو كذلك يعترف من قبل بالمأساة المؤلمة لوضعه ، فيقول : « ارتددت عن البيض ولم ألتصق بالحمر ، وهانذا أطفو هكذا كالسيخ في حفرة الثلج » .

اما الان وقد شيع اكسينيا فانه يدرك ان الجميع اموات : « انه شيع منها بثقة مؤكدة في انهما سيفترقان الى امد قريب ، وبكفيه دكدك على قمة المقبرة بالطين الاصفر الرطب ، وركع طويلا على ركبتيه بالقرب من القبر ، مطاطئا رأسه ، محركا لها في صمت ، وهو الان في غير حاجة الى ان يستعجل ، فالجميع كانوا امواتا » .

في صورة جريجوري ميليخوف مكونات عامة كبيرة ومميزة . فذلك المأزق الذي وقع فيه ميليخوف لا يعكس ـ بلا شك ـ خطوات التطور الجارية في جميع القوزاق ، لان صفات جريجوري مكونة من اشيـاء اخرى لسمانه الاجتماعية ، من حظه المحزن مـن التعليم ، حظ الانسان غير الواجد طريقه الى الثورة .

فصورة ميليخوف ـ كما يؤكد الكاتب ـ صورة انسان منعزل عن الشعب ، وعن الواقع الثوري ، غير واجد في نفسه القوة الكافيـة ليختار الطريق السليم ، ولا مفر له من ان يحمل المأساة الخلقية .

وانفصال جريجوري هذا عن الشعب لبناء حياة جديدة ، يعرضه شولوخوف في احلام ميليخوف التي تحمل بوضوح المميزات الرمزية له : « جريجوري يرى في حلمه سهلا واسعا منبسطا ، معرضا لغارات الفرق العسكرية ، ومن مكان ما يندفع اسطول من بعيد ، ولمسافـة طويلة ، حينئذ تذكر انه عند حزام السرج ، وبقوة وضع رجله في الركاب الايسر ، وزحف السرج تحته ، فوثب عن الحصان وهو غارق في الخجل والخوف ، ليضيق حزام السرج . وفي ذلك الوقت سمع جلبة مفاجئة ، وفقعقة سنابك الخيل تندفع بسرعة ، والفرقة العسكرية تسير الـى الهجوم بدونه .. » .

وهكذا يكشف شولوخوف في صورة ميليخوف عن الافلاس المطلق ، وعن خطأ « الطريق الثالث » في الثورة ، ويظهر التحيز ، والموت الفاجع للانسان المنفصل عن الشعب الثائر .

وعبر كل الرواية تمر صورة اكسينيا التي رسمها شولوخوف بمهارة فائقة . ولم يعرف الادب العالمي انتاجا اخر بذلك العمق ، بحيث يطلع على العالم الداخلي للزوجة الفلاحة البسيطة بنت الشعب .

فاكسينيا طبيعة معقدة ، وهي بالرغم من ذلك غنية بالمشاعر القوية العميقة . وحظ اكسينيا كذلك محزن ، طفولة صعبة ، وزواج بانسان لا تحبه لكن حظها المحزن كان في العادة كثيرا على امرأة من الشعب .

وحبها لجريجوري عظيم ، يستغرق كل حياتها . لقد ركزت فيه كل ما كان اكثر اشراقا في حياتها . فهي الرفيق الامين ، والصديق الحميم لجريجوري ، انها لم تشاطره كل متاعب حياته ، ولم تحتمل كل الاهانات ، وكل المرارة الناشئة عن موقفه المراوغ فحسب ، بل اكثر من ذلك صارت ضحية بالمعنى الدقيق لاخطاء ميليخوف المشئومة .

ان اكسينيا تشاطر جريجوري حظه المحزن ، ومع ذلك لم تستطع ان تجد طريقها في الحياة ، ولم يكن حبها لجريجوري قادرا على ان يمنحها السعادة الحقيقية ، وان يجعل حياتها مهمة او ذات مغزى .

فهذا الحب في نهاية النهاية قاد اكسينيا الى الموت .

بهذه المهارة الفنية العظيمة يكتشف شولوخوف العالم الداخلي لابطاله ، والكاتب يستخدم جميع الوسائل الفنية ليضفي عليهم السرور او الالم ، والحب ، والاسى .

ويفتتح القسم السابع في الرواية بمشهد رائع في تعبيره الفني ، فبعد مرض اكسينيا الثقيل المضني تعود اليها القوة والصحة ، وسرعان ما تتلاعب بحياتها الاحداث المحزنة التي تقودها الى الموت . انها الان مفعمة بالسرور ، والاحساس بالسعادة التي لا تعرف لها سببا ، وها هي ذي صورة الربيع كما تحس بها : « بعنوه ، وبروعة الجديد ، وبالاغراء قدم لها العالم . وبعينين لامعتين نظرت حولها بقلق ، مسترجعة في ذاكرتها حفيف ثوب الطفولة ، ومتخيلة طريقهـا الضبابي الطويـل ، وقدود اشجار التفاح المترعرعة في الحديقة ، والبستان المبلل بالندى ، والطريق وراءها مفسول من المجرى العميق للسنوات الماضية ، كل شيء يبدو لها جميلا بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وكل شيء يصطبغ بلـون كثيف او رقيق كأنه شمس الخريف . انها ـ بلامبالاة ـ تستمتع بلذة وهي تعود الى حياتها . ان اكسينيا تشعر برغبة عارمة في ان تلمس بيديها كل شيء ، وان ترى كل شيء . انها ترغب في ان تلمس كرمـة العنب الاسود المبللة بالندى ، وان تضغط خدها على غصن التفـاح الرمادي الفاتح ، المخملي الملمس ، وتريد ان تسير وسط الانقـاض والخرائب ، وان تمشي في الوحل بلا طريق الى مـا وراء الوهدة الواسعة ، حيث تخضر القصة الخرافية وتنصب من ضباب الحقل الشتوي البعيدة .. » .

لقد استطاع شولوخوف ان يعرض هنا بفنه الرفيع المتقن مفاتن الربيع ، بنوره الساطع ، وجماله ، ومسراته ، في وحدة عضوية مـن خلال مزاج اكسينيا .

وفي هذا الفصل السابع يصور الكاتب مشهدا اخر . فاكسينيا تموت ، ويدفنها جريجوري ، وهو يعرف بوضوح مؤلم انها نهايته ، فقد اصابته فاجعة مطبقة . فان في دفن اكسينيا وصفا لصورة فريدة ، ان جنازتها تسير قريبا من المرساة ، في الضوء الساطع لصباح يوم من ايام الصيف .

ومع ان شولوخوف قدم في المقطوعة الاولى مـن الرواية نفس الصورة الطبيعية ، والاحساس بالسرور ، الا ان الموضوع الان هـو الوسيلة لتصوير المنظر الطبيعي للافتتاحية المشئومة لمشاعر جريجوري الحزينة :

« في الضباب الدخاني تثور ريح لافحة ، اقوى مـن حرارة الشمس ، واجمل ما فيها انها فضضت رأس جريجوري المغطى بالشيب الكثيف ، وانحدرت في فزع وشحوب على وجهه الجامد ، كما لو كان

مستيقظا لتوه من حلم مزعج ، لقد رفع رأسه ، فرأى فوقه السماء السوداء ، وقرص الشمس القاتم الفاتن المتألق » .

تصوير البلشفيك

الى جانب جريجوري ، واكسينيا ـ البطلين المركزيين للرواية ـ فان في معرض الصور الكثيرة لشخصيات « الدون الهادىء » مكانة هامة ، يحتلها ممثلو الشعب الثائر ـ البلشفيك ـ الذين تصورهم الرواية ، ومن بينهم العمال : الحداد جارانج ، والبراد شتوكمان ، والميكانيكي كوتلياروف ، والعاملة بوجودكا . والرواية تصفهم بالاخلاص الذي لا حد له لقضية الشعب ، والاستعداد للتضحية بانفسهم ، باسم المثل العظيمة للمجتمع ، والقيم الاخلاقية العليا ، فبالشعور بالقوة الكبيرة ،والنظام ، وتمام الحكمة يتميز حب بونتشوك ، وآنا بوجودكا.

واهم خاصية في تصوير هؤلاء الابطال تبدو في أن شولوخوف اهتم بالاشارة الى جلدهم وصبرهم ونضالهم العنيف من اجل التعليم السياسي للجماهير ، ومن اجل التربية الثورية للشعب . والمثالي في هذه الفكرة احاديث جارانج مع جريجوري ، والاكثر مثالية هو العمل الاعلامي للمرشد البلشفيكي شتوكمان ، والشيوعيون المعنيون في الرواية امثال المعبرين عن الاماني المضيئة للشعب ، وامثال القادة المعلمين للجماهير .

ولقد نجح شولوخوف اكبر النجاح في تصوير ميخائيل كوشيفوي، نجاحا يقترب به من قرينه جريجوري ميليخوف القوزاقي الاصيل ، بالرغم من منشئه ، فانه ترعرع هو وجريجوري معا في مزرعة تتارسك ومع ذلك سار كوشيفوي في طريق مختلف تماما. ولقد قارن شولوخوف بين كوشيفوي وميليخوف بطريقة مباشرة، ويقول جريجوري انكوشيفوي ينتمي الى هؤلاء الناس الذين كان واضحا منذ البداية ان « طريقهم يتجه مباشرة الى نهايتهم » وهو يتحدث عن هذا بشعور الحسد البين.

وكوشيفوي مرسوم في صور متعددة الجوانب . فشولوخوف يلفت النظر الى حبه للحياة ، واشواقه الداخلية ، وطاقاته الجياشة ،وحقده الذي لا مثيل له على الاعداء : « اية نظرة الى الاعداء .. الى البياض الناصع تجد عندي قبضة صلبة !! » هكذا يقول .

ومن الطبيعي تماما ان يتحول في نهاية الرواية الى رئيس للمزرعة، وان يتقدم لها كرئيس للسلطة السوفييتية المنتصرة .

واذا كان في تعبير جريجوري ميليخوفقوة مدمرة لانحياز القوزاق للملاك والطبقة الرجعية ، فان في كوشيفوي على العكس تجسيدا للمبادىء الثورية الديمقراطية الصحيحة ، التي سادت في نهاية النهايات بين القوزاق، وشقت طريقها في الاتجاه نحو الحكم السوفييتي، والاتجاه الى الاشتراكية .

هذه المبادىء يعبر عنها قائد قوة القوزاق بودتيلكوف . وفيدور بودتيلكوف واحد من قادة الفكر الشبان المؤيدين للسلطة السوفييتية في الدون . انه كان رئيسا للجنة الحرب الثورية ، ومندوبا حربيا ، وقائدا لجيش الدون السوفييتي . وفي الكتاب الثاني من « الدون الهادىء » يرسم شولوخوف صورة لبودتيلكوف ـ لنشاطه في الدون ، وموته بيد الجلادين البيض .

و « الدون الهادىء » مترجم الى كثير من اللغات الاجنبية ، وقد نال تقديرا عالميا ضخما ، وهو ينتمي الى عداد التحف الرائعة للواقعية الاشتراكية .

واذا كان شولوخوف يتحدث في رواية « الدون الهادىء » عن المرحلة الاولى من الثورة ، وعن فترة الحرب ، وكيف تغلب فوزاق الدون على باطل الرجعية ، فانه في رواية « استصلاح الارض العذراء » يصور مرحلة التحول الاشتراكي وبناء الاشتراكية في القرية بتعميم الوسائل التعاونية .

(عن الروسية) **رضوان ابراهيم**



مناقشات

الشعر والنقاط الاخرى

بقلم : خليل احمد خليل

لعل مجلة « الاداب » ستستطيع ان تبلغ غايتها حينما تفتح الباب المغلق امام ناقد خاص هو ناقد النقاد . ان المحاولة بحد ذاتها ظاهرة جيدة وخطرة . جيدة لانها تساعد القراء والنقاد والكتاب ان يتفاعلوا في جو ، نظريا ، غير محموم ، وفيه شيء من النضج الموضوعي – اذا كانت الموضوعية ممكنة – وان يدخلوا في فصل حواري ربما افاد المشتركين فيه . فمن هم المشتركون ؟ كيف يشتركون في الحوار ؟ وما هي الغاية الاخيرة من حوارهم هذا ؟ ان المشترك الحقيقي كما يبدو لي في هذه اللعبة الخطرة لا بد أن يحترم بعض قواعدها ، وذلك بالتخلص من العداء المنهجي من ناحية ومن جهله الخاص من ناحية اخرى . المشتركون قليلون بالنسبة لقراء « الاداب » لكن المستمعين كثيرون . أما طريقة اشتراكهم في فهم الشعر وتعاريفه فهي كما اعتقد ميكانيكية يخالطها شيء من العقلانية . هذا لا يعني انني انفي عامل الوعي تماما لكنني لا أؤكد وضوحه فيما يجري من مناقشات . واقول ان هذه الظاهرة خطرة اذ انها تؤدي الى طريقة كلاسيكية في فهم الاشياء : لا بد من اصدار حكم على النقاط التي نعالجها ، الشعر الذي ننتقده مثلا فتكون النتيجة سيئة ، عاجزة وغير نافذة ، ذاك اننا حينما نأخذ كتابا شعريا ، كتاب انسي الحاج الشاعر اللبناني مثلا ، فيجب ان نتساءل كيف نريد ان نقرأ هذا الكتاب . هل نتخلص من أفكارنا المسبقة ، ثم نبادره بروح نبيلة ، اعني بوعي نام ، أم اننا نسخر كل همنا للحقد على الكاتب فنضيع بذلك بين احكام موروثة مجدبة ونضيع القراء ونقلل من قيمة الكاتب .

ان السؤال الرئيسي يتلخص فيما يلي : كيف نقرأ ؟ كيف قرأنا ؟ كيف كتبنا ؟ كيف نريد أن نقرأ وان نكتب ؟ هذه السلسلة من الاسئلة تضعنا أمام أمر واحد : كيف نختار أي كيف نستخدم حريتنا ؟ والاختيار مرتبط اساسا بحياتنا وارتباطاتها وتبادلاتها ، بمستوانا الفكري وأهدافنا الانسانية . لكن مهما وضحت أهدافنا ونضجت أفكارنا نبقى غير محدودين . وان اصدار حكم نهائي على أي عمل يعني أننا جمدناه في الزمن . وهذا ما ينطبق على العمل الادبي . فنحن حينما نتناول « ماضي الايام الآتية » لانسي الحاج ، فنحن نعرف ان هذا الكتاب ابن مرحلة زمنية محدودة وهو ككتاب لن يتطور في الزمن ، الا ان انسي الحاج سيتطور اي سيتغير . لذا كانت ضرورة النقد . فنحن لا ننقد الحجر . لكنه حين يصير تمثالا نقوم بنقد فني لمهارة النحات . ونحن في الشعر لا ننتقد الكلمات – الوسائل – ولا انسي الحاج شخصيا ، ننتقد مهارة انسي الحاج في مرحلة زمنية معينة . اذن عندما انتقد كتابه كجزء : ليس من الضروري ان اتكلم عن كل كتاباته . وانا كناقد لي حق الاختيار في الالحاح على نقطة دون أخرى . وأنا بعيدا عن كل صراعات العصر الرومانسية حول نوع الكلمات وطريقة رصفها عاموديا أو نثريا أو بحرية ، بعيدا عن كل اضطرابات العصر في فهم الشعر ، أحاول ان استجلي الانسان الضائع داخل وعلى حدود أو خارج هذا الخضم الجدلي . انني أنطلق من فكرة الرائد هيراقليطس الذي يقول : « الجدلية هي صراع المتناقضات فحيث هناك حركة هناك تحول . لكنني أبحث عن نفسي ضمن هذه الحركة » . والواضح انني حاولت في مقالي « أربعة شعراء وتجديد » أن أثير بعض جوانب التحول لدى البياتي والحاج خاصة ، وان أتوغل في جبلة الانسان – اذا كان له جبلة – محاولا ان أرى شخصية الانسان الاخيرة . ولربما كان منهجي غير تاريخي وانا لم أقل انه كذلك . الا ان لي منهجا واضحا بنظري ، يتلخص كما يلي : لا بد للناقد من تكوين فكرة عامة عن العمل الادبي وذلك بواسطة الحدس . وهذا ما يتمتع به كل انسان . الا ان الغموض يكتنف هذه النقطة العمياء التي هي الحدس المختلفة عن التكهن . لذا لا بد للناقد ان يختار النقاط الشعرية المهمة في المؤلف وان يعمد الى تحليلها وذلك بواسطة عرضها والتقديم لها . فيخلق بذلك جسرا بين الشعر وفهم الشعر .

والنقد هو اجابة على السؤال كيف نقرأ ؟ ماذا نقرأ ؟ ما معنى القراءة ؟ ما هي علاقتها بالانسان المكرس للتوغل ؟ .. لذا كل نقد هو محاولة جانبية وغير مكتملة ، ويختلف من ناقد الى اخر ، حسب الاتجاه والاهتمام الشخصي وحسب التربية الاجتماعية والفكرية وحسب النظرة الفلسفية ومدى النضج السياسي . اذن النقد مشترط بعدة عوامل غير متناسقة تماما ولربما كانت في أساس اختلاف الاشخاص . وهنا نثير مشكلة أخرى لا مجال لنقاشها : هل للانسان طبيعة وما هي ؟

أما الاستاذ صبري حافظ فيعتقد أن مقالي « أربعة شعراء وتجديد » « فيه كثير من الظلم لهذه الدواوين وقليل من الاحترام لها » . وهذا حكم على المقال لا بد من تبريره . فهو رغم وضوحه الظاهري غامض في الحقيقة ولا يثبت تحت مجهر النقد الصحيح . فان « الظلم » تعبير ايديولوجي يستعمله كل فرد يشعر أن حقه قد انتقص . وقد تستعمله الجماعة فيتحدث حينئذ عن الظلم الاجتماعي . الا ان مفهوم الظلم غير واضح تماما وهو يفترض اتخاذ موقف سابق – موقف موروث غالبا – نظري نحاول بواسطته أن نحاكم الواقع ، ان نتمرد عليه وان نتخطاه – بالمعنى الهجلي للتخطي – . الا ان هذا لا يعني أن هذا الاختيار غير خاطيء في منطلقه ولا انه صحيح تماما . فباستطاعتنا ان نطلق صفة الظلم على موقف عادل بنظر الاخر . لذا كنت ارجو من الاستاذ حافظ ان يعطينا مثلا عن ظلمي . وذلك بأن يعمد الى المقارنة بين الصورة الخاصة التي كونها عن هذه الدواوين او عن بعضها وبين الصورة التي اعطيتها عنها في مقالي . وكذلك هو الامر بالنسبة لتعبير « احترام » . يحسن ايضا ان يوضح لنا كيف نحترم العمل الفني وكيف نحتقره . وكل ما أرجوه هو ان نوضح التعابير التي نستعملها فحينما يقول : « فيه قليل من الاحترام » فيجب أن يقنعنا بنظرته . ثم ان الاحترام ليس ضرورة قائمة بذاتها . فهناك اشياء لا تستحق الاحترام . وهذا لا يعني انني لا احمل احتراما انسانيا لهؤلاء الشعراء كنفس الاحترام الذي أحمله لكل انسان في الارض .

وهذا لا يمنع ان أقول رأيي سلبيا كان أو ايجابيا . فالقضية لاتنحصر في أن نكون ضد او مع ، بل في أن نفهم ، والفهم مشكلة مطروحة فلسفيا عند ماكس فبر weber وهي غير محلولة تماما . ذاك ان طرقا كثيرة في الوصول الى الاعماق ممكنة مثل الشرح السببي ، او التركيبي او الوظائفي الخ... ونحن نحاول ان نفهم وما نفهمه لا نزعم بانه وحيد فريد . أنواع أخرى من الفهم ممكنة ومن الافضل ان نكتفي هذه الانواع لتتم بعضها البعض . فلربما كان تعليق الاستاذ صبري حافظ مهما ومتمما لما شرعت في عمله ، الا انه هو الاخر يحتاج الى توضيح وتدقيق . فهو يقول ان مقالي : « مجموعة من الاحكام العمومية المتسرعة » وأنا لا أدري اذا كان هذا الحكم متسرعا أم لا . ليس من الضروري ان يدافع الانسان عن نفسه غريزيا كأنه يحس بحاجة خاصة للحماية الشخصية . الا ان عليه ان لا يتسرع في الانفتاح على الاخرين وفي طريقة الحوار معهم . فلربما أغلق بابا كان يمكن التعرف منه على عالم انساني اخر قد لا يختلف كثيرا عن عالمه الخاص . الا ان الرغبة المثالية في الشمولية تؤدي الى اصدار احكام جاهزة كهذه .

ثم يعتقد الاستاذ حافظ ان قصيدتي « محنة ابي العلاء » و « عذاب الحلاج » هما أهم قصيدتين وهذا رأي شخصي . وأنا لاأؤمن بالانسان فقط بل بالانسان الموجود في عالم محدود بشروط ثقافية وتكنيكية واجتماعية خاصة . ان وجود ناقد في مصر غير وجود ناقد في فرنسا . وان النظرة المثالية التي تقول ان الانسان هو الانسان اينما حل خاطئة . ابن الفلاح الذي يدخل الجامعة في بلده يصير شيئا اخر ، مختلفا عن الفلاحين نسبيا : انه يتغير ، يختلف عنهم في بعض جوانب التنمية ، ويتحول . والاستاذ يطالبني أن أغوص في أغوار

عذاب الحلاج . فبالله اين هو الحلاج حتى أغوص في أغواره ؟ ان الحلاج قد وصل الينا عبر شعره وكتاباته ونحن نختلف في فهمه ولعل الاستاذ صبري حافظ يعتقد انني لم أسمع بالحلاج لان فرنسا بعيدة عن الشرق . ان ادونيس هو أول من كتب شيئا عن الحلاج : مرثية الحلاج في كتابه « اغاني مهيار الدمشقي » ثم انا ثاني من كتب عن الحلاج الذي هو انا في القرن العشرين . قصيدة ظهرت عام ١٩٦٣ بعنوان : « الحلاج وبئر المسرة » في مجموعتي « الصوت الاخر » . فنرجو من الاستاذ الكريم ان يوضح لنا ما هو عذاب الحلاج الذي لم نصل الى استقصائه في شعر البياتي ؟

اما فيما يتعلق بانسي الحاج فهو شاعر لبناني مهم جدا ، يملك كل روحية الشاعر وتطلعاته . وهذا رأي شخصي . الا ان نقدي كان موجها لبعض نقاط بدت لي مهمة في شعره . أما ان يكون انسي قد تأثر بهنري ميشو فهذا أمر مغلوط . انسي انسان لا يستطيع ان يقلد . ان التمرد هو حقيقته الوحيدة - سواء كان سلبيا او ايجابيا - . واما مشكلة البحث عن أصول قصيدة النثر فلم يكن واردا في تخطيطي لهذا المقال وقد اعتذرت عن ذلك واشرت للقارىء ان باستطاعته مراجعة مقدمة « لن » لانسي الحاج او مقال ادونيس عن قصيدة النثر . وباستطاعة القارىء ان يراجع كل ما كتب بالفرنسية عن قصيدة النثر عند رامبو وسواه وخاصة « نقد الشعر من رامبو الى السريالية » أو مراجعة كتاب « الفن الشعري » بالفرنسية . الا ان مقالي لم يكن مكرسا لمعالجة قصيدة النثر أبدا . أما الاصول التي نهل منها انسي الحاج فهي غير موجودة حسب الفهم الايديولوجي لمعنى التأثر . صحيح ان انسي الحاج يقرأ الشعر الفرنسي كسواه من المنفتحين على العالم الغربي الا ان له طريقته الخاصة في فهم الاشياء وما يبحث عنه غير واضح تماما نظرا لانعدام الخطة العامة في حياته - الخطة السياسية او الثقافية . الا انه يرمي بحق الى توسيع دوائر الحرية المتخلفية والنهوض - ربما بطريقة مختلفة عن محاولات الملتزمين العرب - بالانسان في بلادنا. ربما كان انسي أقرب الى ارتو منه الى ميتسوفينا.

الا ان مهمتي لم تكن قائمة على عقد مقارنة بين انسي والادب الفرنسي. ربما كان ذلك يؤدي الى افقار مقالي . الا انني لا اؤمن منطلقيا بضرورة مثل هذه المقارنة اذ انها عديمة الفائدة وخاصة ان شاعرا مهما كانسي هو زئبقي ولا يريد ان يكون الا نفسه ويرفض ان يرى ظلا له في العالم . هذه هي حقيقة الشاعر الاخرى المنبثقة في نقاطه الخاصة .

أما ان تكون الغاية من مقالي هي الحديث عن التجديد فهذا امر غير وارد . فأنا اقول « تجديد » وهنا ليست القضية قائمة على اللعب بالكلمات ، بل على فهم الكلمات . التجديد تعني الفهم العام لحركة التحول . وتجديد . نعني الاشارة الى نوع خاص محدد من طريقة في التحول . اما ان يكون تعريفي للتجديد مدرسيا ، فيلزمنا ان نتوقف حول كلمة « مدرسي » لمناقشتها . فأنا انطلق من نقطة خاصة : الفن لا تاريخ له . الا ان الزمن مهم في حركة الفن . لذا فمراقبة التجديد هي مراقبة للتحول التركيبي والتعبيري للعمل الادبي خلال فترة زمنية محددة . فهل هذا هو الفهم المدرسي للتجديد ؟

واما ان يكون مقالي مفككا ، بسبب فهمي للتجديد فهذا خطأ . وخطأ أيضا الاعتقاد بانه كذلك لافتقاري الى منهج عملي في النقد . ولكنه عائد الى كون الاعمال الاربعة مفككة أساسا . حتى ان القصيدة الواحدة مفككة وبعض الاحيان محطمة وميتة - أي غير شعرية - . ولم أقصد أن أبني هيكلا واحدا لجميع الناس ، بل غايتي كانت قبل كل شيء غير ايديولوجية ، رغم ان الايديولوجيا تؤثر على توجيه التركيب النفسي والاجتماعي وتفسيره . غايتي كانت ملخصة في رؤية الهياكل التي شيدها غيري والاشارة اليها واضاءتها حيث يجب ، بعد فهمها. ربما كان هذا تصورا خاطئا لعملي ، لكن هذا هو ما قصدته بصدق . والصدق يحتاج الى تعريف . وأعني انني بقيت على علاقات ثابتة مع أفكاري التي كونتها سابقا عن تصوري لهذا المقال رغم تطوري النسبي في الزمن خلال شهرين . الا ان التطور لا يجرف كل شيء . والتغير الجذري غير موجود في الفترة القصيرة .

ليون — **خليل أحمد خليل**



الجمهورية العربية المتحدة

رسالة القاهرة – من : سامي خشبة –

عام من النشاط الثقافي

***

في التاريخ الامريكي فترة تعرف باسم ((سنوات امريكا الزرقاء)) ويطلق هذا الوصف الشاعري على فترة الكساد العظيم الذي شمل امريكا والعالم الرأسمالي في أواخر الثلاثينات . ولا شك ان قوى التخلف الاجتماعي والفكري في بلادنا هي الاخرى تعيسة ((سنواتها الزرقاء)) في هذه الفترة من تاريخنا . يعيشون فترة كسادهم التي تسبق البوار والموت الاخير ، فتراهم يأتون اعمالا متشنجة لا تبصر فيها من مثل ما فعله عزيز أباظة في عيد العلم في اواخر العام حينما راح يصب لعناته على كل دلائل التقدم والتحرر الفكري ، تحت ستار الهجوم على العامية في الادب ، موزعا اتهاماته بالكفر وبالمروق من غير روية ولا حكمة ، هي المنتظرة دائما من ((الشيوخ !)) . لم يبدأ هذا الكساد عفوا او نزولا على حكم التاريخ وحده ، ولكن بشائر الانتصار الاولى في المعركة القاسية المحترمة بين قوى التخلف المحتضرة وبين قوى التقدم التي تبرعمت وتزدهر الان على ارض الجمهورية العربية . ولو ألقينا نظرة تغطية شاملة على واقع الحياة الثقافية في مصر من خلال العام المنصرم ، وركزنا ابصارنا على بداية هذا العام وعلى منتهاه ، لاكتشفنا المسار الحتمي الذي تتخذه حركة الواقع الثقافي في بلادنا .

بدأ عام ١٩٦٥ وقد تمكنت قوى التخلف الفكرية من السيطرة على مجلات وزارة الثقافة ، وراحت تشن حملة ضارية وجهت معظم نيرانها ضد الدكتور لويس عوض لكي تهاجم من خلاله كل القيم الانسانية المتقدمة من حياتنا الثقافية ، بدءا من قيمة الالتزام الثوري للادب والفن ، ومرورا بقيم التجديد والتعبير الفني الانساني ووصولا الى توجيه شتى الاتهامات بالكفر او بالشيوعية والى الدفاع عن كل ما هو موروث انطلاقا من فكرة قدسية التراث أيا كان نوع هذا التراث او اتجاهه . ووصل العام الى نهايته مع بداية نشاط ثقافي جماهيري لم تشهده بلادنا في تاريخها الحديث من قبل ، عندما طرحت مجلة ((الاشتراكي)) التي تصدرها امانة الدعوة والفكر للاتحاد الاشتراكي العربي مشروع ميثاق ثقافي لمناقشته يهدف الى تحقيق وحدة فكرية بين المثقفين الثوريين في مصر ، وحدة فكرية ، الهدف الاساسي منها خلق امكانية وحدة العمل بين هؤلاء المثقفين ، حتى تتاح لهم فرصة المساهمة الفعالة في معركة البناء الانساني لمجتمعنا الجديد . الندوات الفنية والفكرية تعقد في كل يوم في القاهرة في مقر الاتحاد الاشتراكي وباشراف أمانة الدعوة والفكر فيه ، وفي بعض دور الصحف القاهرية وعلى صفحاتها دارت المناقشات ليعبر أطرافها عن شتى وجهات النظر ازاء نقاط المشروع المحورية . وتتبلور المناقشات حول نقاط ثلاث رئيسية : دور الثقافة والمثقفين في المجتمع ، والتزام الفنان وحريته ، وامكانية الوصول باثار العمل الثقافي في شتى مجالاته الى الريف حيث توجد القاعدة العريضة الغالبة من جماهير شعبنا .

كانت بداية العام كئيبة وموحشة وكانت نهايته ارهاصا بانطلاق جاد نحو آفاق أكثر رحابة وشمولا وانسانية . ولكن عامنا الثقافي لم يقتصر على بدايته ومنتهاه وانما امتد بين هذين الطرفين طريق طويل من الاعمال الادبية والفنية والفكرية ، التي وان انبأت عن نشاط واسع لم تكن كلها دفقات من الدم النقي عامل الحياة يجري في شرايين واقعنا ، بل كان بعضها دما مسمما ، وكان بعضها دما ينساب من جراح في جسدنا ويضيع على الرمال .

منابر جديدة :

في هذا العام ظهرت في القاهرة منابر جديدة فنية وفكرية تستخدم كلها الكلمة من أجل الوصول الى الناس . كما اوصدت منابر أخرى كمجلات الرسالة والثقافة والشعر والقصة والفنون الشعبية وكنا نود الا تعالج مشكلتها بهذه الصورة فيضيع الصالح مع الطالح جميعا . ظهرت مجلة ((الفكر المعاصر)) لكي تنقل وتسجل وتقيم نقاط الانطلاق والوصول واتجاهات النشاط الفكري في عالمنا المعاصر وفي بلادنا . وهذه مهمة جليلة ولا شك ، ولكن المجلة ما تزال مقصرة عن تحقيق الهدف الذي نتصور انها صدرت من أجله . فما زال جيل المثقفين – من غير ذوي الاهتمامات السياسية – ينظرون الى كلمة ((المعاصر)) كما لو كانت وقفا على الغرب ، وما زالوا ينظرون الى الفكر السائد في بلدان العالم الاشتراكي والى اعمال هذه البلدان الفنية والادبية والفكرية كأشياء تتسرب الى عصرنا من عالم القرن التاسع عشر غير مدركين او غير واضعين في اعتبارهم تلك الحقيقة ((الجغرافية)) ((السياسية)) على الاقل ، القائلة بان هذه البلدان بما تنتجه من أفكار واعمال جزء ، وجزء كبير ، من عالمنا هذا المعاصر ، بغض النظر عن ((الدعوى)) الفلسفية التاريخية للفكر العلمي القائلة بانالاشتراكية هي المآل الحتمي لتطور كل المجتمعات المعاصرة غير الاشتراكية على اختلاف سبل الوصول اليها . ينعكس هذا الفهم على مجلة ((الفكر المعاصر)) اذا ما نظرنا الى مجموع ما تقدمه المجلة من كتابات تكشف لنا ((الفكر الغربي المعاصر)) ، هذه العبارة التي قد تصلح اسما للمجلة اكثر مما يصلح لها اسمها الحالي !

وظهرت كذلك مجلة ((الطليعة)) ، وهذه مجلة سياسية خالصة ، تهتم في المقام الاول بدراسة مشاكل الواقع المصري من جوانبه السياسية والاقتصادية والتاريخية . والحقيقة ان هذه المجلة تبذل جهدا كبيرا من أجل سد فراغ معين في حياتنا الفكرية ، مجال الفكر السياسي المصري ومشاكل التطبيق السياسي والاقتصادي في مصر . ولعل أبرز ما يميز ((الطليعة)) حقا هو ذلك الاهتمام بدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي لمصر من جوانب لم تكن مثار اهتمام المؤرخين الاكاديميين في الجامعات المصرية ، ظهرت وثائق تسجل تاريخ الحركة العمالية في مصر ، وظهرت وثائق أخرى واقعية تسجل تاريخ حركة الاحزاب السياسية ، وتاريخ ملكية الارض وتطور شكل الاستغلال الزراعي ومضمونه . وربما كانت مجموعة الدراسات القيمة التي ظهرت في المجلة عن سلامة موسى في ذكرى وفاته من أهم وانبل ما قدمته هذه المجلة .

أعمال جديدة :

الظاهرة التي تلفت النظر في مجال الخلق الادبي ان الكتاب

الاكثر نشاطا وانتاجا هم أبناء جيل ما بين الحربين ، وما زال جيل الحرب العالمية الثانية يخب وئيدا في طريقه . ان الظروف الخارجيه التي يعيشها ابناء هذا الجيل لا تمثل كل ما يبغونه من رياح مواتية لهم - وخاصة في مجال النشر - بالاضافة الى وقوفهم دون استعداد في خضم مجال الصراع بين القديم والجديد وهم التجسيد الحقيقي لكل الجديد في المستقبل القريب . فعلى الرغم من نظام التفرغ - المقصود به الاهتمام بالامكانيات الشابة أساسا ورعايتها - كأن هذا النظام لم يثمر ثمراته المرجوة حتى الان في مجال الخلق الادبي والنقدي بالذات وبفروعه المختلفة .

في العام المنصرم صدر للاستاذ نجيب محفوظ روايتان ، كانت « الشحاذ » اولاهما ، وكانت « ثرثرة فوق النيل » هي الثانية . وكانت الروايتان ايغالا جديدا من جانب الكاتب الروائي الكبير في طريق بحثه المتشوق العظيم عن تصور معاصر واصيل لانسان عصرنا المشتت وانسان بلادنا بالذات . ما زالت روح نجيب محفوظ القلقة المنقبة كالمسافر بلا عودة ولكنه المتنقل بالامتعة ، تبحث عن المدينة التي يمكن ان تستقر فيها وتطمئن بين حناياها على وجودها . ولكن قلق نجيب محفوظ ذاته انما هو الدليل على احتياج الرواية المصرية المعاصرة الى الكاتب الفنان الشاب الذي قد يستطيع انطلاقا من أرضية يقين شبابه ومعاصرته وأصالته ، الوصول الى ذلك التصور المعاصر والاصيل عن انساننا الجنيني الذي يكمن - ما يزال - في ضمير المستقبل .

وفي نفس العام صدرت للاستاذ الرائد توفيق الحكيم ثلاث مسرحيات « الورطة » ، « مصير صرصار » ، « الصرصار ملكا » . كانت الاولى بحثا ميتافيزيقيا سطحيا عن العلاقة بين العلم والقانون ، وكانت الاخريان سبابا او قذفا موجها الى البشر !.. فقد كانت كل هذه « الصراصير » رموزا تشير الى الناس وتتحدث عن قصور عقولهم وعدم امكانية فهمهم للعالم الفيزيقي من حولهم ، وتعقيد أفكارهم وغبائها حين يتحدثون عن أي شيء اخر . ومن تحصيل الحاصل ان نقول ان هذه الرؤية « الكافكاوية - الحكيمية » لم تقم على سنة من فلسفة نافذة او اعجاز فني جديد !!

اما نعمان عاشور فقد صدرت له في نهاية العام مسرحية « وابور الطحين » ، وعرضت في بداية الموسم المسرحي الجديد على مسرح الحكيم وأخرجها المخرج الشاب كثير الصياح « نجيب سرور ». لقد قلنا ذات مرة ان كتاب جيل ما بعد توفيق الحكيم المسرحيين يقفون عند حدود المرحلة الابسنية الطامحة الى تشيكوف « مبسط » . ولكن يبدو أن الترجمات المسرحية والنقدية الكثيرة التي صدرت في السنوات الاخيرة في القاهرة ، وكثرة الحديث عن بريخت والمسرح الملحمي مرتبطا بالاشتراكية ، ثم تجربة يوسف ادريس في « الفرافير » قد دفعت بالاستاذ نعمان عاشور ، وهي تدفع الان بالدكتور رشاد رشدي الذي خرج من سلالة « الدراما النفسيـــــة » ، الى احضان الملحمية غير المفهومة الممتزجة بالتجريد الذي لا لزوم له ، لتؤكد خصوبة المسرح المصري في بحثه عن شكله الاصيل من ناحية ، ولتؤكد تخبط هذا البحث من ناحية أخرى . لم يحدث قط أن ظهر كاتب مسرحي « بريختي » كامل منذ ان مات بريخت ، وهذا لا يدفعنا الى التشكك من قيمة ما فعله بريخت ، وانما يدفعنا الى اقرار حقائق معينة . أولاها ان المسرح الملحمي ليس هو الشكل المسرحي المعاصر الوحيد ، وانما هناك تجارب بيرانديللو واوركا واونيل وسارتر وويلدر وطاغور وكامو ودورينمات وفريسن وبيكيت وايونسكو . وثانيها ان شكلا واحدا من أشكال الدراما على مر التاريخ لم يتخذ صفة الثبات والابدية حتى وان ادعى لنفسه ذلك فلا داعي لاضفاء هذه الصفة دون فهمها على المسرح الملحمي - ودون فهم كامل للمسرح - وثالثها انه من الخطأ الزعم بان شكلا معينا من اشكال التكوين او البناء الدرامي هو الشكل الملائم الوحيد للتعبير عن وجهة نظر معينة في الوجود او التاريخ او الانســـــان !...

وقبل نهاية العام صدرت لالفريد فرج مسرحيته الثالثة « سليمان الحلبي » بعد مسرحيتيه السابقتين « سقوط فرعون » ، « حلاق بغداد » ، الا ان المسرحية الجديدة تدفع بالفريد الى مستوى جديد من مستويات النضج الفني والفكري معا . استخدم المؤلف هذه الشخصية التاريخية التي قفزت فجأة من طيات الظلام الذي يخيم عادة في « التاريخ الكلاسيكي » على الناس العاديين لكي تقوم بعمل فذ وغير عادي ، اغتيال الجنرال قائد الحملة الفرنسية في مصر بعد نابوليون ، ويسقط عليها النور الغامر كله ثم تموت على الخازوق . وكانت أسئلة الفريد التي بنى عليها مسرحيته : من أين جاء سليمان ؟ من هو ، وكيف كان يفكر وما بواعثه وما هي انفعالاته ؟ لقد وقع سليمان في محنة البحث عن سبب يبرر به اتيان الفعل الذي رأى الا بد من القيام به . وكان ان قدم الفريد فرج عملا مسرحيا ناجحا لولا اغراق مناقشاته الذهنية في الجمل المطولة « العميقة » التي قد يصعب على جمهورنا استيعابها منطوقة بسرعة بالقاء الممثل ، ولولا جنوحه ايضا الى استخدام الكورس البريختي حيث لم تكن له ضرورة والموقف واضح ، والحق بين ، والقاتل من قبل المسرحية في انظارنا بطل ، الا اذا كان الهدف هو اقناع الفرنسيين انفسهم ببطولة سليمان قاتل جنرالهم ، خاصة وقد بنيت المسرحية على أساس وضع سليمان في موقف المدافع عن الحق - ولكن الباحث القلق عن وسيلة الدفاع وعن مبرراتها - ولم تقف عند حدود العرض الموضوعي فحسب لكل من موقف الفريمين - سليمان وكليبر - الشيء الذي تتطلبه « النظرية » الملحميـــة للمسرح !..

ومما يلفت النظر هنا ان الناس في القاهرة - فكل الناس في القاهرة يكتبون الان عن المسرح وليس كلهم يتفرجون عليه منذ زادت الترجمات المسرحية - يلفت النظر انهم هاجموا مسرحية الفريد ، دون استثناء تقريبا ، ما عدا الاستاذ محمود أمين العالم والاستاذ رجاء النقاش ، أي الكاتبيـــن الوحيدين « المتخصصين » في النقد الادبي والمسرحي !..

اما فيما يتعلق بالشعر ، ديواننا القديم المتجدد الاثير الى نفوسنا، فقد بدأ العام بصدور الديوان الثاني للشاعر احمد عبد المعطى حجازي « لم يبق الا الاعتراف » . ان الشيء الباهر في هذا الديوان حقا هو احتفاظ حجازي بروحه الشعرية العاطفية الممتزجة بأجزاء متفرقة من رؤيا عصرية موزعة بين الحزن الخائف والالتزام الذي يصل حد اليقين اللاشعري في بعض الاحيان . لم يفتتن حجازي بالاتجاه الحديث السائد القائل بضرورة نزوع الشعر الى العقلانية والى تكثيف ثقافة الشاعر - الفلسفية خاصة - في « مقولات » شعرية تبدأ باسم الشرط وتلتزم بتقديم جوابه في بناء متكامل يتضح فيه حدا طباق المنطق المرهفان . ورغم هذا فقد نمت عند حجازي نزعته الى التقرير المرتبطة برغبته في صياغة المفهوم السياسي واخضاع التجربة الشعرية - او القوالب الشعرية بتعبير ادق - لهذا المفهوم.

اما الشاعر صلاح عبد الصبور الذي قرأنا له في العام الماضي « أحلام الفارس القديم » فلم نكد نقرأ له شعرا في هذا العام . حقا لقد قدم مسلسلتين طويلتين من المقالات في جريدة الاهرام القاهرية قام فيهما بعرض وجهة نظر جديدة في الشعر العربي القديم والحديث، وهذه محاولة جادة ومخلصة وضرورية من شاعر معاصر ان يبحث في تراثه وفي منجزات عصره في مجاله الخاص ، الا اننا لم نفهم السر في استهلاكه لنفسه في كتابة النقد الادبي والمسرحي ، اللهم الا اذا كان العمل الصحفي هو ما يجبره على ذلك . ورغم هذا فقد كتب صلاح مسرحية شعرية عن « الحلاج » لم تتح لنا قراءتها بعد ، والمنتظر ان تقدمها احدى فرق القاهرة المسرحية في الموسم القادم .

وفي القاهرة صاحبنا هذا العام الشاعر العراقي الكبير عبد الوهاب البياتي ، وفي القاهرة اصدر ديوانين « قصائـــد » وهو

مختارات من دواوين سابقة ، ثم « سفر الفقر والثورة » وهو ديوان جديد صدر عن دار الاداب . ان البياني اذ يعبر في ديوانه الجديد منطقة التعبير الخارجي عن آلام الناس ومعاناته هو لآلامهم ، واذ يلج مرحلة جديدة بالنسبة له من التعبير الداخلي عن معاناته الخاصة الذاتية التي تعكس توحد مأساة الشاعر مع مأساة الناس عبر تجربة الخلق الشعرية ، ان البياتي اذ يعبر من تلك المرحلة الى هذه فانما ينمو وينشب جذوره في ارض صخرية يرويها برحيق تجربته ودمائها وعرقها لتخضوضر وتزدهر . والظاهرة التي قد نحب التوقف عندها لنلاحظ المشاركة فيها بين صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي لهي ظاهرة الاتجاه الى البحث عن افاق جديدة في التراث الصوفي الاسلامي ولكن من وجهتي نظر متقابلتين . صلاح يتجه في ارتياده وجهة البحث عن ميتافيزيقيا جديدة وانسانية وشاملة ، ميتافيزيقيا تكمن في المستقبل تذكر بفكرة نمو الروح عند هيجل وابن تيمية . اما البياتي فتتجه رحلته صوب البحث عن قيمة التمرد والثورة التي احتوتها تجربة التصوف الاسلامي من حيث كان التصوف نوعا من الرفض ــ الروحي على الاقل ــ للواقع وما استتبع هذا الرفض من ضرورة دفع ثمنه عينا ، من الحرية احيانا ومن الدم في احيان اخرى . صلاح يبحث عن التسامي الروحي في تجربة التصوف ، ويبحث البياتي عن الانعكاس الحسي لنفس التجربة .

وفي القصة القصيرة صدرت بعض المجموعات لكتاب متوسطي الموهبة ، حاولوا سد النقص بتركيز معظم تجاربهم حول بناء المصانع او اكتشاف الجانب المتفائل من الحياة في سذاجة غير مجدية حتى لم تكن لمجموعاتهم اصداء مسموعة بعد صدورها . اما يوسف ادريس فكان صاحب المجموعة الوحيدة « لغة الآي آي » التي اثارت نوعا من النقاش ــ ربما بحكم العادة وربما لان يوسف ادريس يحاول جاهدا العثور على اسلوب جديد للتعبير يحمله رؤيته المتجددة للانسان وللواقع . وعلى الرغم مما تلقاه القصة القصيرة من تجاهل اجهزة النشر ومؤسساته ، الا ان الندوات الادبية في القاهرة ما تزال تزخر بكتاب القصة القصيرة الشبان ، حتى لا تخلو ندوة من قصاص شاب مجيد او موهوب يجهد في الوصول بانتاجه الى الناس عن طريق القراءة المباشرة او توزيع قصصه على الاصدقاء القراء .

اما السينما المصرية فعلى الرغم من الاتجاه الغالب فيها نحو تقديم اعمال لكتاب كبار ، ونحو اشراف عدد اخر من الادباء على اجهزتها بصورة مباشرة ، وربما بسبب من هذا الاتجاه الى جانب اسباب اخرى من مثل الابقاء على نفس الوجوه القديمة مالكة اقطاعيات السينما المؤممة القديمة في مراكز حساسة واساسية بالنسبة للانتاج السينمائي يديرونه ويوجهونه بنفس عقليتهم القديمة ، اقول انه بالرغم من ذلك ، ولهذه الاسباب ، فقد انعكست كل المقدمات لتأتينا النتائج المتوقعة . فاذا كانت البداية في هذا العام قد جاءت بفيلم « هي والرجال » عن قصة للاستاذ احسان عبد القدوس ، لم يكن من المستغرب ان تأتي النهاية بفيلم « هارب من الايام » الذي كان مسلسلة تليفيزيونية اذيعت مرتين متلاحقتين ــ عن قصة لثروت اباظة ! . واذا طرحت المناقشة حول السينما المصرية بدءا من البحث عن « كيفية تجديدها » وليس من التساؤل عما ينقص هذه السينما المصرية لكي تكون سينما مصرية حقا، فلن يكون من المستبعد ان يتركز الاهتمام حول زوايا التصوير والانتاج المشترك والتسويق العالمي ... الخ ، دون التفكير في « ما هي السينما ؟ » ، وهو السؤال الاول الذي قد يصعب العثور على اجابة له في القاهرة على الا تكون اجابة مترجمة من مجلة «الصوت والضوء» الانجليزية ! .

وقد يكون من الطبيعي ان نتحدث بعد هذا عن النقد رغم تجاوزنا عن رصد مجال الدراسات التاريخية او التسجيلية او التقييمية . فما زال هذا المجال محصوراً بين هيئات التدريس الجامعية بهدف القيام بتدريسها او ادماجها في مقررات الجامعة ، فتفقد الدراسة روح العمل النقدي المباشر والمعاصر والمواكب لحركة الخلق نفسها ، وتفقد في نفس الوقت روح العمل الاكاديمي الذي يتفرغ له كاتبه فيوفيه حقه من العمل المجهد المثمر ايضا .

اما النقد فقد خسر في بداية هذا العام رائده وشيخه الكبير الدكتور محمد مندور ، وخسر في منتهاه واحدا من رواده وابطاله الاستاذ انور المعداوي . خسرناهما وخسرهما الفنان الخالق والناقد جميعا . وقد تعزينا عنهما اعمال لهما باقية ، نشرت او تنتظر النشر .

لقد صدرت في هذا العام مجموعات من الاعمال النقدية، التطبيقية المباشرة او المنهجية ، في شكل مقالات متفرقة او تلك التي تنحو نحو التكامل لكي تصبح دراسة حول موضوع معين . ولقد يخيل للقارىء المتابع احيانا ان النقاد يزيدون عدداً عن الكتاب الخالقين ، ولكنهم ــ النقاد ــ لامر ما لا يقومون بتوزيع انفسهم على هؤلاء الكتاب او طبقا لفروع تخصص ــ عامة على الاقل ــ ان لم تكن محددة . قد فرض العمل الصحفي هذا التشتت احيانا بين القصة والرواية والمسرحية والشعر والدراسة والترجمة ، ولكن ان يخضع الناقد حيانه المنتجة كلها لما يفرضه العمل الصحفي او لما يفرضه « سوق » انتاج الاعمال الفنية ، دون محاولة لاكتشاف او تبني منهج نقدي نوعي خاص ، وفي تبعية كاملة للعمل الفني من خلال عملية رصد لسلبياته ودون محاولة لتخطيه او دفع خالفه الى الامام ، اقول ان هذا الخضوع لا يمكن ان تقتصر نتائجه السيئة على نوعية العمل النقدي ومستواه وقدرة الناقد على متابعة انتاج عصره ولغته ومجال تخصصه فحسب ، وانما تمتد هذه النتائج الى العمل موضع النقد والى الكاتب الخالق نفسه ، حين يقف النقد عند حدود العادية والتناول الخارجي والمجزء للعمل الفني .

...

لم يكن الهدف من هذا العرض تقديم رصد كامل او شامل لكل

ما انتجه النشاط الفني والادبي في بلادنا في غضون عام كامل هو من الاعوام الحاسمة في تاريخنا ، ولكنها كانت محاولة لتقديم صورة ـ او تصور ـ عام يمكن ان نتلمس من خلاله نمونا او قصورنا ، اقترابنا او ابتعادنا عما ينبغي للادب او الفن ان يقدماه لحياتنا من مؤونة . ان يصبح العالم مكانا اكثر صلاحية لاستمرار الحياة ونموها ، وان تكتسب الحياة نفسها معنى اصيلا بالجمال والفكر الانساني الخلاق !

القاهرة — سامي خشبة



القصة ... عندنا

***

كتب الاستاذ سامي خشبة في « آداب » تشرين الاول (اكتوبر) مقالا عن أزمة القصة القصيرة في ج.ع.م. ، وقد دهشت حقيقة لهذا العنوان وانا أقلب « دستة » من المجلات القاهرية التي أمامي وانا واقف قرب مكتبة في مدينة الديوانية بالعراق وقد زينت واجهاتها الزجاجية بعشرات من كتب القصة القاهرية .

وعندما قرأت الموضوع وجدته استعراضا نقديا لتقييم ما ينبغي ان تكون عليه القصة القصيرة موضوعا وكان ذلك مجالا لابتسامة عريضة افتنصتها وانا أفكر في « أزمة » القصة ـ عموما ـ عندنا في العراق.

نحن بلا قصة تماما وما يصدر احيانا وفي كل شهرين ـ على وجه التقريب ـ انما هي محاولات فردية بطولية يقوم بها بعض الكتاب ممن استدانوا او باعوا شيئا من أثاثهم ليقدموا جزءا من حشرجات صدورهم هدية للقارىء العراقي النقاد الذي يتطلع الى الاحسن ولا يجد شيئا .. لا الاحسن ولا الاردأ .

فاينما قلبت في الصحف والمجلات العراقية ـ على قلتها ـ لاتجد قلما قصصيا جديدا او قديما الا ما ينشره الصف « المستجد » احيانا وفي صفحات القراء من الجرائد البغدادية

والواقع ان هذه الازمة ليست عفوية وليست جديدة ، فنحن نعيشها منذ عقد من الزمن تقريبا .

ذلك ان الانصراف التام من جانب ادبائنا الى السياسة ـ وهذا ليس عيبا طبعا ـ قد جعلهم يبتعدون عن الادب بوجه عام ، وهذه هي النتيجة المؤسفة التي حصل عليها القطاع الادبي عموما والقصصي خصوصا عندنا .

هذه واحدة ـ كما يقولون ـ ، أما الاخرى فهي اننا بلا جذور قديمة في مجال القصة اذا فسنا ذلك بحيوية توفيق الحكيم منذ الثلاثينات الى اليوم وما خطه طه حسين وعادل كامل ومن ثم جيل نجيب محفوظ ويوسف ادريس في ج.ع.م. فبعد بدايات محمود واحمد السيد في بغداد منذ ثلاثين عاما تقريبا وموته السريع ، استلم الراية الخليلي ولطفي واخذا منهما وبقوا على الدرب ثم ابتعدا وابتعد من تبعهم .

والحق ان هذه النقطة تحتاج الى توسيع ولكني احاول ان اقصرها على المقارنة بين ما كنا عليه عام ١٩٥٥ مثلا واليوم .

كانت الجرائد المحلية تخصص صفحات كاملة للادب اسبوعيا ـ لا ركنا اخباريا ـ بالاضافة الى قصتين محليتين تنشران كل أسبوع في كل صحيفة .

وكان شباب القصة يجد في الاداب والاديب البيروتيتين مجالا صادقا ومفسوحا للنقد والتقييم ونشر النتاج الجديد .

وكانت الاقصوصة الجديدة تناقش في المقاهي والندوات الخاصة ثم يتطور النقاش اللساني الى نقاش على صفحات الصحف والمجلات.
وكان بعض الكتاب قد طبعوا مجاميعهم ـ وهو أمر نادر عندنا ـ طبعة ثانية دون ان يخسروا الكثير .

اما اليوم او بالاحرى منذ سبع سنوات فقد تلاشى الكثير من هذا ولم يبق للقصة العراقية الا الذكريات القليلة وقد قالوا « من بدأ يتحدث عن ذكرياته فقد انتهى » .

ولسنا على هذه الدرجة من التشاؤم ولكن يجب القول ان القصة العراقية تعاني اليوم أزمة نشر وازمة تشجيع ولا تعاني ازمة اقلام فانا اعرف الكثيرين ممن كتبوا لا مجاميع ، وانما روايات بكاملها ولكنهم لا يجرؤون على النشر لافلاس اليد اولا وخوف الفشل ثانيا .

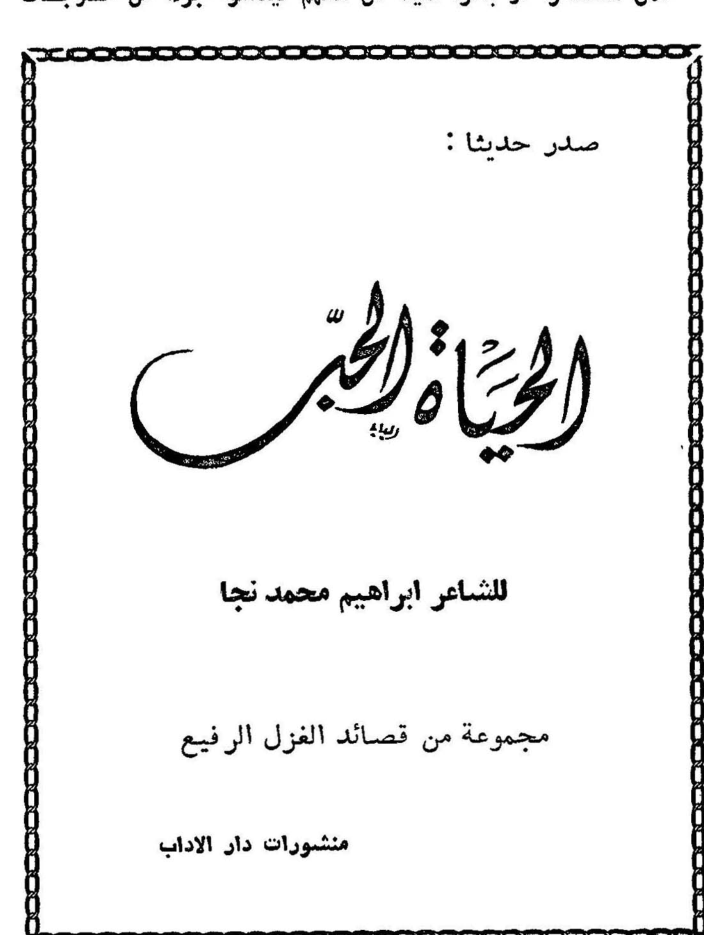
واستطيع القول ان الدولة او السلطة في الجمهورية العربية المتحدة لا تجزل للكاتب العطاء فقط ، وانما هي تدلله ايضا .. فمن بدل التفرغ الى تحوير القصة مسرحيا وتلفزيونيا وسينمائيا الى التحدث الدائم عنها في مجالات الصحافة .

ولست أدري من ألوم حقا في النهاية .. ألوم كسل القصاصين أم ألوم اصحاب الصحف والمجلات ؟..

الحقيقة ان البيضة والدجاجة عندنا يشتركان في المسؤولية ويشترك معهما القارىء الذي لا أدري كيف احدد مسؤوليته ؟ ألانه ذكي جدا بحيث لا يقتني الا ما يعتقده جيدا ؟ أم انه يتمثل القول المأثور (لا كرامة لنبي في وطنه) وانا أعرف أن قصاصينا ليسوا انبياء؟

المشكلة اذن تحتاج الى المزيد من المناقشة ويا حبذا لو تحرك الادباء فقالوا شيئا ولا أظن « الاداب » القراء بخيلة عليهم .

الدغارة ـ العراق — باسم عبد الحميد حمودي



قرأت العدد الماضي من الاداب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

« الزيارة » ـ بقلم زهير الشايب

هذه اول قصة نشرها مجلةالاداب لزهير الشايب ، ولكنها ليست أول قصة أقرأها له ، وربما لم تكن أحسن قصة ، وأخشى ان يتحول حديثي عن القصة الى حديث عنه ، فهو في اعتقادي موهبة أصيلة ، ولهذا فلن أضع في اعتباري وانا اعلق على قصته انها اول قصة تنشر لـه !..

وتتمثل في هذه القصة أهم مزايا زهير واهم عيوبه ، لكن أليس من الافضل ان نبدأ باستعراض القصة !؟؟

ليس في القصة أية احداث تروى فهي تقوم على تصوير لحظة نادرة في حياة انسان ، لحظة من تلك اللحظات التي تتجمع فيها حياة المرء كما تتجمع حزمة الضوء خلال قطعة من الزجاج المحدب فتصبح لافحة ومحرقة لحظة ينتظر فيها « مجاهد » أحد الخفراء في احدى القرى مرور المحافظ. وزيارة المحافظ لقرية صغيرة حدث اجتماعي هام يثير الكبار والصغار ويقتلع رجال الادارة من جذورهم ، وقد اقتلع مجاهد ووضعه ليحافظ على النظام في جزء من الطريق الذي سيمر فيه موكب المحافظ ، ولكن هذا الحدث يأخذ بالنسبة لمجاهد معاني أكثر من مجرد الفضول والدهشة والحرص على حفظ النظام فمجاهد ليس خفيرا عاديا انه .. ويسهب زهير في رسم شخصيته ، ويسرف في وصف ملامحه المادية والنفسية ، حتى الشخصيات الثانوية والحشود والضباط يصبحون مجرد ادوات لرسم هذه الشخصية .. التي تتحول خلال ركام التفاصيل الدقيقة الى نموذج للفرد البسيط المقهور العاجز الذي لا يملك سوى قدرته على ان يحلم وان ينتظر ، أجل ينتظر المحافظ هذه المرة فهو الرجل القادر على كل شيء ، القادر على ان يلحظ أدق الاشياء وكما يلحظ اعظمها ، فهو سيدرك النظام في المكان الذي يقف فيه ، كما يدرك نظافة ثوبه وحذائه وسلاحه .

واذا كان سيستمع منه مواجعه وهمومه بأذن الاب الرحيم ، فسيستمع من الضابط الى اخبار بطولاته في القبض على اللصوص وحفظ الامن بأذن المسؤول المقدر للبطولات .

وهكذا يتحول المحافظ من خلال أحلام مجاهد وأشواقه ومن خلال اهتمام الناس واحتشادهم الى رمز للقوة التي تتجمع حولها الاحلام كما تتجمع المخاوف !...

وطول لحظات الانتظار الحافل بالتوتر يستمر هذا الحوار بين احلام مجاهد وبين المحافظ ، ولا ينقطع ابدا الا حين يعلو الغبار ويسود الهرج وتختل الصفوف ويعلو الصياح والهتاف و ... ويمر موكب المحـافظ ..!

أجل لقد مر الموكب فقط .. ست عربات قالوا ان المحافظ كان في واحدة منها .. المحافظ الذي لا يستبين احد ملامحه .... وهكذا تبقى شخصية المحافظ طوال القصة غارقة في الغموض لتصبح رمزا لتلك القوة التي تتجمع حولها الاحلام والمخاوف ، لتصبح رمزا لله أو للسلطة ولتشير في نفس الوقت الى ذلك الفصام الذي لا يزال قائما بين الرد العاجز المقهور وبينها !..

قلت في البداية ان هذه القصة تمثل أهم مزايا زهير وأهم عيوبه ... وأهم مزاياه انه نجح في ان يجتاز الطريق المعقد بين الملامح المادية للواقع والملامح الروحية له .. وأهم عيوبه هو اسرافه في وصف تلك الملامح المادية اسرافا لا مبرر له ، وهذا الاسراف اوقعه في خطأ فني ، فشخصية مجاهد لا تستقيم الا اذا تصورناه رجلا طيبا الى حد السذاجة ، وهذا ضروري للاقتناع بأحلامه الطوباوية عن اهتمام المحافظ به ، فاذا حاول الكاتب اقناعنا بان اللصوص كانوا يخافون مجاهد كالموت فلن نصدقه الا اذا تصورنا هؤلاء اللصوص جماعة من الصبيان يلعبون عسكر وحرامية !..

« اجره الحلاقه » ـ بقلم محمد صالح ابراهيم

هذه ليست قصة ، انها مجرد حكاية عن حلاق فقير وخجول ايضا يستقبله احيانا زبائنه الفقراء ، ولكنه يفاجأ ذات يوم بزبون ثري يدخل دكانه الفقيرة فيشعر بالسعادة والحرج معا ، ولكن الزبون يحرج بعد الحلاقة دون ان يعطيه اجره ، ودون أن يطلب هو منه هذا الاجر .. لماذا ؟ .. انه ، كما يقول الكاتب خجول ، . وبعد لحظات يعود الثري ليطلب منه ان يحضر لبيته البعيد ليحلق لاولاده فيتجدد أمل الحلاق ، ويذهب الى البيت ـ ولا ينتظر بائع السمك الذي يعطيه أجره وقوقه سمكتين حين يعود من الصيد في نهاية النهار ـ وهناك في بيت الثري يحلق للاولاد ، وينتظر عودة الثري الى بيته ليأخذ أجره مضاعفا فلا يعود ، وانما يعلم ان الاسرة كلها مسافرة الى الشمال ـ أي شمال ؟ ـ فيحرج دون أن يطلب أجره من أحد في الاسرة لماذا ؟. أظنني قلت انه خجول ، وفي الصباح ينتظر الاسرة المسافرة على المحطة آملا ان يلقى الثري . ويلقاه فعلا قبل تحرك القطار ، ومن جديد يأمل ويعتذر له الوجيه عن تأخره ليلة امس ولكنه يعتذر أيضا لمدة دقيقة حتى يدفع باولاده داخل عربة القطار ، ولا ينظر من نافذة القطار الا بعد ان يتحرك . ينظر هذه المرة لا ليدفع للحلاق أجره بل ليقول له : وداعا !.. وهنا فقط يكتشف الحلاق ان نارا قد اشتعلت في قلبه فأكلت كل شيء حتى الخجل ، ثم يكتشف كشفا اخر لا يقل روعة عن الكشف السابق .

ـ لقد ضاع حقي لقد عرفت السبب انا .. ولكني بعد اليوم بعد اليـوم !!..

ومعذرة لانني أتعبت القارىء بهذا التلخيص ولكن لاسأله هل ثمة معنى لهذا كله ؟.. قد يكون له معنى في رأس المؤلف ، ومن المؤكد ان مجلة الاداب تشاطره هذا الرأي .. ولكني اقول له ولمجلة الاداب « لا » ورزقي على الله .

نسيت ان أقول لك ان الحلاق بعد ان عاد الى دكانه وجد بائع السمك في انتظاره ، وبهذا ارتفعت هذه الحكاية الى مستوى «النكتة» التي لا تضحك أحدا .

وفي النهاية اعتذر عن التعليق على مسرحية الاستاذ نديم خشفة لان مجلة الاداب وصلت الى القاهرة في اليوم العاشر من يناير وطلب الي بعدها ان أكتب تعليقا وأقدمه خلال يومين فلم تكن هناك فرصة لاكثر من كتابة تعليق سريع على القصص .

محمد ابو المعاطي ابو النجا

الحب والمرأة في شعر السياب

– تتمة المنشور على الصفحة ٧ –

يرغب في الاستقرار حملته شهرته كشاعر يحيا مرحلة صاخبة نمور بكافة الوان الصراع ان يلتزم موقفا . ولانه شاعر مشهور ، ولانه لم يكن مستعدا للتضحية بصحته وحياته من اجل موقف ، ولان البشر (ينفرون دوما من مواجهة نقاط الضعف فيهم ويطلبون من الفنون ان تقدم عن ذواتهم صورة مجملة كلها رتوش) (١٢) ، ولان المرحلة التي عاشها السياب كانت طاحنة بلغ فيها الصراع السياسي منتهاه عنفا .. لهذه الاسباب مجتمعة كان الاخرون ينظرون الى الشاعر نظرتهم الى مخلص يكفر عن اخطائهم فلا يتراجع اذا تراجعوا ، ومع ان السياب يقر صراحة نفوره من الالتزام فيقول : (ان الشعراء التموزيين اصيبوا بخيبة امل فاقلعوا عن الالتزام كأنهم اتفقوا على ذلك وان لم يتفقوا ... وارى ذلك في نفسي شخصيا فكأنني تخمت من الالتزام فانا اتفلت منه) (١٣) .. مع ذلك فقد طاب له فكريا ان يكون في شعره رمزا للفداء والتضحية ، وان يكن – عمليا – قد تخلى عن كافة الوان الالتزام الاجتماعي .

في المرحلة التموزية يطفى التفجع والرثاء في شعر السياب طغيانا يذهب معه مطاع صفدي الى القول بأن السياب يصف المأساة ولا يحكمها وان ملحمته فريسة لقدر ازلي سلفا لا تنمو ولكنها تنداح . واذا كان الرجل في هذه المرحلة رمزا للفداء والتضحية (المسيح ، تموز) فان المرأة نادبة باكية مروعة تجمع اشلاء تموز الطعين (عشتار) او تنتظر عودة البعل الغائب (وفيقة) ، وقد نجدها تمثل المسيح الفادي الذي يكفر بصلبه عن جبن الاخرين وقعودهم ، فالمناضلة جميلة بو حيرد عند السياب (مشبوحة الاطراف فوق الصليب) بينما الاخرون لديه حيارى لا يملكون من امر انفسهم شيئا :

ونحن في ظلمائنا نسأل
من مات من يبكيه من يقتل
يا من حملت الموت عن رافعيه
من ظلمة الطين التي تحتويه
الى سماوات الدم الواريه

وليست شخصية السيد المسيح او جميلة الا تقمصا لموقف الشاعر ذاته الذي يختار في قصيدة (رسالة من مقبرة) ان يموت ليصيح من قاع قبره : (لا تيأسوا من مولد او نشور) . ثم يرى حين يتعاظم ضغط المأساة ان هذه التضحية بلا مقابل ولا ثمر غير الملح ، ومع ذلك يضحي، وليمت هو كي تولد جيكور :

ودمي يتدفق ، ينساب
لم يغد شقائق او قمحا
لكن ملحا
جيكور ستولد لكني
لن ينبض قلبي كاللحن
لن يخفق فيه سوى الدود

ومهما يكن ، فلا حديث عن الحب في هذه المرحلة ، ربما لان المأساة كانت محورها ، وربما لتقدمه في السن بعد توديع الصبا ، وربما لان الزواج تكفل بارضاء حاجته للمرأة . بينما نجد المرأة في هذه المرحلة (سواء كانت عشتار او وفيقة او حفصة او جميلة او ارملة الشهيد) هي التي تتحمل النصيب الاوفى من المأساة فلا تملك الا الندب وانتظار الخلاص .

في مرحلة المرض التي انعكست في دواوينه الثلاثة الاخيرة رافقت نظرة السياب الى المرأة نظرته الى ماضيه والى الاخرين . ففي بداية المرض اذ نجد هدوءا واستسلاما صوفيا يدلان على ان الشاعر لم يفقد الامل في الشفاء نجد المرأة زوجة وفية تنتظر عودته معافى .. والمرأة في هذه المرحلة ليست غاية ووسيلة كما كانت في المرحلة الرومانسية ، بل هي وسيلة للنسيان والخلود الى الراحة والطمأنينة .. هي صدر دافىء حنون يريح الشاعر عليه رأسه المتعب: (نامي على صدري انيميني – على نهديك اواها) .. هي انسان يحتاجه باستمرار الى جانبه كما يحتاج كأس الخمرة ولفافة التبغ ، فاذا ذهبت انسحب معها الضياء وعاد الحزن :

وذهبت فانسحب الضياء
احسست بالليل الشتائي الحزين وبالبكاء
لم يبق منك سوى عبير
يبكي ، وغير صدى الوداع : الى اللقاء
. . . .
اني اريدك ، اشتهيك ، امس ثغرك في رساله
اني اذوب هوى ، اموت
واحن منك الى رساله

انه لا يحتاج منها سوى الحنان والعطف والهدوء ، والا فهي لا تعي مأساته ولا تفهم ابعادها ، ولذا فانه يجد في تجربة بودلير (راجع قصيدة الشاعر الرجيم) وابتعاد المرأة – رغم التقائهما جسديا – عن عالمه الغريب ، ما يشبه تجربته هو :

وانت يا ضجيعتي كأنك الكواكب البعيدة
كأن بيننا من الكرى جدار
يضمك اليدان تعصران جثة بليدة
كأنني معانق دمي على حجار

ان الرومانسية الجديدة في (شناشيل ..) ليست مرادفة للسذاجة الفكرية بل هي نزوع الى التخفف من كافة الاعباء والمسؤوليات. وفي هذه المرحلة ينظر الشاعر الى المرأة كوجه من وجوه الماضي الذي لم يقع كما يتمنى .. فلا ينسى – وهو مريض مستوحد يطيل التأمل في ماضيه ويتذكر امانيه التي لم تتحقق ان يخص المرأة بالذكر . ومرة اخرى تبعث (حسناء القصر) من ظلام الامس فهي الرمز المزدوج لما كان يتمناه السياب من التخلص من وطأة الفقر والحرمان ، ومن جديد يعود اتحاد عقدتي الفقر والمرأة :

.. غير اني كلما صفقت يد الرعد
مددت الطرف ارقب ، ربما ائتلق الشناشيل
فابصرت (ابنة الحلبي) مقبلة الى وعدي
ولم ارها ، هواء كل اشواقي ، اباطيل

ومع ذلك ، ورغم ان في ماضي الشاعر من الغصص والالام والاخفاق ما فيه ، فقد يطيب له في مرحلة مرضه ان يستعرض امجاده الماضية وبخاصة الغرامية منها ليقنع نفسه انه عاش حياته بامتلاء ، ولو ان ماضيه ظل كما كان ودون زواج لما كان ثمة ما يؤسف عليه :

واشرب صوتها فيظل يرسم في خيالي صف اشجار
اغازل تحتها عذراء ، اواها
على ايامي الخضراء بعثرها وواراها
زواج ! ليت لحن العرس كان غناء حفار

ان حاجته الى المرأة لا تستدعي الغرابة كما ظن سامي مهدي ، فهي اولا تقترن بالرغبة الملحة في اقتناص كل ما يمكن اقتناصه من متع قبل ان يودع الحياة ، وهي ثانيا معبر الى السلوان والراحة التامة ، وهي ثالثا تقترن بالرغبة في اقناع نفسه بانه عاش ماضيه بامتلاء ، فاذا يشعر بدنو الاجل نراه يأسف على انه لم يقتنص كل ما كان بامكانه ان يقتنصه من متع الشباب فنراه يخاطب احداهن قائلا :

كيف ضيعتك في زحمة ايامي الطويله
لم احل الثوب عن نهديك في ليلة صيف مقمره
انه ذنبي الذي لن اغفره

(١٢) الوجودية وحكمة الشعوب ، سيمون دي بوفوار ص ١٢
(١٣) اعمال مؤتمر روما ، ص ٢٥١

كيف لم اجبك يا لهفة ما بعد الاوان .

بل ربما كان في هذا الالحاح على المرأة ما يوهم به الشاعر نفسه انه معافى قادر على اتيان ما يستطيعه الاخرون ، فهو يحقق في تذكر ماضيه الغرامي منعكسا في شعره ما يعجز عن تحقيقه ابان اشتداد وطأة المرض .

ان ظل ابتسامة سخرية من كل شيء تلوح على صفحات شعره الاخير هي سخرية الواثق من نهايته تقوده الى تعرية ماضيه كله (راجع قصيدة : امام باب الله) ومع ذلك فانه حين يعود الى تجاربه الفاشلة مع المرأة ينظر الى مرحلة الطلب الجامعي من خلال نظرته الى العقبات التي حالت بينه وبين الارتواء . ولانه مريض متأزم نفسيا ينظر الى الماضي فيراه كما يتمنى لا كما وقع فعلا لم يكن يعترف بأن الفتاة الجامعية انذاك لم تكن تتعلق بالشاعر الغزلي حبا له وهياما بشخصه بل طمعا في ان تكون (ملهمة) ! بعض قصائد غزلية تفخر بين صويحباتها انها كتبت لها وبوحي منها . ينسى السياب هذه الحقيقة او لعله يتناساها تحت وطأة المرض والاسقاط النفسي ، ولذا يطيب له أن ينتقم من (حبيبات) الجامعة انتقاما يذكرنا بنهايات القصص الميلودرامية اذ يثور المظلومون ثورة عاتية ينتقمون فيها من ظالميهم انتقاما يتناسب وما قاسوه من آلام فاذا بواحدة منهن :

وامس رأيتها في موقف للباص تنتظر

فباعدت الخطى ونأيت عنها ، لا اريد القرب منها هذه الشمطاء

وهو يبتعد عنها لا لانها شمطاء فقد لا تكون تجاوزت الاربعين ، بل لانها تذكره باخفاق الامس في الوقت الذي يحرص على تناسيه حين يقول : (يا رب لو جدت على عبدك بالرقاد — لعله ينسى — من عمره الامسا) .

اما الثانية ، فقد :

عافتني الى قصر وسياره

الى زوج تغير منه حال ، فهو في الحاره

فقيرا يقرأ الصحف القديمة عند باب الدار في استحياء

يحدثها عن الامس الذي ولى فيأكل قلبها الضجر

والثالثة :

وتلك وزوجها عبدا مظاهر ليلها سهر

وخمر او قمار ثم يوصد صبحها الاغفاء

اما الرابعة فقد :

غيبها ظلام السجن تؤنس ليلها شمعه

فتذكرني وتبكي غير اني لست ابكيها

ولسنا نستبعد ان السياب لو لم يكن مريضا ينزع بوجدان مأزوم الى الانتقام ممن يعتقد انهم آذوه لاعترف — بينه وبين نفسه على الاقل — ان الذي حدث غير الذي تقوله هذه القصيدة ، اذ ليس ثمة ما يحول دون الظن بأن هذه النهايات قد لا تكون واقعة فعلا ، ولكنها — على اية حال — ترضي الشاعر وتعبر عما يتمنى ان يكون .

ولم تسلم المرأة في النزع الاخير من الثورة العاتية التي اعقبت هدوء الامل في الشفاء اذ عادت المرارة عنيفة طاغية حين ادركه اليأس ، فهو يتمنى الموت لان فيه خلاصا من شماتة الاخرين :

فهنا لا يشمت بي جاري

او تهتف عاهرة مرت من نصف الليل على داري

« بيت المشلول هنا ، امسى لا يملك اكلا او شربا

وسيرمون غدا بنتيه وزوجته دربا

وبناه الطفل اذا لم يدفع متراكم ايجار »

فالسؤال — وحتى في لحظات النهاية لم يعد : لماذا اموت ؟ بل لماذا اموت وتبقى عاهرة تشمت بي وتسخر من عائلتي .

رحم الله السياب . فقد كان — كمعظم ابناء جيله — صريع عقد كثيرة احسب ان عقدة المرأة كانت اهمها ، ولكنه كما عرى نفسه في شعره كان الصورة الاكثر حساسية لابناء ذلك الجيل .

الحلة (العراق) **عبد الجبار عباس**